

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلٌّ لَّهُ، وَمَنْ يُضْلِلُ، فَلَا هَادِي لَهُ.

وَأَشْهُدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهُدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَايِهِ وَلَا تَمُونُ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^١.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَأَنْقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأُرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^٢.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحُ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَعْفُرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْرًا عَظِيمًا﴾^٣.

أما بعد فإن الله تعالى أرسل رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم على حين فترة من الرسل وانقطاع من الوحي وأمره أن يصدع بالدعوة، وأن ينذر أم القرى ومن حولها، وأنزل عليه القرآن تبيانًا لكل شيء، وهدى ورحمة للمؤمنين، وحججة على العباد أجمعين، بلسان عربي مبين، وجعله من دلائل نبوته، معجزة باقية على مر الأيام، وكر الدهور، تحدى به العرب والعجم، بل الإنس والجن أن يأتوا بمثله وهم أرباب الفصاحة، وأساطير البلاحة، والبيان صنعتهم التي يجيدون، ولها يقيمون أسواقهم عكاذا والجنة وذى المجاز للتباري بما انتجه قرائحهم، من القصائد المعلقات والنظمات المطولات، فلما أنزل الله تعالى القرآن، رأوا لوناً من البيان لا عهد لهم به، يذري بكل كلام، ويتضائل أمامه كل بيان، فجثوا أمامه على الركب، وأذعنوا له صاغرين، فلما أنزل الله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأَنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ

١ - سورة آل عمران: الآية/ ١٠٢

٢ - سورة النساء: الآية/ ١

٣ - سورة الأحزاب: الآية/ ٧٠، ٧١

يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِيَعْضِي ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨]، قوله تعالى: ﴿فَلَيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، وتحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن في شرف اللفظ وعلو النظم، فأرموا ولم يزيدوا على الصمت، وعجزوا عن معارضته، فأنزل الله تعالى: ﴿فَقُلْنَاهُ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]، أي: مثله في النظم، وإن كان المعنى مفترى، فما ازدادوا إلا حيرة، ولم ينسوا بيت شفاعة، لعلمهم أنه ليس من كلام البشر، ولا يدانيه في الفصاحة وحسن السبك كلام، ولما لم تظهر منهم بادرة لقبول التحدي، ولم يغامر أحد منهم بكلام يعارض القرآن، قال من قال بالصرف؛ أي: أن الله تعالى صرف همهم عن معارضته القرآن مع قدرتهم على ذلك، وهو مذهب باطل قطعاً، بل عجزوا عن ذلك لما يرون من البون الشاسع، والفرق الهائل بين القرآن وغيره من كلام الفصحاء، فلما عجزوا عن ذلك تنزل معهم في التحدي إلى أقصر سورة من سور القرآن؛ فقال: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، ثم بالغ في التحدي مراجعاً لهم فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا...﴾ [البقرة: ٢٤]، فأخبر عن عجزهم في الحال وعن عجزهم في المستقبل، مع توفر الدواعي عندهم لمعارضة القرآن، ووأد الدعوة في مهدها.

وقد أقووا أنَّ القرآن لا يشبه كلام البشر؛ فعن ابن عباس: أنَّ الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلَّى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن، فكأنه رَقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاها فقال: يا عمِّ، إنَّ قومك يَرَوْنَ أنَّ يجتمعوا لك مالاً، قال: لم؟ قال: ليُعطوكه، فإنك أتيتَ محمداً لتعرَّضَ لِمَا قَبَلَه، قال: قد عَلِمْتَ قريشَ أني من أكثرها مالاً، قال: فَقُلْنَاهُ فِيهِ قَوْلًا يَلْعَلُّ قومك أنك منكِرٌ له، أو أنك كارهٌ له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجلٌ أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجنِّ، والله ما يُشِيهُ الذي يقول شيئاً من هذا، والله إنَّ لقوله الذي يقول حلاوةً، وإنَّ عليه لطلاوةً، وإنَّه لمثيرٌ أعلاه، مُغْدِقٌ أسفله، وإنَّه ليَعْلُو وما يُعلَى، وإنَّه ليَحْطِمُ ما تختنه، قال: لا يرضي عنك قومك حتى تقول فيه، قال:

فَدَعْنِي حَتَّى أَفْكِرَ، فَلِمَا فَكَرَ قَالَ: هَذَا سِحْرٌ يُؤْثِرُ، يَأْثِرُهُ عَنْ غَيْرِهِ، فَنَزَّلَتْ: ﴿ذُرِّنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِيدًا﴾ [المدثر: ١١].^١

وَمَا كَانَ الْقُرْآنَ قَدْ نَزَلَ بِلُغَةِ قَرِيشٍ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿نَزَّلْنَا رُوحَ الْأَمِينِ﴾ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) يُلْسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [الشعراء: ١٩٥ - ١٩٣]، وَكَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُلْسَانٌ قَوْمَهُ لَيُبَيِّنَ هُمْ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٤]، وَنَزَّلَ كَذَلِكَ عَلَى طَرَائِقِ كَلَامِهِمْ، وَأَسَالِيهِمُ الْبَلَاغِيَّةِ، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ مُبْتَكَرَاتٍ لَا عَهْدٌ لَهُمْ بِهَا، فَوْجَدُوا فِيهِ مَا يَدْهُشُ الْأَلْبَابَ، وَيَذْهَلُ الْعُقُولَ، لَمَّا بَيْنَهُ وَبَيْنَ كَلَامِهِمْ مِنْ الْبُونِ الْمَهَائِلِ.

تَحْدَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَهُمُ الْعَرَبُ الْلِسْنُ، أَرْبَابُ الْفَصَاحَةِ، وَأَسَاطِينُ الْبَلَاغَةِ وَأَعْلَمُ النَّاسِ بِأَنْوَاعِ الْكَلَامِ نَظِمًا وَنَثَرًا، تَحْدَاهُمُ أَنْ يَأْتُوا بِمَثَلِ الْقُرْآنِ، مَعَ أَنَّهُ أَنْزَلَهُ بِلُسُونِهِمْ، فَإِذَا عَجَزُوا عَنْ مَعَارِضِهِ كَانَ أَدْلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَطَعَ حِجَتَهُمْ؛ فَقَالُوا: ﴿يُلْسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيًّا وَعَرَبِيًّا﴾^٢.

فَلَمَّا عَجَزُوا عَنْ مَعَارِضِهِ مَعَ تَوْفِيرِ الدَّوَاعِي لِذَلِكَ، وَحَرَصُوهُمْ عَلَى إِسْكَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي يُسْفِهُ أَحْلَامَهُمْ وَيُعِيبُ آهَمَهُمْ، حَتَّى سَعَوْا إِلَى حَبْسِهِ عَنِ النَّاسِ حَتَّى لَا يَسْمَعُوا كَلَامَهُ، أَوْ نَفِيَهُ مِنْ بَلَادِهِمْ حَتَّى يَتَأَثَّرُ بِدُعُوتِهِ أَحَدٌ، أَوْ قَتْلَهُ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَكُرُّ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُشْتِبِهُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^٣.

وَكَانَ أَهُونُ مِنْ ذَلِكَ كُلُّهُ أَنْ يَنْبِرِي لَهُ أَرْبَابُ الْبَلَاغَةِ مِنْهُمْ، فَيَدْبَجُونَ كَلَامًا فِي عَدَةِ مَقْطُوعَاتٍ نَثَرِيَّةٍ، وَيَنْمِقُوْهَا، وَيَقُولُونَ هَذَا مَثَلُ مَا أَتَيْتَ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى تَجْرِيدِ

١ - رواه الحاكم في المستدرك - تفسير سورة المدثر، حديث رقم: ٣٩١٤

٢ - سورة فصلت: الآية / ٤٤

٣ - سورة الأنفال: الآية / ٣٠

السيوف، وتحييش الجيوش لحربه، ولكنهم يعلمون أن ذلك ليس بقدورهم، وإذا عجزوا عن معارضته فمن بعدهم أشد عجراً، لعلهم أن الفرق بين ما أتاهم به من القرآن وبين كلامهم هائل، والبُون بين الكلامين شاسع، يدرك ذلك كل واحد منهم، وهل أدل على ذلك من أن يسمع أعرابي قارئاً يقرأ قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمِنُ﴾ [الحجر: ٩٤]، فيخسر ساجداً! فيقال له: لم سجدت وليس الموضع موضع سجود؟ فيقول: سجدت لفصاحتِه.

وقد اشتمل القرآن على طائقَ العرب في كلامها، وفيه ما في كلامهم من الأساليب البلاغية، مع ما في القرآن من مبتكرات لا عهد للعرب بها، ومنها نظمه الذي خالف المعهود عندهم من الشعر والسبع، ومن ذلك كثير من الألفاظ التي لا عهد للعرب بها، وكثير من التراكيب اللغوية التي لم يعرفها العرب قبل نزول القرآن، ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرْكُهُ يَلْهَثُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وهذا أصدق مثل وأبشعه للكافر، إن وعظته وزجرته فهو ضالٌّ، وإن تركته فهو ضالٌّ، ولم يسمع مثله قبل القرآن، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبَيْوتَ لَيَئِثُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١]، فإن أوهن البيوت وأضعفها على الإطلاق هو بيت العنكبوت، ولم يسمع هذا التشبيه قبل القرآن، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْ زَارَهَا﴾ [محمد: ٤]، فإن الأوزار: هي الأحمال والأثقال، التي تكون مع المسافر في سفره فإذا قدم وضع أثقاله، فشبّهت حالة انتهاء القتال بحالة وضع المسافر أثقاله إذا رجع من سفره، ولم يسمع هذا التركيب في كلام العرب قبل نزول القرآن، والأمثلة على تلك التراكيب المبتكرة في القرآن كثيرة جداً يطول الكلام بسردها، ومن الأساليب التي عرفها العرب وجاءت في القرآن: الاحتباك، والالتفات، والتضمين، والتغليب، خروج اللفظ منخرج الغالب، واللف والنشر، والإيجاز، والإطناب، وعطف الخاص على العام، وعطف العام على الخاص، والتذليل، والاحتراض، والاعتراض، وضع الظاهر موضع المضمر، والعام المراد به الخصوص، والترقي، والطبق، والمدرج، والكناية، وضرب الأمثل، والتلقيف، والتقسيم، والتوكيد، وغيرها، وقد ذكرت في هذا البحث بعض تلك الأساليب، ولم يكن القصد استقصاء

الأُسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ الَّتِي فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَذَكَرْتُ بَعْضَ الْآيَاتِ الَّتِي فِي كُلِّ أَسْلُوبٍ وَلَمْ
استَقْصِي الْآيَاتِ مُحْلِّ الْإِسْتِدْلَالِ فِي كُلِّ أَسْلُوبٍ.

عملٍ في البحث:

قسمت البحث إلى مقدمة وفصلين وخاتمة، الفصل الأول تكلمت فيه عن إعجاز القرآن، والفصل الثاني تكلمت فيه عن بعض الأُسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ فِي الْقُرْآنِ، ثم الخاتمة.

وبعد فهذا جهد المقل فإن أصبت فمن الله تعالى وله الحمد وإن أخطأت فمن نفسي
ومن الشيطان والله ورسوله منه بريئان، والحمد لله أولاً وأخراً وصلى الله على نبينا محمد
وعلى آلِه وصحبه وسلم تسلیماً كثیراً

وكتبه: سعيد بن مصطفى محمد دياب

الدوحة في: ١٠ صفر ١٤٤٦ هـ

الموافق: ٤ أغسطس ٢٠٢٥ م

الفَصلُ الأوَّلُ

بَلَاغَةُ الْقُرْآنِ

بلاغة القرآن

القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة، وهو أحسن الحديث، وهو في أعلى درجة من الفصاحة، وأرفع رتبة في البلاغة، وفصاحة القرآن وجه من وجوه إعجازه، ولفصاحتها العالية، وبلامغتها الرفيعة، قال الوليد بن المغيرة مقولته المشهورة حين سمعه من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ جَاءَ إِلَيَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ فَكَانَهُ رَقَّ لَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: يَا عَمَّ! إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمِعُوا لَكَ مَالًا. قَالَ: لِمَ؟ قَالَ لِيُعْطُوكَهُ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتَعْرِضَ لِمَا قِيلَهُ، قَالَ: قَدْ عَلِمْتُ قُرْيْشَ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا، قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ قَالَ: وَمَاذَا أَقُولُ فَوَاللهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمُ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمُ بِرَجَزِهِ وَلَا بِيَصِيدِتِهِ مِنِّي، وَلَا بِالْأَشْعَارِ الْجِنِّ. وَاللهِ مَا يُشْبِهُ الدِّيَيْ يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَوَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الدِّيَيْ يَقُولُ حَلَاوةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوةً وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُعْدِقٌ أَسْقَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَأُ، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ.^١

و قبل أن نتكلم عن فصاحة القرآن وبلامغتها، وعن إعجازه الذي بهر العقول، وأدهش الألباب، وسلم له أساطير البلاغة، وسجد له الفصحاءُ اللسانُ، نذكر حد الفصاحة والبلاغة، ليتبين المراد، ويعلم وجه القصد والسداد، وتتميز الذري من الوهاد.

حد البلاغة:

البلاغة لغة: مصدر (بلغ الرجل) بالضم: إذا صار بليغاً.^٢

ورجل بليغ: حسن الكلام فصيحه، يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قوله.^٣

١ - رواه الحاكم في المستدرك - كتاب التفسير، تفسير سورة المدثر، حديث رقم: ٣٩١٤، البيهقي في شعب الإيمان - باب في الإيمان برسول الله صلوات الله عليهم، حديث رقم: ١٣٣

٢ - الكليات (ص: ٢٣٦)

٣ - انظر لسان العرب (٤٢٠ / ٨)

واصطلاحاً:

قال أبو هلال العسكري: (وهي إيصال المعنى إلى النفس في أحسن صورة).^١

وقال الرومي: (البلاغة هي الأقضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة).

وقال الفارسي: (البلاغة معرفة الفصل من الوصل).^٢

وقيل: البلاغة في الكلام: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحتها.^٣

وقال السكاكي: بلاغة المتكلم أن يكون بحيث يورد كل تركيب له في المورد الذي يليق به المقام، فمعنى توفيقه خواص التراكيب حقها أن يورد كل كلام موافقاً لمقتضى الحال، وقوله في تأدية المعاني وتوفيقه خواص التراكيب حقها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكتابية على وجهها.^٤

وقيل: أن يبلغ بعبارة كنه مراده، مع إيجاز بلا إخلال أو إطالة بلا إملال.^٥

وقيل: ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بلين.^٦

وعلى هذا فالبلاغة هي التعبير عن المعنى الصحيح لما طابقه من اللُّفْظ الرائق من غير مزيد على المقصود ولا انتقاد عنده في البيان

فعلى هذا فكلما ازداد الكلام في المطابقة للمعنى وشرف الألفاظ ورونق المعاني والتجنب عن الركيك المستغث كأن بلاغته أزيد.^٧

١ - معجم الفروق اللغوية (ص: ٣٠)

٢ - البصائر والذخائر (٦٥ / ٢)

٣ - معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (ص: ٩٣)

٤ - مفتاح العلوم (ص: ٤١٥)

٥ - معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (ص: ٩٣)، وانظر الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم (١ / ٢٠٤)، وحاشية الدسوقي على مختصر المعاني (١ / ١٤٢)

٦ - معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (ص: ٩٣)، وانظر الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم (١ / ٢٠٤)

٧ - الكليات (ص: ٢٣٦)

حُدُّ الْفَصَاخَةِ:

الْفَصَاخَةُ لغةً: الخلوصُ، ومنه: فصُحٌّ وَفَصَحٌ فهو مفصحٌ وفصيحٌ، أي: خلص من الرغوة.

ومنه قوله: وتحت الرغوة اللبن الفصيح.

ومنه: فصح الرجل إذا جادت لغته، وأفصح: تكلم بالعربية.

وأما في اصطلاح أهل البيان، فهي: صوغ الكلام على وجه له توفيقه بتمام الأفهام معناه وتبين المراد منه.^١

وتزيين الألفاظ بما يقرب فهمه، ويعزب نظمه، ويعدب استماعه، ويعجب ابتداعه، وتدل مطالعه على مقاطعه، وتنم مبادئه على تواليه لا باستعمال الشوارد التي لا تفهم، ولا الأوابد التي لا تعلم.

وقيل الفصاحة هي: خلوص الكلمة من تنافر الحروف، كقوله: ترَعَى الْمُعْجَحُ. ومن الغرابة، كقوله: وَمَرْسِنًا مُسَرَّجًا.

ومن مخالفة القياس اللغوي كقوله: العلبي الأجلل.

وخلوص الكلام من ضعف التأليف كقوله:

جزي ربه عندي بن حاتم.

ومن تنافر الكلمات قوله:

وَقَبْرُ حَرْبٍ إِنْكَانِ قَفْرٍ **** وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرٍ حَرْبٍ قَبْرٍ

ومن التعقيد، وهو إما إخلال نظم الكلام فلا يدرى كيف يتوصل إلى معناه، كقوله:

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُلَكًا **** أُبُو أُمَّهٖ حَيٌّ أُبُو هُؤَلَاءِ

١ - المصباح (ص: ٧٥)

وإما عدم انتقال الذهن من المعنى الأول إلى المعنى الثاني الذي هو لازمه والمراد به ظاهرٌ
كقوله:

سَأَطْلُبُ بَعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرِبُوا **** وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمِدَا

فانظر هل ترى في القرآن شيئاً مما ذكرَ مما يقدحُ في فصاحةِ الكلامِ، أو يُوسَمُ بأنه ركيثٌ
من الألفاظ، أو هل ترى فيه تنافراً بين حروفه، أو لفظاً غريباً يصعبُ في النطق، أو ينبو عنه
السمع؟

﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورِ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَتَيْنِ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ .١.

ومن الأمثلة على أن القرآن في أعلى درجات الفصاحة؛ قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ
إِسْلَامٍ مِنَا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّمٍ مِنْ مَعْكَ وَأُمَّمٍ سَنُمَتِعُهُمْ ثُمَّ يَمْسِحُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .٢.
وفيها تكرر حرف الميم ست عشرة مرّة، ومع ذلك لا يشعر القارئ بشيءٍ من العسر عند
النطق بها، ولا بشيءٍ من الثقل عند سماعها.

ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَبَا قُرْبَانًا فَتُؤْتَلَ مِنْ أَحَدِهِمَا
وَلَمْ يَتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لِأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ .٣.

وفيها تكرر حرف القاف عَشْرَ مراتٍ، ولا يكاد القارئ يشعر بتوليه هذا الحرف مع
شدته وقلقلته، وجهره، واستعلائه، ومع ذلك لا يشعر القارئ إلا بسهولة النطق، وسلامة
الألفاظ.

﴿وَلَقَدْ يَسَرَنَا الْقُرْآنَ لِلَّذِكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ .٤

١ - سورة الملك: الآية / ٣ ، ٤

٢ - سورة هود: الآية / ٤٨

٣ - سورة المائدة: الآية / ٢٧

٤ - سورة القمر: الآية / ١٧

عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: «جَاءَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيْرَةِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ اقْرَأْ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى، وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعْظُمُ لَعْلَكُمْ تَذَكَّرُونَ. قَالَ: أَعِدْ، فَأَعَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ لَهُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُعْدِقٌ وَمَا يَقُولُ هَذَا بَشَرٌ».^١

قلنا إن القرآن في أعلى درجات الفصاحة، وأرفع مقامات البلاغة، وذكرنا أمثلة من كتاب الله تعالى يتضح بها المراد، ويعلم بها القصد والسداد، وتميز بها الذري من الوهاد.

وهذه شواهد من كلام أرباب الفصاحة، وأساطير البلاغة، تنبئ عن البون الشاسع، والفرق الهائل بين كلام البشر، وكلام رب البشر سبحانه وتعالى.

ذكر أبو عبيدة: أَنَّ أَعْرَابِيًّا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمِرُ﴾ فسجد وقال: سجدت لفصاحته.

وسمع آخر يقرأ: ﴿فَلَمَّا اسْتَيَأْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَحِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]، فقال أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام.^٢

وحكي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يوما نائما في المسجد فإذا هو بقائم على رأسه يتشهد شهادة الحق فاستخبره فأعلمه أنه من بطارقة الروم من يحسن كلام العرب وغيرها وأنه سمع رجلا من أسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتها فإذا قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة وهي قوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَكْحُشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.^٣

١ - رواه البيهقي في دلائل النبوة- باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز وأنه لا يشبه شيئا من لغاتهم مع كونهم من أهل اللغة وأرباب اللسان (١٩٩/٢)

٢ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/٢٦٢)

٣ - سورة التور: الآية/ ٥٢

وحكى الأصمعي أنه سمع كلام جارية فقال لها: قاتلك الله ما أفصلك؟ فقالت أو يعد
هذا فصاحة بعد قول الله تعالى: ﴿وَأُوحِينَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية [القصص: ٧]،
فجمع في الآية واحدة بين أمرتين ونفيتين وخبرتين وبشارتين. ^١

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأَتُوْنِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠، ٣١]، جمع في ثلاث كلماتٍ بين: العنوان، والكتاب، وال الحاجة.

وقوله تعالى: ﴿فَالْتَّمَلْهُ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ اذْهُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَعْظِمُنَّكُمْ سُلَيْمَانٌ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .^٢

قال بعض العلماء هذه الآية: ﴿قَالَتْ تَمْلَةٌ يَا إِيَّاهَا النَّمَلُ ادْخُلُوهَا مَسَاكِنَكُمْ...﴾ من عجائب القرآن لأنها بلفظة ﴿يَا﴾ نادت، و: ﴿إِيَّاهَا﴾ نبهت، و: ﴿الَّمَلُ﴾ عينت، و: ﴿أَدْخُلُوهَا﴾ أمرت، و: ﴿مَسَاكِنَكُمْ﴾ نصّت، و: ﴿لَا يَحْطِمُنَّكُمْ﴾ حذرت، و: ﴿سُلَيْمَانُ﴾ خصّت، و: ﴿وَجْهُنَوْدُهُ﴾ عمت، و: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ اعتذرـت.

فجمع في هذه الآية على لسان النملة بين النداء، والتنبيه، والأمر، والنهاي، والتحذير، والتخصيص، والعموم، والإشارة، والإعذار.

قال ابن كثير رحمه الله: وأما القرآن فجميعه صحيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإنما من فهم كلام العرب وتصاريف التعبير؛ فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة سواء كانت مبسوطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا؛ وكلما تكرر حلاً وعلا، لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء؛ وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات؛ فما ظنك بالقلوب الفاهمات؛ وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والأذان، ويشوق إلى دار السلام، ومجاورة عرش الرحمن؛ كما قال في الترغيب: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُحْفِيَ لَهُ مِنْ قُرْآنٍ أَعْيُّنِ جَزَاءً إِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَدُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا حَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال في الترهيب: ﴿أَفَمِنْتُمْ أَنْ يَحْسِفَ بِكُمْ جَانِبُ الْبَرِّ﴾ [الإسراء: ٦٨]، ﴿أَمْنِتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَحْسِفَ

١ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى، وحاشية الشمني (٢٦٢، ٢٦٣ / ١)

٢ - سورة النمل: الآية / ١٨

بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تُؤْرُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرِسِّلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ [الملك: ١٦، ١٧] ، وقال في الزجر: ﴿فَكُلَا أَحَدْنَا بِذَنِبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤] ، وقال في الوعظ: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَعَنَّاهُمْ سِينِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُعْتَقُونَ﴾ [الشعراء: ٥ - ٢٠٧] ، إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلابة، وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء؛ كما قال ابن مسعود وغيره من السلف: إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فأوعها سمعك فإنه خير ما يأمر به أو شر ينهى عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحَلِّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَابَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرُهُمْ وَالْأَعْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾. الآية.^١

وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعقاب الأليم، بشرت به وحدرت وأنذرت؛ ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزهدت في الدنيا ورغبت في الأخرى، وثبتت على الطريقة المثلثي، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم.^٢

وقال شهاب الدين القسطلاني: والثانى: أن إعجازه هو الوصف الذى صار به خارجاً عن جنس كلام العرب من النظم، والنشر، والخطب، والشعر، والرجز، والسجع، فلا يدخل في شيء منها، ولا يختلط بها مع كون ألفاظه وحرفوه من جنس كلامهم، ومستعملة في نظمهم ونشرهم، ولذلك تحيرت عقوفهم، وتذهب أحالمهم، ولم يهتدوا إلى مثله في حسن كلامهم، فلا ريب أنه في فصاحته قد قرع القلوب ببديع نظمها، وفي بلاغته قد أصاب المعانى بصائب سهمه، فإنه حجة الله الواضحة، ومحجته الالائحة، ودليله القاهر، وبرهانه الباهر، ما رام معارضته شقيٌ إلا تحافت الفراش في الشهاب، وذلَّ ذُلُّ النقد حول الليوث الغضاب.

١ - سورة الأعراف: الآية / ١٥٧

٢ - تفسير ابن كثير (١ / ٢٠٠)

وقد حكى عن غير واحد من عارضه أنه اعتبرته روعة وهيبة كفؤة عن ذلك، كما حكى عن يحيى بن حكيم الغزال - بتخفيف الزاي وقد تشدد - وكان بلغ الأندلس في زمانه أنه قد رام شيئاً من هذا، فنظر في سورة الإخلاص ليحذو على مثالها، وينسج بزعمه على منوالها، فاعتبرته خشية ورقة، حملته على التوبة والإناية.

وحكى أيضاً أن ابن المقفع - وكان أفعى أهل وقته - أنه طلب ذلك ورامه، ونظم كلاماً وجعله مفصلاً، وسماه سوراً، فاجتاز يوماً بصبي يقرأ في مكتب قوله تعالى: ﴿وَقَيْلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءِكَ وَيَا سَمَاءِ أَقْلِعِي وَغَيْضَ الْمَاءِ وَفُضْيَ الْأَمْرِ﴾. الآية، فرجع ومحى ما عمل وقال: أشهد أن هذا لا يعارض أبداً، وما هو من كلام البشر.^١

وقال صاحب سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد: (وجه إعجازه معلوم ضرورة بجزالة لفظه، وفخامة تأليفه، وبلغه أقصى درجات مراتب البلاغة والفصاحة وحسن التئام كلماته ونظم آياته وبراعة إيجازه وغرابة فنونه وفصاحة وجوه فواتحه وخواتمه، فلا يحتاج العلم به إلى دليل).^٢

وقال أبو عيسى الرماني: فأما البلاغة فهي على ثلاث طبقات: منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في الوسائل، بين أعلى طبقة وأدنى طبقة، مما كان في أعلىها بقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن، وما كان منها دون ذلك فهو ممكناً كبلاغة البلاغاء من الناس، وليس البلاغة إفهام المعنى، لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بلغ والأخر عي، ولا البلاغة أيضاً بتحقيق اللفظ على المعنى، لأنه قد يتحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره، ونافر متكلف، وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ.

فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة، وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم، كإعجاز الشعر المفحوم، وهذا معجز للمفحوم خاصة، كما أن ذلك معجز للكافة.^٣

١ - المواهب اللدنية بالمنج المحمدية (٢٤٦ / ٢)

٢ - سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٤٠٨ / ٩)

٣ - اعجاز القرآن للرماني (ص: ٧٥، ٧٦)، ضمن ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله أحمد، ود.

محمد زغلول سلام

وقال أبو بكر الجصاص: وقد علمنا أن القرآن في أعلى طبقات البلاغة فجائز أن يكون التحدي للعجم واقعاً بأن يأتوا بكلام في أعلى طبقات البلاغة بلغتهم التي يتكلمون بها.^١

وقال أبو بكر الباقلاي: وقد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميعاً ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها، على حدٍ واحدٍ، في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه، ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا، وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب، من الآيات الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز في جميعها على حدٍ واحدٍ لا يختلف، وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتاً بينها، ويختلف اختلافاً كبيراً، ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة فرأينا غير مختلف ولا متفاوت بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر، لأن الذي يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكبير، عند التكرار وعند تبادل الوجوه، واختلاف الأسباب التي يتضمن.^٢

وقال حازم في منهاج البلاغة: إن الإعجاز فيه من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنواعها في جميعه استمراً لا توجد له فترة ولا يقدر عليه أحد من البشر وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة في جميع أنواعها في العالي منه إلا في الشيء اليسير المعدود ثم تعرض الفترات الإنسانية فتقطع طيب الكلام ورونقه فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه بل توجد في تفاريق وأجزاء منه والفترات في الفصاحة تقع للفصيح إما بسوء عرض له في الشيء من غير أن يكون جاهلاً به أو من جهل به أو من سامة تعترى فكره أو من هو للنفس يغلب عليها فيما يحوش عليها خاطره من اقتناص المعاني سميناً كان أو غثاً فهذه آفات لا يخلو منها الإنسان الفاضل والطبع الكامل.^٣

وقال الخطابي: أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متابينة غير متساوية؛ فمنها البلاغة الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل؛

١ - أحكام القرآن للجصاص (٣ / ٢٧١)

٢ - إعجاز القرآن للباقلاي (ص: ٣٨)

٣ - نقلاً عن البرهان في علوم القرآن (٢ / ١٠١)، ولم أجده النص في المطبوع من منهاج البلاغة.

ومنها الجائز الطلق الرَّسْلُ. وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم، الذي لا يوجد في القرآن شيء منه أَبْتَة.

فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأَرْفعه، والقسم الثاني أَوْسْطَه وأَقْصِدَه، والقسم الثالث أدنى وأَقْرَبُه؛ فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصةً، وأَخْذَت من كل نوع من أنواعه شعبة، فانتظم لها بامتنان هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتَي الفخامة والعنوبة، وهما على الانفراد في نوعهما كالمتضادين لأن العنوبة نتاج السهولة. والجزالة والمتانة تعالجان نوعاً من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبوّ كل واحد منهمما على الآخر فضيلة خص بها القرآن، يسرها الله بطريق قدرته من أمره ليكون آية بينة لنبِيِّه، ودلالة له على صحة ما دعا إليه من أمر دينه.

وإنما تغدر على البشر الإتيان بمثله لأمور: منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أَفْهَامَهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي يكون ائتلافها وارتباط بعضها بعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم. وإذا تأَمَّلت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أَفْصَحَ ولا أَجْزَلَ ولا أَعْذَبَ من ألفاظه، ولا ترى نظماً أَحْسَنَ تَالِيَّاً وأَشَدَ تلاوةً وتَشَاكِلاً من نظمه. وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها. والترقى إلى أعلى درجات الفضل من نوعتها وصفاتها.

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فاما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير، الذي أحاط بكل شيء علماً، وأَحْصَى كل شيء عدداً.

فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنَّه جاء بأَفْصَحَ الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمِناً أَصْحَ المعاني، من توحيد له عزت قدرته، وتنزيه له في صفاتَه، ودعاء إلى طاعته، وبيان بنهاج عبادته؛ من تحليل وتحريم، وحضر وإباحة، ومن وعظ وتقويم وأمر

المعروف ونفي عن منكر، وإرشاد إلى محسن الأخلاق، وزجر عن مسوئها، واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه.^١

وقال الخطابي أيضاً: وقد قلت في إعجاز القرآن وجهاً ذهب عنه الناس وهو صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منتبراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلوة في حال ومن الروعة والمهابة في حال آخر ما يخلص منه إليه، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ حَاسِعاً مُتَصَدِّعًا مِنْ حَشْيَةِ اللَّهِ﴾، وقال: ﴿الَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَاءِحًا مَثَانِيَ تَقْشِعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾^٢.

وكان طبيعياً أن يستكين العرب أمام هذه الذروة الرفيعة من البلاغة والبيان، وهي ذروة ليس لها في اللغة العربية سابقة ولا لاحقة، ذروة جعلت العرب حين يستمعون إلى آية تعنو وجوهم لربهم، ويخررون ركعاً وسجداً مشدوهين بجماله مبهورين ببلاغته، وفي ذلك يقول جل وعز: ﴿الَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَاءِحًا مَثَانِيَ تَقْشِعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَبَلُّؤُنَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾، ويقول: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ حَاسِعاً مُتَصَدِّعًا مِنْ حَشْيَةِ اللَّهِ﴾. ولا يزال هذا الشعور الذي كان يختل في قلوب العرب الأولين تتحقق به القلوب في كل عصر لما يفتح من آفاق العالم العلوي، ولما يؤثر به في صميم الوجدان الروحي، وهو يمتاز بأسلوب خاص به ليس شعراً، ولا نثراً مسجوعاً، وإنما هو نظم بديع، فوصلت آياته بفواصل تنتهي بها، وتطمئن النفس إلى الوقوف عندها.^٣

وقال الراغب: فألفاظ القرآن هي لبّ كلام العرب وزبدته وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم، وحكمهم، وإليها مفرع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونشرهم، وما عدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقصور والنوى بالإضافة إلى أطابق الشمرة، وكالحشالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة.^٤

١ - بيان إعجاز القرآن (ص: ٢٦ - ٢٨)

٢ - بيان إعجاز القرآن للخطابي (ص: ٧٠)

٣ - الفن ومذاهبه في النثر العربي (ص: ٤٦)

٤ - المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٥)

وقال الجرجاني: الإعجاز: في الكلام هو أن يؤدي المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق.^١

وإعجاز القرآن: ارتقاوه في البلاغة إلى أن يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضته.^٢

وإنما أطلت النفس في النقل عن أئمة الإسلام ردًا على من يتوهم أن القرآن ككلام البشر، يعتريه من الضعف ما يعتري كلام البشر، أو أن فصاحته يدان بها كلام الفصحاء، وتقاربها أساليب البلغاء.

١ - التعريفات (ص: ٣١)

٢ - الكليات (ص: ١٤٩)

الفَصلُ الثَّانِي

مِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ الْبَلَاغِيَّةِ

الاحتباك

الاحتباك من أبدع أساليب القرآن البلاغية، ومن ألطاف أنواع البديع في الكتاب العزيز، وقل من نبه له أو نبه عليه من أهل البلاغة، ذكره الزركشي في البرهان وسماه الحذف المقابل، وأفرد الإمام البقاعي بالتأليف وسماه: (الإدراك لفن الاحتباك).

وقال البقاعي: هو فن عزيز نفيس وقد جمعت فيه كتاباً حسناً ذكرت فيه تعريفه وما خذه من اللغة وما حضرني من أمثلته من الكتاب العزيز وكلام الفقهاء وسميته: «الإدراك لفن الاحتباك».^١

وهو من إبداعات القرآن وعناصر إعجازه.^٢

حدُّ الاحتباك:

الاحتباك لغةً: افتعال من الحبك وهو: أثر حسن الصنعة في الشيء واستوائها.

قال ابن الأعرابي: كل شيء أحكمته وأحسنت عمله فقد احتباكته.^٣

وقال أبو إسحاق: والمحبوك: ما أجيد عمله. وقال شير: دابة محبوبة إذا كانت مدجحة الخلق.

وقال الليث: **الحبك**: رباط الحظيرة بقصبات ثُعَرَضُ ثمَّ ثُشَدَ. تقول: حبكت الحظيرة كما ثحبك عروش الكرم بالحبال.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءُ ذاتُ الْحَبَكِ﴾ [الذاريات: ٧]، فسره أبو عبيدة بالاستواء وحسن الخلق.^٥

وقال ابن فارس: الحاء والباء والكاف أصل منقاس مطرد، وهو إحكام الشيء في امتداد واطراد. يقال بغير محبوك القرى، أي: قوية. ومن الاحتباك الاحتباء، وهو شد الإزار؛ وهو

١ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢٥ / ١)

٢ - البلاغة العربية (٣٤٧ / ١)

٣ - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٤ : ١٥٧٨)

٤ - تحذيب اللغة (٤ : ٦٧)

٥ - غريب الحديث (٤ / ٣١٢)

قياس الباب، وحبك السماء في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءُ ذَاتُ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧]، فقال قوم: ذات الخلق الحسن الحكم.^١

الاحتباك اصطلاحاً:

قال الزركشي: هو أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيحذف من كل واحد منهما مقابلة، لدلالة الآخر عليه.

وقال الحافظ السيوطي: الاحتباك: هو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول.^٢

وقال في عقود الجمان:^٣

فُلْتُ وَمِنْهُ الْاحْتِبَاكُ يُحْتَصَرُ * * * * *
مِنْ شَفَقِي الْجُمْلَةِ ضِدُّ مَا ذُكِرَ * * * * *

وَهُوَ لَطِيفٌ رَاقٌ لِلْمُفْتَسِسِ * * * * *
بَيْنَهُ ابْنُ يُوسُفَ الْأَنْدُسِي

من صور الاحتباك في كتاب الله تعالى:

قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهَدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلِيَصُمِّمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّهُ مِنْ أَيَّامِ أُخْرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَأْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.^٤

قال البقاعي: وفيه إشارة إلى احتباك، فإن ذكر الشهود أولاً يدل على عدمه ثانياً وذكر الإكمال لأجل الغمام ثانياً يدل على الصحو أولاً.^٥

١ - مقاييس اللغة (٢ / ١٣٠)

٢ - الإتقان في علوم القرآن (٣ / ٢٠٤)

٣ - عقود الجمان في علم المعاني والبيان (ص: ١٠٧)

٤ - سورة البقرة: الآية / ٢١٦

٥ - نظم الدرر في تناسب الآيات وال سور (٣ / ٦٤)

وقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾.^١

قال البقاعي: والآية من الاحتباك، ذكر أولاً الإفساد ليدل على حذفه ثانياً والإهلاك ليدل على حذفه أولاً، وذكر الحرج الذي هو السبب دلالة على الناسل والنسل الذي هو المسبب دلالة على الزرع فهو احتباك ثان.^٢

وقول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرِهُوا شَيْئًا وَهُوَ حَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.^٣

قال الطاهر ابن عاشور: في الآية احتباك، إذ الكلام على القتال، فتقدير السياق: كتب عليكم القتال وهو كره لكم ومنعتم منه وهو حرج لكم، وعسى أن تكرهوا القتال وهو خير لكم وعسى أن تحبوا وهو شر لكم.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.^٥

قال الطاهر ابن عاشور: وفي الآية احتباك، فالتقدير: ولهن على الرجال مثل الذي للرجال عليهن، فحذف من الأول لدلالة الآخر، وبالعكس.^٦

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ دُوَّ فَضْلٌ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.^٧

١ - سورة البقرة: الآية/ ٢٠٥

٢ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٧٤ / ٣)

٣ - سورة البقرة: الآية/ ٢١٦

٤ - التحرير والتنوير (٣٢١ / ٢)

٥ - سورة البقرة: الآية/ ١٨٥

٦ - التحرير والتنوير (٣٩٦ / ٢)

٧ - سورة البقرة: الآية/ ٢٥١

قال الطاهر ابن عاشور: في الآية احتباك، والتقدير: ولولا دفاع الله الناس بعضهم بعض وبقية الموجودات بعضها بعض لفسدت الأرض أي من على الأرض ولفسد الناس.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ﴾^٢.

في الآية احتباك، والتقدير: الشيطان يوسوس لكم بعدم المغفرة من الله تعالى بأن يقتطكم، ويعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء؛ والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً، ويأمركم بالعدل والإحسان.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِنَا فَعَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَآخْرِي كَافِرَةٌ﴾^٤.

في الآية احتباك، والتقدير: قد كان لكم آية في فتنتين، فعة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان، فحذف لفظ: (مؤمنة) في الأول، وذكر مقابلة في الثاني وهو لفظ: (كافرة)، وذكر تقاتل في سبيل الله في الأول، وحذف مقابلة في الثاني: تقاتل في سبيل الشيطان.

قال في فتح البيان: وفي الكلام شبه احتباك تقديره: فعة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان، فحذف من الأول ما يفهم من الثاني، ومن الثاني ما يفهم من الأول.^٥

ومنه قوله تعالى: ﴿لَئِنْ تَنَاهُوا عَنِ الْبِرِّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾^٦.

١ - تفسير ابن عاشور التحرير والتوير (٢/٥٠٣)

٢ - سورة البقرة: الآية/٢٦٨

٣ - الفوائد التفسيرية- ضمن آثار الملمعي (٤/٢٤)

٤ - سورة آل عمران: الآية/١٣

٥ - فتح البيان في مقاصد القرآن (٢/١٩٥)

٦ - سورة آل عمران: الآية/٩٢

في الآية احتباك وتقدير الكلام: إن أنفقتم مما تحبون علمه الله سبحانه وتعالى فأنالكم به البر، وإن تيممتم الخبيث الذي تكرهونه فأنفقتموه لم تبروا، وما تنفقوا من شيء من المحبوب وغيره فإن الله الذي له الإحاطة الكاملة به عليم.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^٢.

أي: خلطوا عملاً صالحًا بسيءٍ وعملاً آخر سيئاً بصالحٍ، فحذف من الأول بسيءٍ، ودلل عليه ذكره في الموضع الثاني، وحذف من الثاني بصالحٍ ودلل عليه ذكره في الموضع الأول.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا جَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾^٣.

قال الطاهر ابن عاشور: وفي الكلام احتباك لأن كلا للبسين هو بتقدير الله تعالى، لأنه حرّمهم التوفيق. فالتقدير: وللبسنا عليهم في شأن الملك فيلبسون على أنفسهم في شأنه كما لبسنا عليهم في شأن محمد صلى الله عليه وسلم إذ يلبسون على أنفسهم في شأنه.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسِسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسِسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^٥.

قال الطاهر ابن عاشور: وقابل قوله: ﴿وَإِنْ يَمْسِسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بقوله: ﴿وَإِنْ يَمْسِسْكَ بِخَيْرٍ﴾ مقابلة بالأعم؛ لأن الخير يشمل النفع وهو الملائم ويشمل السلامة من المنافر، للإشارة إلى أن المراد من الضر ما هو أعم، فكأنه قيل: إن يمسسك بضر وشر وإن يمسسك بنفع وخیر، ففي الآية احتباك.^٦

١ - نظم الدرر في تناسب الآيات وال سور (٥ / ٢)

٢ - سورة التوبة: الآية/ ١٠٣

٣ - سورة الأنعام: الآية/ ٩

٤ - التحرير والتنوير (٧ / ١٤٦)

٥ - سورة الأنعام: الآية/ ١٧

٦ - التحرير والتنوير (٧ / ١٦٣)

ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفِونَ مِنْ قَبْلٍ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا كُوِّنَ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.^١

قال الطاهر ابن عاشور: ففي الكلام احتباك، وتقديره: بل بدا لهم ما كان يبدو لهم في الدنيا فأظهروه الآن وكأنوا يخفونه. وذلك أنهم كانوا يخطر لهم الإيمان لما يرون من دلائله أو من نصر المؤمنين فيصدقهم عنه العnad والحرص على استبقاء السيادة والأئفة من الاعتراف بفضل الرسول وبسبق المؤمنين إلى الخيرات قبلهم، وفيهم ضعفاء القوم وعيدهم.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلِلَّدَائِرُ الْآخِرَةُ حَيْزٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.^٣

قال البقاعي: ذكر حال الدنيا وحذف نتيجتها لأهلها لدلالة ثمرة الآخرة عليه، وحذف ذكر حال الآخرة لدلالة ذكر حال الدنيا عليه، فهو احتباك.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿قُدْ نَعَمْ إِنَّهُ لَيَعْزِزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فِإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحُدُونَ﴾.^٥

قال الطاهر ابن عاشور: في الآية احتباك. والتقدير: فإنهم لا يكذبونك ولا يكذبون الآيات ولكنهم يجحدون بالآيات ويجحدون بصدقك، فحذف من كل لدلالة الآخر.^٦

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.^٧

١ - سورة الأنعام: الآية / ٢٨

٢ - التحرير والتنوير (١٨٥ / ٧)

٣ - سورة الأنعام: الآية / ٣٢

٤ -نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٩٣ / ٧)

٥ - سورة الأنعام: الآية / ٣٣

٦ - التحرير والتنوير (٢٠٠ / ٧)

٧ - سورة الأنعام: الآية / ٧٢، ٧١

قال الطاهر ابن عاشور: إن جعلت (أن) فيه تفسيرية فهو من عطف الجمل. فيقدر قوله: أمرنا لنسلم بأمرنا أن أسلموا لنسلم وأن أقيموا الصلاة، أي لنقيم فيكون في الكلام احتباك.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْبَلْدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتٌ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾^٢.

قال الطاهر ابن عاشور: المعنى: والنبت الذي خبث لا يخرج إلا نكدا، ويكون في الكلام احتباك إذ لم يذكر وصف الطيب بعد نبات البلد الطيب، ولم تذكر الأرض الخبيثة قبل ذكر النبات الخبيث، لدلالة كلا الضدين على الآخر. والتقدير: والبلد الطيب يخرج نباته طيباً بإذن ربِّه، والنبات الذي خبث يخرج نكداً من البلد الخبيث، وهذا صنع دقيق لا يهمل في الكلام البليغ.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَاءَةَ الْحَاجِ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامَ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^٤.

قال الطاهر ابن عاشور: وقد دل ذكر السقاية والعمارة في جانب المشبه، وذكر من آمن وجاهد في جانب المشبه به، على أن العملين ومن عملهما لا يساويان العملين الآخرين ومن عملهما. فوقع احتباك في طرق التشبيه، أي لا يستوي العمالان مع العملين ولا عاملوا هذين بعاملين ذينك العملين. والتقدير: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كالإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله، وجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد كالمؤمنين والمجاهدين في سبيل الله. ولما ذكرت التسوية في قوله: لا يستwoون عند الله أنسدت إلى ضمير العاملين، دون الأعمال: لأن التسوية لم يشتهر في الكلام تعليقها بالمعاني بل بالذوات.^٥

١ - التحرير والتنوير (٣٠٥ / ٧)

٢ - سورة الأنعام: الآية / ٥٨

٣ - التحرير والتنوير (١٨٦ / ٨)

٤ - سورة التوبه: الآية / ١٩

٥ - التحرير والتنوير (١٤٦ / ١٠)

ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّفَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾^١.

قال في فتح البيان: وفي الكلام شبه احتباك حيث حذف من كل ما أثبته أو مقابلة في الآخر فحذف مظلماً لدلالة مبصراً عليه وحذف لتحركوا لدلالة تسكنوا عليه، وهذا أوضح الكلام.^٢

وقال صاحب المنار: وفي هذه الآية احتباك وهو أنه حذف من كل من آتيت الليل والنهار ما أثبته مقابلة في الأخرى والعكس.^٣

وقال الطاهر ابن عاشور: ولما قابل السكون في جانب الليل بالإبصار في جانب النهار، والليل والنهار ضدان دل ذلك على أن علة السكون عدم الإبصار، وأن الإبصار يقتضي الحركة فكان في الكلام احتباك.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيَأَسَ الرَّسُولُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءُهُمْ نَصْرٌ مِّنْ نَّشَاءٍ وَلَا يُرَدُّ بِأَسْنَانِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾^٥.

قال الطاهر ابن عاشور: والجمع بين الماضي في (نجي) والمضارع في نشاء احتباك تقديره فنجي من شئنا من نجا في القرون السالفة ونجي من نشاء في المستقبل من المكذبين.^٦

ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^٧.

قال الطاهر ابن عاشور: وبهذا العموم الحاصل بالتذليل الشامل للرسول عليه الصلاة والسلام صار المعنى إنما أنت منذر لقومك هاد إليهم إلى الحق، فإن الإنذار والهدى متلازمان

١ - سورة يونس: الآية / ٦٧

٢ - فتح البيان في مقاصد القرآن (٩٦ / ٦)

٣ - تفسير المنار (١١ / ٣٧٢)

٤ - التحرير والتنوير (١١ / ٢٢٧)

٥ - سورة يوسف: الآية / ١١٠

٦ - التحرير والتنوير (١٣ / ٧٠)

٧ - سورة الرعد: الآية / ٧

فما من إنذار إلا وهو هداية وما من هداية إلا وفيها إنذار، والهداية أعم من الإنذار ففي هذا احتباك بديع.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَابِينَ عَفْوًا﴾.^٢

قال الطاهر ابن عاشور: لما شمل الصلاح الكامل والصلاح المشوب بالقصير ذيله بوصف الأوابين المفید بعمومه معنى الرجوع إلى الله، أي الرجوع إلى أمره وما يرضيه، ففهم من الكلام معنى احتباك بطريق المقابلة. والتقدیر إن تكونوا صالحین أوابین إلى الله فإنه كان للصالحين محسناً وللأوابين غفوراً. وهذا يعم المخاطبين وغيرهم، وبهذا العموم كان تذیيلاً.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلِّلُوا (٩٢) أَلَا تَتَبَعَنَ أَفَعَصِيَتِي أَمْرِي﴾.^٤

قال الطاهر ابن عاشور: والتقدیر: ما منعك أن تتبعني واضطررك إلى أن لا تتبعني، فيكون في الكلام شبه احتباك. والمقصود تأکید وتشدید التوبيخ بإنکار أن يكون هارون مانع حينئذ من اللحاق بموسى ومقتض عدم اللحاق بموسى، كما يقال: وجد السبب وانتفى المانع.^٥

ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾.^٦

قال الطاهر ابن عاشور: والإتيان بصيغة المستقبل في قوله تعالى: ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ احتباك، والتقدیر: فأنجيناهم ومن شئنا ونجي رسولنا ومن نشاء منكم، وهو تأمیل لهم أن يؤمّنوا؛ لأن من المکذبین يوم نزول هذه الآية من آمنوا فيما بعد إلى يوم فتح مکة.^٧

١ - التحریر والتنویر (٩٥ / ١٣)

٢ - سورة الإسراء: الآية/ ٢٥

٣ - التحریر والتنویر (٧٥ / ١٥)

٤ - سورة طه: الآية/ ٩٣

٥ - التحریر والتنویر (٢٩٢ / ١٦)

٦ - سورة الأنبياء: الآية/ ٩

٧ - التحریر والتنویر (٢١ / ١٧)

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَكْهَارُ يُخَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.^١

قال الطاهر ابن عاشور: في الكلام احتباك كأنه قيل: يخلون بها وحلитهم من أساور من ذهب ولباسهم فيها حرير يلبسوه.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.^٣

قال الألوسي: في الآية صنعة الاحتباك والتقدير: جعلنا الليل مظلماً ليسكنوا فيه، والنهر مبصرًا لينتشرروا فيه.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.^٥

قال الطاهر ابن عاشور: والمعنى: أي شيء يدركك الساعة بعيدة أو قريبة لعلها تكون قريباً ولعلها تكون بعيداً، ففي الكلام احتباك.^٦

ومنه قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَثُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشَهَّدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.^٧

قال الطاهر ابن عاشور: ففي كلتا الجملتين احتباك. والتقدير: وتكلمنا أيديهم فتشهد وتتكلمنا أرجلهم فتشهد. ويتعلق بما كانوا يكسبون بكل من فعلي تكلمنا وتشهد على وجه التنازع.^٨

١ - سورة الأنبياء: الآية / ٢٣

٢ - تفسير ابن عاشور التحرير والتنوير (٢٣٣ / ١٧)

٣ - سورة الأنبياء: الآية / ٨٦

٤ - تفسير الألوسي روح المعاني (١٠ / ٢٣٩)

٥ - سورة الأنبياء: الآية / ٦٣

٦ - التحرير والتنوير (٢٢ / ١١٣)

٧ - سورة الأنبياء: الآية / ٦٥

٨ - التحرير والتنوير (٢٣ / ٥٠)

ومنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بَعْدِ عَلَيْهِ لَيْنَصْرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌ عَفُورٌ﴾.^١

في الآية احتباك حيث ذكر المعاقبة أولاً وهي دليل على العزة والنصرة، وحذف ذكر العفو وذكر دليله ثانياً وهو عفو الله تعالى؛ فيكون تقدير الكلام فمن عاقب بمثل ما عقب به فلما أيده الله بنصره، ومن عفا فهو أولى بعفو الله وإن الله لعفو غفور.

قال البقاعي: ويجوز أن يكون التقدير ندباً إلى العفو بعد ضمان النصر: إن الله لعزيز حكيم، ومن عفا وأصلح فقد تعرض لعفو الله عن تقصيره، ومغفرته لذنبه، فهو احتباك: ذكر النصرة دليل العزة والحكمة، وذكر العفو منه سبحانه دليل حذف العفو من العبد.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكِ فِي جَيْلِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ ...﴾^٣
 التقدير: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكِ فِي جَيْلِكَ﴾ تدخل غير بيضاء. وأخرجها ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ﴾. فدل لفظ "بيضاء" في الأواخر على عبارة "غير بيضاء" المذوقة من الأوائل، ودللت عبارة "وأدخل" في الأوائل على عبارة "وأخرجها" المذوقة من الأواخر، فتم الاحتباك.^٤

قال الطاهر ابن عاشور: وفي هذه العاقبة احتباك إذ التقدير: لتذر من كان حيا فيزداد حياة بامتثال الذكر فيفوز ومن كان ميتا فلا ينتفع بالإذنار فيتحقق عليه القول، كما قال تعالى في أول السورة: ﴿إِنَّمَا تُنذَرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَحَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِعَفْرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١]، فجمع له بين الإنذار ابتداء والبشرارة آخرًا.^٥

١ - سورة الحج: الآية /٦٠

٢ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧٩ / ١٣)

٣ - سورة التمل: الآية /١٢

٤ - البلاغة العربية (٥٦ / ٢)

٥ - سورة يس: الآية /٧٠

٦ - التحرير والتنوير (٦٦ / ٢٣)

ومنه قوله تعالى: ﴿الَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.^١

قال الطاهر ابن عاشور: ودللت مقاولة تعليلاً لإيجاد الليل بعلة سكون الناس فيه، بإسناد الإبصار إلى ذات النهار على طريقة المجاز العقلي وإنما المبصرون الناس في النهار، على احتباك إذ يفهم من كليهما أن الليل ساكن أيضاً، وأن النهار خلق ليبصر الناس فيه إذ المنة بحما سواء، فهذا من بديع الإيجاز مع ما فيه من تفنن أسلوبي الحقيقة والمجاز العقلي.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ إِلَّا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ إِلَّا حَقُّ﴾.^٣

قال الألوسي: وزعم الجلي أن الآية من احتباك والأصل يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها فلا يشفقون منها والذين آمنوا مشفقون منها فلا يستعجلون بها.^٤

وقال في فتح البيان: في الآية احتباك حيث ذكر الاستعجال أولاً، وحذف الإشفاق، وذكر الإشفاق ثانياً وحذف الاستعجال.^٥

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشِّرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾.^٦

قال الطاهر ابن عاشور: وقرأ نافع وابن عامر والبزي عن ابن كثير ويعقوب لتتذر بالثناء الفوقية خطاباً للرسول صلى الله عليه وسلم فيحصل وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه منذر ووصف كتابه بأنه بشري وفيه احتباك.^٧

١ - سورة يس: الآية / ٦١

٢ - التحرير والتنوير (٢٤ / ١٨٥)

٣ - سورة الشورى: الآية / ١٨

٤ - تفسير الألوسي روح المعاني (١٣ / ٢٧)

٥ - فتح البيان في مقاصد القرآن (١٢ / ٢٩١)

٦ - سورة الأحقاف: الآية / ١٢

٧ - التحرير والتنوير (٢٦ / ٢٦)

ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌ﴾^١.

قال الطاهر ابن عاشور: هذا إخبار عن حالم فيما مضى بعد أن أخبر عن حالم في المستقبل بالشرط الذي في قوله: ﴿وَإِنْ يَرُوا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ [القمر: ٢]، ومقابلة ذلك بهذا فيه شبه احتباك كأنه قيل: وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا: سحر، وقد رأوا الآيات وأعرضوا وقالوا: سحر مستمر، وكذبوا واتبعوا أهواهم وسيكذبون ويتبعون أهواهم.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشَرِّبُونَ (٦٨) أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُرْزَنِ أَمْ نَحْنُ أَنْزَلْنَا (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾^٣.

قال الطاهر ابن عاشور: قوله: ﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُرْزَنِ﴾، جعل استدلالاً منوطاً بإنزال الماء من المزن، على طريقة الكنية بإزاله، عن تكوينه صالحًا للشراب، لأن إزاله هو الذي يحصل منه الانتفاع به ولذلك وصف بقوله: الذي تشربون. وأعقب بقوله: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًاً﴾، فحصل بين الجملتين احتباك كأنه قيل: أنتم خلقتموه عذباً صالحًا للشرب وأنزلتموه من المزن لو نشاء جعلناه أجاجاً ولا مسكناه في سحاباته أو أنزلناه على البحار أو الخلاء فلم تنتفعوا به.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^٥.

قال الطاهر ابن عاشور: خص المشركون بالذكر هنا إقاماً للذين يكرهون إقاماً هذا النور، وظهور هذا الدين على جميع الأديان. ويعلم أن غير المشركين يكرهون ظهور هذا الدين لأنهم أرادوا إطفاء نور الدين لأنهم يكرهون ظهور هذا الدين فحصل في الكلام احتباك.^٦

١ - سورة القمر: الآية / ٣

٢ - التحرير والتنوير (٢٧ / ١٧٢)

٣ - سورة الواقعة: الآية / ٦٨ - ٧٠

٤ - التحرير والتنوير (٢٧ / ٣٢٤)

٥ - سورة الصاف: الآية / ٩

٦ - التحرير والتنوير (٢٨ / ١٩٣)

ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنٌ وَمَنْ قَبْلُهُ وَالْمُؤْتَفِكُاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخْدَهُمْ أَخْذَةً رَايِّةً﴾^١.

قال الطاهر ابن عاشور: وفي عطف هؤلاء على ثمود وعاد في سياق ذكر التكذيب بالقارعة إيماء إلى أنهم تشبهوا في التكذيب بالقارعة كما تشبهوا في الجحود بالخاطئة وعصيان رسول ربهم، فحصل في الكلام احتباك.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿فُلُونَ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشْدًا﴾^٣.

قال الطاهر ابن عاشور: وفي الكلام احتباك لأن الضر يقابل النفع، والرشد يقابل الضلال، فالتقدير: لا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا ولا ضلالًا ولا رشدًا.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلَ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتَيْمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾^٥.

قال الطاهر ابن عاشور: وقد حصل في الآية احتباك لأنهم لما نفي إكرامهم اليتيم وقوبل بنفي أن يحضروا على طعام المسكين، علم أنهم لا يحضرون على إكرام أيتامهم، أي لا يحضرون أولياء الأيتام على ذلك، وعلم أنهم لا يطعمون المساكين من أموالهم.^٦

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَّةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمَّةٌ هَاوِيَّةٌ﴾^٧.

١ - سورة الحاقة: الآية / ١٠

٢ - التحرير والتنوير (١٢٠ / ٢٩)

٣ - سورة الجن: الآية / ٢١

٤ - التحرير والتنوير (٢٤٣ / ٢٩)

٥ - سورة الفجر: الآية / (١٨)

٦ - التحرير والتنوير (٣٣٣ / ٣٠)

٧ - سورة القارعة: الآية / ٦ - ٩

في الآية احتِباكُ؛ لأنَّه حذف من الأول ﴿فَأُمُّهُ الْجَنَّةُ﴾ وذكر فيها ﴿عِيشَةً رَّاضِيَةً﴾
وحذف من الآية الثانية (فهو في عيشة ساخطة) وذكر ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَّةً﴾ فحذف من كُلِّ نظير
ما أثبته في الآخر، وهو من المحسنات البديعية.^١

قال الزمخشري: قيل هاوِيَّةً من أسماء النار، وكأنَّها النار العميقَةُ لَهُوَ أَهْلُ النَّارِ فِيهَا مَهْوِيٌّ
بعيداً، كما روَى: "يَهُوَ فِيهَا سَبْعِينَ خَرِيفاً"؛ أي: فمأواه النار. وقيل للْمَأْوَى: أَمْ، على
التشبيه، لأنَّ الْأَمْ مأوى الولد ومفرزه.^٢

١ - صفوۃ التفاسیر (٣ / ٥٧٠)

٢ - تفسیر الكشاف (٤ / ٧٩٠)

الالتقاط

الالتقاط من أساليب القرآن البلاغية، وهو أَفْصَحُ في الكلام، وأجمل في البيان، وأبلغ في النِّظام.

حدُّ الالتقاط:

قال الجوهري: اللَّفْتُ: اللَّيْ. ولَفَتْ وجْهه عَنِي، أَيْ صِرْفَه. ولَفَتَه عَنْ رَأْيِه: صِرْفَه. وَتِيسَ
أَلْفَتُ بَيْنَ الْلَّفَتِ، إِذَا كَانَ مُلْتَوِيًّا أَحَدُ الْقَرْنَيْنِ عَلَى الْآخَرِ.^١

واصطلاحًا: هو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر.^٢

ويتنوع الالتقاط فيكون من الغيبة إلى الحضور، ومن الحضور إلى الغيبة، ومن الواحد إلى
الجمع، وعكسه.

قال أبو حيان: والانتقال من فنون البلاغة، وهو الانتقال من الغيبة للخطاب أو التكلم،
ومن الخطاب للغيبة أو التكلم، ومن التكلم للغيبة أو الخطاب. والغيبة تارة تكون بالظاهر،
وتارة بالمضمر، وشرطه أن يكون المدلول واحدًا.^٣

فائدة تُهُ:

وفائدته: إظهار الملكة في الكلام، والاقتدار على التصرف فيه.^٤

وتطرية الكلام وصيانة السمع عن الضجر والملال؛ لما جبت عليه النفوس من حب
التنقلات والسامة من الاستمرار على متواطن واحد.^٥

١ - تجديد الصحاح (ص: ٤٧٠٣)

٢ - الإنقان في علوم القرآن (٣ / ٢٨٩)

٣ - البحر الحيط في التفسير (١ / ٤٢)

٤ - البحر الحيط في التفسير (١ / ٤٢)

٥ - الإنقان في علوم القرآن (٣ / ٢٨٩)

شَرْطُ الالِتفَاتِ:

قال أبو حيان: وشرطه أن يكون المدلول واحداً.^١

وقال الزركشي: شرط الالتفات أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائداً في نفس الأمر إلى المنتقل عنه، وشرطه أيضاً أن يكون في جملتين أي: كلامين مستقلين حتى يمتنع بين الشرط وحوابه.^٢

مِثَالُ الِالِتفَاتِ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ:

قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ . فَ﴿إِيَّاكَ﴾، التِّفَاتُ لِأَنَّهُ اِنْتَقَالُ مِنَ الْغَيْبَةِ، لِلْخِطَابِ؛ إِذْ لَوْ جَرِيَ عَلَى نَسْقٍ وَاحِدٍ لَكَانَ إِيَّاهُ.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فِيمَنِ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾.^٣

الالتفات من الحضور إلى الغيبة؛ فإن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾، خطاب للمؤمنين، وقوله: ﴿فِيمَنِ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾. خبر عن الغائبين، ولو جاء على الخطاب لكان تقديره: (فِيمِنْكُمْ مَنْ يَقُولُ.....).

قال أبو حيان: وحكمة هذا الالتفات أنهم ما وجهوا بهذا الذي لا ينبغي أن يسلكه عاقل، وهو الاقتصار على الدنيا، فأبرزوا في صورة أنهم غير المخاطبين بذكر الله بأن جعلوا في صورة الغائبين.^٤

١ - البحر الحيط في التفسير (٤٢ / ١)

٢ - البرهان في علوم القرآن (٣٣١ / ٣)

٣ - سورة البقرة: الآية / ٢٠٠

٤ - البحر الحيط في التفسير (٣٠٩ / ٢)

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذْيَ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانِ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَإِلَّا فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ إِمَّا كَسَبُوا﴾.

قيل: الضمير في: ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾، عائد على المخاطبين في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذْي﴾. فيكون في الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة.

ويكون المعنى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذْي﴾ فإذا فعلتم ذلك لم تقدروا على الانتفاع بشيء مما كسبتم.

ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلُكِ وَجَرِينَ بِهِمْ﴾.¹
في الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة، ولو جرى الكلام على نسق واحد لكان في غير
كلام الله تعالى: (حتى إذا كنتم في الفلك وجرينا بهم).

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيَعْفُرَ لَكَ اللَّهُ﴾. والأصل: (لنعرف لك).
في الكلام التفات من الحضور إلى الغيبة، ولو جرى الكلام على نسق واحد لكان في غير
كلام الله تعالى: (إنما فتحنا لك فتحاً مبيناً ليعفرون لك).

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ والأصل: (لنا).
في الكلام التفات من الحضور إلى الغيبة، ولو جرى الكلام على نسق واحد لكان في غير
كلام الله تعالى: (إنما أعطيناك الكوثر فصلل ربنا).

ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ هُلُوا الْجَنَّةُ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾. والأصل:
(عليكم).

في الكلام التِّفاتُ من الخطاب إلى الغيبة، ولو جرى الكلام على نسقٍ واحدٍ لكان في غير كلام الله تعالى: (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحَرَّوْنَ يُطَافُ عَلَيْكُمْ).

مِثَالُ الْإِلْتِفَاتِ مِنَ الْوَاحِدِ إِلَى الْجَمْعِ:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتِ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبَصِّرُونَ﴾.^١

في هذه الآية التِّفاتُ من الواحد في قوله: ﴿مَا حَوْلَهُ﴾ إلى الجمع في قوله: ﴿بِنُورِهِمْ وَتَرَكُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبَصِّرُونَ﴾، ولو جرى الكلام على نسقٍ واحدٍ لكان في غير كلام الله تعالى: (ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِ وَتَرَكَهُ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبَصِّرُ).

ولا شك أن الالتفات أفسح في الكلام، وأوقع في نفس السامع، وأبلغ في النظم.

مِثَالُ الْإِلْتِفَاتِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكْلِيمِ:

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ﴾.

في هذه الآية التِّفاتُ من الواحد في قوله: ﴿أَرْسَلَ﴾ إلى ضمير الجمع المراد به التعظيم في قوله: ﴿فَسُقْنَاهُ﴾، ومن الغيبة إلى التَّكْلِيمُ أيضًا في الكلمتين، ولو جرى الكلام على نسقٍ واحدٍ لكان في غير كلام الله تعالى: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقَّافَهُ).

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّنَا﴾.

في هذه الآية التِّفاتُ من الواحد في قوله: ﴿أَوْحَىٰ﴾ إلى ضمير الجمع المراد به التعظيم في قوله: ﴿رَبَّنَا﴾، ومن الغيبة إلى التَّكْلِيمُ أيضًا في الكلمتين، ولو جرى الكلام على نسقٍ واحدٍ لكان في غير كلام الله تعالى: (وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّنَ).

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيَلَّا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكَنَا حَوْلَهُ لِنُرِيهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

في هذه الآية التِّفاتُ من الغيبة في قوله: ﴿الَّذِي أَسْرَىٰ﴾، إلى التَّكْلِيم في قوله: ﴿لِنُرِيهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾.

ولو جرى الكلام على نسقٍ واحدٍ لكان في غير كلام الله تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى
بِعَبْدِهِ لَيَلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكَنَا حَوْلَهُ لِيُرِيهُ مِنْ آيَاتِهِ).

وفيها التِّفَاتُ آخر من التَّكْلِيمِ في قوله: ﴿لِنُرِيهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾، إلى الغيبة في قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

ولو جرى الكلام على نسقٍ واحدٍ لكان في غير كلام الله تعالى: (لِنُرِيهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّا..).
قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَىٰ مِنَ الطَّيْبِ وَمَا
كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعُكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾.^١

في هذه الآية التِّفَاتُ من الغيبة في قوله: ﴿لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، إلى التَّكْلِيمِ في قوله: ﴿عَلَىٰ مَا
أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾، ولو جرى الكلام على نسقٍ واحدٍ لكان في غير كلام الله تعالى: (عَلَىٰ مَا هُمْ
عَلَيْهِ).

مثالُ الِّالتِّفَاتِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ:

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ حِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾.^٢

في هذه الآية التِّفَاتُ من الغيبة في قوله: ﴿وَقَالُوا﴾، إلى التَّكْلِيمِ في قوله: ﴿حِئْتُمْ﴾.

ولو جرى الكلام على نسقٍ واحدٍ لكان في غير كلام الله تعالى: (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا
لَقَدْ جَاءُوا شَيْئًا إِذَا).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَرَوَا كُمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمْكِنْ
لَكُمْ﴾.

في هذه الآية التِّفَاتُ من الغيبة في قوله: ﴿يَرَوَا﴾، إلى الخطاب في قوله: ﴿لَكُمْ﴾.

ولو جرى الكلام على نسقٍ واحدٍ لكان في غير كلام الله تعالى: (أَمْ يَرَوا كُمْ أَهْلَكْنَا مِنْ
قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ).

١ - سورة آل عمران: الآية / ١٧٩

٢ - سورة مريم: الآية / ٨٨

وقوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾.

في هذه الآية التفاتٌ من الغيبة في قوله: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُم﴾، إلى الخطاب في قوله: **لَكُمْ**.

ولو جرى الكلام على نسقٍ واحدٍ لكان في غير كلام الله تعالى: (وسقاهم ربهم شراباً طهوراً إن هذا كان لهم جزاءً).

التَّضْمِينُ

حدُّ التَّضْمِينِ:

الْتَّضْمِينُ لُغَةً: جعل الشيء في ضمن الشيء مشتملاً عليه.^١

وقيل: التَّضْمِينُ: هو إعطاء الشيء معنى الشيء.^٢

واصطلاحاً:

قال الخضري: وهو إشراب الكلمة معنى كلمة أخرى لتفيد المعنين.^٣

وقال أبو البقاء الكفوبي: التضمين هو إشراب معنى فعل لفعل ليعامل معاملته، وبعبارة أخرى هو أن يحمل اللفظ معنى غير الذي يستحقه بغير آلة ظاهرة.

وقال بعضهم: التضمين هو أن يستعمل اللفظ في معناه الأصلي وهو المقصود أصلًا لكن قصد تبعيته معنى آخر يناسبه من غير أن يستعمل فيه ذلك اللفظ، أو يقدر له لفظ آخر.

فلا يكون التضمين من باب الكنية ولا من باب الإضمار بل من قبيل الحقيقة التي قصد بمعناه الحقيقي معنى آخر يناسبه ويستوعبه في الإرادة.^٤

وقال بعضهم: التضمين إيقاع لفظ موقع غيره لتضمنه معناه.^٤

شرح التعريف:

أن يريد المتكلم أن يستعمل فعلين متقاربين، أو اسمين، أو حرفين في كلامه، وهذا يقتضي منه أن يصوغهما في جملتين، ويعطي كلاً منها تعديته التي تلائمه، فيعمد إلى أحد الفعلين فيذكره بلفظه، ثم يأتي بما يتعدى به الفعل الآخر فيذكره، ولا يذكر الفعل الآخر، فيكون قد ذكر فعلاً واحداً، وحرفاً يتعدى به الفعل الآخر ليدل عليه ويشير إليه، فيكون الفعل الأول

١ - التوفيق على مهمات التعريف (ص: ١٨١)

٢ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٣٣٨)

٣ - حاشية الخضري على ابن عقيل (١ / ٢٣)

٤ - كتاب الكليات (ص: ٤٠٤)

قد أشرب معنى الفعل الثاني، وتضمنه في طياته، وإنما فعل ذلك طلباً للاختصار، فيكون بذلك قد استغنى بجملة واحدةٍ عن جملتين، وهو مع ذلك يريد ارتقاءً في الأسلوب، وجمالاً في البيان، وإعمالاً لذهن المتألقِ.

والتضمين أسلوبٌ رائقٌ من أساليب البلاغة، وفقٌ رفيعٌ من فنون البيان.

قال الدكتور محمد فاضل: والتضمين من أنزه الفصول في العربية، فإذا تأملته عرفت منه وبه ما لحروف المعاني من أسرار يكشفها لك، ويظهر فيها مزية... ترى الحرف مع فعل أو مشتق لم يألفه، فيوحشك الحرف، فلولا معازة الخاطر في هذه الحروف وماوراة الفكر واكتداده لكتت منها على حرد، وعنها لمعزل، وبأمر سوها في شغل.^١

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: والعرب تضمن الفعل معنى الفعل وتعديه تعديته ومن هنا غلط من جعل بعض الحروف تقوم مقام بعض كما يقولون في قوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾؛ أي: مع نعاجه و ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: مع الله ونحو ذلك والتحقيق ما قاله نحاة البصرة من التضمين فسؤال النعجة يتضمن جمعها وضمها إلى نعاجه وكذلك قوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَقْتُلُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، ضمّن معنى: يزيغونك ويصدونك وكذلك قوله: ﴿وَتَصَرَّنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، ضمّن معنى نجيناه وخلصناه وكذلك قوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾، ضمّن يروى بها ونظائره كثيرة.^٢

والتضمين تارة يكون في الأسماء وفي الأفعال وفي الحروف.^٣

التَّضْمِينُ بَيْنَ الْكَوْفِينَ وَالْبَصْرِيِّينَ:

ذهب الكوفيون إلى أن حروف الجر تتناوب، وأنه لا تضمين في الكلام، فيقولون مثلاً في قول الله تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾؛ أي: يشرب منها، والباء هنا بمعنى: (من).

ويقولون في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾؛ إلى هنا بمعنى: مع؛ أي: مع نعاجه.

١ - التضمين النحووي في القرآن (١٠ / ١)

٢ - مجموع الفتاوى (١٣ / ٣٤٢)

٣ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٣٣٨)

ويقولون في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَفَلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِيلٌ مِّيتٌ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاء﴾ [الأعراف: ٥٧]، الباء هنا بمعنى: من؛ أي: فأنزلنا منه الماء.

وذهب البصريون إلى القول بالتضمين، وهو إشراب الكلمة معنى الكلمة أخرى، والتحقيق ما قاله البصريون؛ فإن القول بالتضمين فيه معنى زائد، وحمل الكلام على التأسيس أولى؛ لما فيه من زيادة المعنى، بخلاف قول الكوفيين الذين قالوا بتناوب الحروف.

التَّضْمِينُ فِي الْأَسْمَاءِ:

التَّضْمِينُ فِي الْأَسْمَاءِ هُوَ: أَنْ تَضْمِنَ اسْمًا مَعْنَى اسْمًا مَعْنَى الْأَسْمَاءِ جَمِيعًا.

أَمْثَالٌ عَلَى التَّضْمِينِ فِي الْأَسْمَاءِ:

قول الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ ١.

الأصل أن الرَّفَثَ لا يُعَدِّي بِإِلَى، فَلَا يَعْلَمُ رَفَثٌ إِلَى كَذَا، وهنا عَدِّيَ الرَّفَثُ بِإِلَى لتضمينه معنى الإفضاء.

وقوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقٌ﴾ ٢.

ضمِّنَ حَقِيقٌ معنى: حريصٌ ليفيد أنَّه محقٌّ بقول الحقٍ وحرirsch عليه.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيْظٌ عَنْهَا﴾ ٣.

ضمن: حَفِيْظٌ معنى كاشف؛ والتقدير: كأنك كاشف بحفاوتك عنها.

١ - سورة البقرة: الآية / ١٨٧

٢ - سورة الأعراف: الآية / ١٠٥

٣ - سورة الأعراف: الآية / ١٨٧

٤ - دراسات لأسلوب القرآن الكريم (٢/١٩٩)

التَّضْمِينُ فِي الْحُرُوفِ:

أَمْثِلَةٌ عَلَى التَّضْمِينِ فِي الْحُرُوفِ:

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾.^١

فإن أصل قوله تعالى: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ في ماذا كُنْتُم، وسؤال الملائكة عن مكانهم الذي كانوا فيه، بدليل قول الملائكة لهم: ﴿أَمَّمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتَهَا جَرُوا فِيهَا﴾، والسؤال عن المكان يكون بـ (أين) وليس بـ ﴿فِيمَ﴾، وإنما قالت الملائكة: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾؛ لتضمن الكلام معنى الإنغماس في قاذورات الشرك ونجاسات الكفر، بسبب مخالطتهم للمشركين.

قال ابن كثير: في قوله تعالى: ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي: لم يكتم هاهنا وتركتم المجرة؟^٢
 ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا نقدر على الخروج من البلد، ولا الذهاب في الأرض.^٣

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِيلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.^٤

ضمن الباء معنى (من)، في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِيلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، فيكون المعنى فأنزلنا منه الماء، والضمير في به عائد على السحاب.

وقوله تعالى: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾.^٥

أي على لسان رجل. وقيل ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى (مع)، وقيل: لا حذف ولا تضمين في الحرف بل هو على ظاهره؛ لأن ﴿جَاءَكُمْ﴾ بمعنى: نزل إليكم.^٦

١ - سورة النساء: الآية / ٩٧

٢ - تفسير ابن كثير (٢ / ٣٨٩)

٣ - سورة الأعراف: الآية / ٥٧

٤ - سورة الأعراف: الآية / ٦٣

٥ - البحر الطحيط (٤ : ٣٢٢)

التَّضْمِينُ فِي الْأَفْعَالِ:

التَّضْمِينُ فِي الْأَفْعَالِ هُوَ: أَنْ تُضْمِنَ فِعْلًا مَعْنَى فِعْلٍ آخَرَ، فَيَأْخُذُ حُكْمَهُ تَعْدِيًّا وَلُزُومًا، وَيَكُونُ فِيهِ مَعْنَى الْفِعْلَيْنِ جَمِيعًا.

وَذَلِكَ بَأْنَ يَكُونَ الْفِعْلُ لَازِمًا فَيَأْتِي مُتَعَدِّيًّا، وَالْأَصْلُ فِيهِ الْلَّزُومُ، أَوْ يَكُونَ الْفِعْلُ مُتَعَدِّيًّا بِحَرْفٍ، فَيَأْتِي مُتَعَدِّيًّا بِحَرْفٍ آخَرَ لَيْسَ مِنْ عَادَتِهِ التَّعْدِيَّ بِهِ.

أَمْثَلُهُ عَلَى التَّضْمِينِ فِي الْأَفْعَالِ:

قُولُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^١.

تَعْدَى الْفَعْلُ (هَدِي) مِنْ قُولِهِ: ﴿إِهْدِنَا بِنَفْسِهِ فَضْمِنَ مَعْنَى الْهِمْنَاءِ، أَوْ وَقْفَنَا، أَوْ ارْرُقْنَا، وَالْأَغْلُبُ أَنْ يَتَعَدَّ إِلَيْهِ﴾، كَقُولِهِ تَعَالَى: ﴿إِجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^٢.

وَكَمَا فِي قُولِهِ: ﴿فَأَهَدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾^٣.

وَالْهَدِيُّ هُنَا مَعْنَاهُ الْإِرْشَادُ وَالدَّلَالَةُ، وَكَذَلِكَ قُولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^٤.

أَيِّ تَرْشِيدُ النَّاسِ وَتَدْلِيمُهُ عَلَيْهِ.

وَقُولُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾^٥.

الْأَصْلُ أَنَّ الْفَعْلَ يَسَارِعُ يَتَعَدِّي بِإِلَيْهِ كَمَا فِي قُولِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^٦.

١ - سورة الفاتحة: الآية / ٦

٢ - سورة التحل: الآية / ١٢١

٣ - سورة الصافات: الآية / ٢٣

٤ - سورة الشورى: الآية / ٥٢

٥ - سورة المائدة: الآية / ٥٢

٦ - سورة آل عمران: الآية / ١٣٣

وإنما عدى الفعل ﴿يُسَارِعُونَ﴾ بـ ﴿فِيهِمْ﴾؛ لتضمنه معنى الدخول، فيكون معنى الكلام فترى المنافقين الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ في الدخول أي: فترى المنافقين الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ في الدخول في أحلاف اليهود والنَّصَارَى، مناصرين لهم، ومتعززين بهم خوفاً من أن تدور الدائرة عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ حَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلَيْهِمْ﴾^١.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ حَيْرًا فَهُوَ حَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا حَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^٢.

الأصل أن الفعل: ﴿تَطَوَّعَ﴾، يتعدى بالباء، يقال: تَطَوَّعَ بصدقة.

وهنا تعدى بنفسه، فتضمين معنى: فعل أو أتى.

وقوله تعالى: ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُوْهَا تَفْجِيرًا﴾^٣.

ضمِّنَ الفعل: ﴿يَشْرَبُ﴾، معنى يَرْوِي وَيَتَلَذَّذُ لِأَنَّهُ في الأصل لا يَتَعَدَّ بِالْبَاءِ، فَلِدَلِكَ دَخَلَتِ الْبَاءُ وَإِلَّا فَ﴿يَشْرَبُ﴾ يَتَعَدَّ بِنَفْسِهِ فَأُرِيدَ بِاللَّفْظِ الشُّرُبُ وَالرَّيْثُ مَعَ التَّلَذُّذِ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعْكُمْ إِنَّا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾^٤.

ضمِّنَ الفعل: ﴿حَلَوْا﴾ معنى: انْصَرَفُوا وَذَهَبُوا وَحَلَصُوا؛ لِتَعْدِيهِ بـ (إِلَى)، لِيَدْلُّ عَلَى الْفِعْلِ المضمر والْفِعْلِ الْمُلْفُوظِ بِهِ، ويكون المعنى إذا انْصَرَفُوا وَخَلَصُوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا: إِنَّا مَعْكُمْ إِنَّا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّ﴾^٥.

١ - سورة البقرة: الآية / ١٥٨

٢ - سورة البقرة: الآية / ١٨٤

٣ - سورة الإنسان: الآية / ٦

٤ - سورة البقرة: الآية / ١٤

٥ - سورة النازعات: الآية / ١٨

صُمِّنَ الْكَلَامُ مَعْنَى الدُّعَاءِ، لِأَنَّهُ فِي الْأَصْلِ إِنَّمَا يُقَالُ: هَلْ لَكَ فِي كَذَّا؟ كَمَا قَالَ أُمُّ حِبِّيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لَكَ فِي بَنْتِ أَيِّ سُفِيَّانَ؟^١

وَالْمَعْنَى: أَدْعُوكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلِيَحْذِرَ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.^٢

فَالضمير في قوله ﴿عَنْ أَمْرِهِ﴾، راجع إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو إلى الله تعالى، ولا منافاة، لأنَّ الْأَمْرَ لِلَّهِ تَعَالَى فِي الْحَقِيقَةِ، وَالرَّسُولُ مُبْلَغٌ عَنِ اللَّهِ، وَهُوَ الْمَقصُودُ هُنَا.

قال الراغب: والمخالفَةُ أَنْ يَأْخُذَ كُلَّ وَاحِدٍ طَرِيقًا غَيْرَ طَرِيقِ الْآخِرِ فِي حَالِهِ أَوْ قَوْلِهِ.^٣

وَالْأَكْثَرُ أَنْ يَتَعَدِّي الْفَعْلُ (يُخَالِفُ) بِنَفْسِهِ فَيُقَالُ: (زِيدُ يُخَالِفُ عَمْرًا)، فَإِذَا تَعَدَّى بِعِنْدِهِ صُمِّنَ مَعْنَى الإِعْرَاضِ كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾؛ صُمِّنَ مَعْنَى الإِعْرَاضِ لِتَعَدِّيهِ بِـ ﴿عَنْ﴾، وَالْمَعْنَى فَلِيَحْذِرَ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعَرِّضِينَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبِلُ التَّوْبَةَ عَنِ عِبَادِهِ﴾.^٤

عَدَّى الْفَعْلُ (يُقْبِلُ) بِحُرْفِ الْجَرِّ ﴿عَنْ﴾، مَعَ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْاسْتِعْمَالِ أَنْ يَعْدَى بِحُرْفِ الْجَرِّ «مِنْ» كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلَ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.^٥

١ - رواه البخاري - كتاب النكاح، باب ﴿وَرَبَائِكُمُ الْلَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِنْ نِسَائِكُمُ الْلَّاتِي دَحْتُمْ بِهِنَّ﴾، حدث رقم:

٦٥١٠، ومسلم - كتاب الرضاع، باب تحريم الريبة، وأخت المرأة، حدث رقم: ١٤٤٩

٢ - سورة التور: الآية / ٦٣

٣ - المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٩٤)

٤ - سورة التوبه: الآية / ١٠٤

٥ - سورة البقرة: الآية / ١٢٧

وَكَمَا فِي قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأُ عِمْرَانَ رَبِّي إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.^١

وَالْعَلَةُ أَنَّ الْفَعْلَ ﴿يَقْبَلُ﴾ ضَمِنَ مَعْنَى التَّحْمُلِ أَوِ التَّجَاوِزِ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى: أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبِلُ التَّوْبَةَ مَتَحْمِلًا أَوْ مَتَجَاوِلًا عَنِ عِبَادِهِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُرِدُ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُّذِيقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾.^٢
الْأَصْلُ فِي الْفَعْلِ (يُرِيدُهُ) أَنَّهُ لَا يَتَعَدَّ بِالْبَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.^٣

وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾.^٤

وَهُنَا تَعْدِي الْفَعْلَ ﴿يُرِيدُ﴾ بِالْبَاءِ لِأَنَّهُ ضُمِّنَ مَعْنَى (يَهُمُّ)، أَيْ: مَنْ يَهُمُّ فِيهِ بِأَمْرٍ مُحْرَمٍ مِنَ الْمُعَاصِي نُذِيقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِحَادِ الْعُمَى عَنْ ضَلَالِهِمْ﴾.^٥

قَدْ يَتَعَدَّ الْفَعْلُ هَدِيَّ بِنَفْسِهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. فَيُضَمِّنُ مَعْنَى: أَهْمِنَا، أَوْ وَقِنَا، أَوْ ارْرُقْنَا، وَقَدْ تَقْدِمُ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ.

وَكَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ التَّاجِدَيْنِ﴾.^٦

أَيْ: بَيَّنَا لَهُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ.

وَقَدْ يَتَعَدَّ بِ(إِلَيْهِ)؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ﴾.^٧

١ - سورة آل عمران: الآية / ٣٥

٢ - سورة الحج: الآية / ٢٥

٣ - سورة التوبه: الآية / ٨٥

٤ - سورة آل عمران: الآية / ١٧٦

٥ - سورة الروم: الآية / ٥٣

٦ - سورة البلد: الآية / ١٠

٧ - سورة النحل: الآية / ١٢١

وَكَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾.^١

وَذَلِكَ بِمَعْنَى الْإِرْشَادِ وَالدَّلَالَةِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.^٢

وَقَدْ يَتَعَدَّدُ بِاللَّامِ، كَقَوْلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا هَذَا﴾.^٣

أَيْ: وَفَقَنَا هَذَا وَاجْعَلَنَا لَهُ أَهْلًا.

وَهُنَا تَعْدِي اسْمَ الْفَاعِلِ: ﴿بِحَادِ﴾ بِحَرْفِ الْجَرِ ﴿عَنِ﴾، فَضَمِّنَ الْفَعْلَ «هَدِي» مَعْنَى صِرَافٍ، أَوْ أَبْعَدَ، إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُمْ عَاكِفُونَ عَلَى الضَّلَالِ، لَا يَتَحَوَّلُونَ عَنْهُ أَبَدًا، وَلَا يَتَجَازَوْنَ حَدَودَهُ، وَالْمَعْنَى: وَمَا أَنْتَ بِصَارِفِ الْعُمَى عَنْ ضَلَالِهِمْ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ ظَلَمْتَ بِسْتُؤْالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾.^٤

الْفَعْلُ سَأْلٌ يَتَعَدِّي بِنَفْسِهِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾.^٥

وَيَتَعَدَّى بِ(عَنْ)؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاسْأَلُوهُمْ عَنِ الْفَرِيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ﴾.^٦

فَإِذَا تَعْدِي بِ(إِلَى) كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ ضَمِّنَ مَعْنَى فَعْلٍ آخَرَ وَهُوَ ضَمْ أَوْ جَمْ وَيَكُونُ الْمَعْنَى: لَقَدْ ظَلَمْتَ بِسْتُؤْالِهِ إِيَّاكَ أَنْ تَضْمِنَ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَحْسَنَ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفَّارَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.^٧

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.^٨

ضَمِّنَ الْفَعْلَ (يَنْصُرُهُ) مَعْنَى الْفَعْلِ (يَضْمِنُهُ) فَيَكُونُ الْمَعْنَى مِنْ يَضْمِنُونَ نَصْرَهُمْ لِي إِلَى نَصْرِ اللَّهِ تَعَالَى لِي، فَيَكُونُ سَبِيلًا فِي حُصُولِ النَّصْرِ الَّذِي وَعَدَنِي اللَّهُ تَعَالَى.

١ - سورة الصافات: الآية/ ٢٣

٢ - سورة الشورى: الآية/ ٥٢

٣ - سورة الأعراف: الآية/ ٤٣

٤ - سورة ص: الآية/ ٢٤

٥ - سورة النساء: الآية/ ٣٢

٦ - سورة الأعراف: الآية/ ١٦٣

٧ - سورة آل عمران: الآية/ ٥٢

٨ - سورة الصافات: الآية/ ١٤

قال الطاهر بن عاشور: ووصل وصف أنصاري إلى إما على تضمين صفة أنصار معنىضم أي من ضامون نصرهم إياي إلى نصر الله إياي، الذي وعدني به إذ لا بد لحصول النصر من تحصيل سببه.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾^٢.

ضمن الفعل (نصر) من قوله: ﴿وَنَصَرْنَاهُ﴾، معنى الفعل نجح وحَلَّ، فيكون المعنى، ونصرناه فنجيناها وخلصناها من القوم الذين كذبوا بآياتنا.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾^٣.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾^٤.

الأصل أن الفعل ﴿كَفَى﴾ لا يتعدى بالباء إنما يتعدى بنفسه، قال الله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾^٥.

قال ابن الزملکاني: وكفى من كفيته الشيء ولم يجيء للعرب كفيته بالشيء فجعل بين الفعلين الفعل المذكور وهو متعد وخاص من الفعل اللازم وهو اكتفيت به بالباء وكذلك انتصب ﴿شَهِيدًا﴾، على التمييز أو الحال، كأنه قيل: كفى بالله فاكتف به فاجتمع فيه الخبر والأمر.^٦

وقال الرجاج: دخلت لنضمن ﴿كَفَى﴾ معنى: اكتفى وهو حسن.^٧

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقِوَا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^٨.

١ - التحرير والتنوير (٢٥٥ / ٣)

٢ - سورة الأنبياء: الآية / ٧٧

٣ - سورة النساء: الآية / ١٦٦

٤ - سورة الأنبياء: الآية / ٤٧

٥ - سورة الأحزاب: الآية / ٢٥

٦ - البرهان في علوم القرآن (٣٨٧ / ٣)

٧ - البرهان في علوم القرآن (٨٣ / ٣)

٨ - سورة البقرة: الآية / ١٩٥

الفعل **﴿تُلْفُوا﴾** يتعدى بنفسه بدليل قول الله تعالى: **﴿وَالْأَرْضَ مَدْنَاهَا وَلَقَنَاهَا فِيهَا رَوَاسِيٌ﴾**^{١.}

وقال تعالى: **﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِ﴾**^{٢.}

وهنا تعدى بالباء لأنه ضمّن معنى: (تفضوا)، فيكون المعنى: ولا تلقو أنفسكم مفضدين بها إلى التهلكة بأيديكم.

ومنه قوله تعالى: **﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَّمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾**^{٣.}

ضمّن الفعل **﴿ضُرِبَ﴾**، في الآية من قوله تعالى: **﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ﴾**، معنى: يحجز؛ فيكون تقدير الكلام: فضرب بسور يحجز بينهم.

قال الطاهر بن عاشور: وضمن فضرب في الآية معنى الحجز فعدي بالباء، أي ضرب بينهم سور للحجز به بين المنافقين والمؤمنين، خلقه الله ساعتين قطعاً لأطماعهم وتركهم في ظلمات لا يتصرون، فحق بذلك التمثيل الذي مثل الله به حاهم في الدنيا بقوله: **﴿مَشَّلُهُمْ كَمَشَّلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبَصِّرُونَ﴾** [البقرة: ١٧].

وأنَّ الحيرة وعدم رؤية المصير عذابُ الْيَمِ.

ومنه قوله تعالى: **﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلِمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا يُقْطِعُنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صِلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيْنَنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾**^{٤.}

١ - سورة ق: الآية / ٧

٢ - سورة القصص: الآية / ٧

٣ - سورة الحديد: الآية / ١٣

٤ - تفسير ابن عاشور التحرير والتتوير (٣٨٣ / ٢٧)

٥ - سورة طه: الآية / ٧١

ضمير الفعل: ﴿لَا صَلَبَنَّكُم﴾، من قوله تعالى: ﴿وَلَا صَلَبَنَّكُمْ فِي جَهْنَمِ النَّحْل﴾ معنى الفعل: (لَا تَبَتَّنَّكُم)، فإن الفعل ﴿لَا صَلَبَنَّكُم﴾، يتعدى بحرف الجر "على"، ولا يتعدي به "في"، ولما كان مراد فرعون المبالغة في شدهم على جهنم بالنحول، وتتبّعهم فيها بالمسامير التي تدخل في الجنوبي، شبه تمثيلهم على الجنوبي بتمكن من حواجز الجنوبي واشتمل عليه، وكانت التعديبة بحرف الجر "في" دليلا على الفعل المدحوف (لَا تَبَتَّنَّكُم).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾.^١

الأصل في الفعل ﴿أَحْسَنَ﴾، أن يتعدى به (إلى)، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكُ﴾.^٢

وهنا عددي الفعل ﴿أَحْسَنَ﴾ بـ(الباء) فضمير معنى: لطف، فيكون المعنى: وقد لطف الله بي من كمال إحساني عندما أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.^٣

فإن الأصل أن يتعدى الفعل: (أَحْسَنَ)، بـإلى كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكُ﴾.^٤

وإنما عددي الفعل: (أَحْسَنَ) من اللفظ المقدر (وَأَحْسِنُوا) بـ(بالباء) لتضمينه معنى الرفق، واللطف، فيكون المعنى: وأحسنوا للوالدين وارفقوه وتلطقوه بهما.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾.^٥

فإن الأصل في الفعل: (رغبة) أن يتعدى به (في) يقال: رغب في الشيء، إذا أراده وحرص عليه وطمع فيه وأحبه، ويقال: رغب في الزواج، إذا أراده، ورغبة في فلانة: أراد الزواج منها.

١ - سورة يوسف: الآية / ١٠٠

٢ - سورة القصص: الآية / ٧٧

٣ - سورة النساء: الآية / ٣٦

٤ - سورة القصص: الآية / ٧٧

٥ - سورة البقرة: الآية / ١٣٠

فِلَمَا عَدَى الْفَعْلُ: ﴿يَرْغَبُ﴾ بِ﴿عَنْ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾، ضُمِّنَ مَعْنَى الْكُرْهِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الشَّيْءِ وَالْعُدُولِ عَنْهُ.

قَالَ الطَّاهِرُ بْنُ عَاشُورَ رَحْمَهُ اللَّهُ: وَالرَّغْبَةُ طَلْبُ أَمْرٍ مُحْبُوبٍ، فَحَقُّ فَعْلِهَا أَنْ يَتَعَدَّى بِفِيهِ وَقَدْ يَعْدِي بِعْنَهُ إِذَا ضُمِّنَ مَعْنَى الْعُدُولِ عَنِ الْأَمْرِ حَتَّى صَارَ مَنْسِيًّا.^١

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفَهَ نَفْسَهُ﴾.^٢

ضُمِّنَ الْفَعْلُ ﴿سَفَهَ﴾، مَعْنَى جَهْلٍ، أَوْ أَهْلَكَ، وَعَدَى تَعْدِيَةَ الْفَعْلِ: (سَفَهَ)، كَأَنَّهُ قِيلَ: جَهْلٌ نَفْسِهِ لَخْفَةُ عَقْلِهِ أَيْ لَمْ يَعْرِفْهَا بِالْفَتْكَرِ، أَوْ أَهْلَكَ نَفْسِهِ بِعَدَمِ اتِّبَاعِهِ لِخَيْرِ الْمُلْلِ وَأَزْكَاهَا، مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَأَعْرَضَ وَتَرَكَهَا رَغْبَةً عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا.

قَالَ أَبُو حِيَانَ رَحْمَهُ اللَّهُ: ضُمِّنَ مَعْنَى مَا يَتَعَدَّى، أَيْ جَهْلٌ، وَهُوَ قَوْلُ الزَّجَاجِ وَابْنِ جَنِيِّ، أَوْ أَهْلَكَ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي عَبِيدَةَ.^٣

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَأْكُمْ﴾.^٤

عَدَى ﴿لَتُكَبِّرُوا﴾ بِ(عَلَى) لَأَنَّهُ ضُمِّنَ مَعْنَى: الشُّكْرِ؛ أَيْ: لَتَكْبِرُوا اللَّهَ تَعَالَى شُكْرًا لَهُ عَلَى مَا هَدَأْكُمْ.

أَيْ: أَرْشَدَكُمْ لِمَعْلَمِ دِينِهِ وَمَنَاسِكَ حَجَّهُ، لَأَنْ تَقُولُوا اللَّهُ أَكْبَرُ عَلَى مَا هَدَانَا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَوْلَانَا، فَاخْتَصَرَ الْكَلَامُ بِأَنْ ضُمِّنَ التَّكْبِيرُ مَعْنَى الشُّكْرِ وَعَدَى تَعْدِيَتِهِ.^٥

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمْرُتُكَ﴾.^٦

١ - التحرير والتنوير (١ / ٧٢٥)

٢ - سورة البقرة: الآية / ١٣٠

٣ - البحر المحيط في التفسير (١ / ٦٢٨)

٤ - سورة الحج: الآية / ٣٧

٥ - السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٢ / ٥٥٤)

٦ - سورة الأعراف: الآية / ١٢

ضمن الفعل: (منع) من قوله تعالى: ﴿مَنَعَكَ﴾ معنى فعل آخر تقديره: ما أحوجك وألزمك واضطررك ألا تسجد إذ أمرتك.^١

قال ابن جرير^٢ معناه: ما منعك من السجود فأحوجك ألا تسجد فترك ذكر أحوجك، استغناه بمعرفة السامعين.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْنَلِلْمُحَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَئِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾.^٤

عدي الفعل: يدعون من ﴿سَتُدْعُونَ﴾. بحرف الجر: ﴿إِلَى﴾، لتضمينه معنى المشي، والمعنى: ستدعون للزحف إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلوكم إلى أن يسلموا.

قال الطاهر ابن عاشور: وعدى فعل ستدعون بحرف إلى لإفاده أنها مضمنة معنى المشي، وهذا فرق دقيق بين تعديه فعل الدعوة بحرف إلى وبين تعديته باللام نحو قوله: دعوت فلاناً لما نابني، قال طرفة:

..... * * * * * وَإِنْ أُدْعَ لِلْجُلَّ أَكُنْ مِنْ حُمَّاِهِ،

ومنه قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ ذُبْرِي﴾.^٥

ضمير الفعل: ﴿استبقا﴾ معنى (ابتدرأ); لأنّه يتقدّم بنفسه فيكون المعنى: (ابتدرأ الباب).^٦

ومنه قوله تعالى: ﴿لَتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَأْكُمْ﴾.^٧

عدي ﴿لُتُكَبِّرُوا﴾ بـ(على) لأنّه ضمير معنى الشّكّ؛ أي: لتكبروا الله تعالى شكرًا له على ما هداكم.

١ - تفسير ابن كثير (٣٩٢ / ٣)

٢ - تفسير الطبرى (٨٤ / ١٠)

٣ - سورة الفتح: الآية / ١٦

٤ - التحرير والتنوير (١٧١ / ٢٦)

٥ - سورة يوسف: الآية / ٢٥

٦ - انظر تفسير البيضاوى (١٦٠ / ٣)، وفتح القدير للشوكانى (٢٢ / ٣)

٧ - سورة الحج: الآية / ٣٧

أي: أرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه، لأن تقولوا الله أكبر على ما هدانا، والحمد لله على ما أولانا، فاختصر الكلام بأن ضمِّنَ التكبيرُ معنى الشُّكْرِ وعدّي تعدّيه.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوَّبًا كَبِيرًا﴾.^٢

ضمِّنَ ﴿تَأْكُلُوا﴾ معنى الضم، فعدي بـ(إلى)، وتقدير الكلام: ولا تضُمُّوا أموالهم إلى أموالكم أكلين لها.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعْكُمْ إِنَّا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾.^٣

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَّا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَخْدِثُوهُمْ إِمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾.^٤

في الموضع الأول ضمِّنَ الفعل (حلا) معنى الرُّجُوع، فعدي تعدّيه، والتقدير: فإذا حلوا من جماعة المؤمنين ورجعوا إلى شياطينهم من اليهود أو قادتهم من المشركين قالوا لهم: إنما نحن مستهزئون.

وفي الموضع الثاني ضمِّنَ الفعل (حلا) معنى انضوى، أو استكان لذلك عدي بحرف (إلى)، فيكون المعنى: (وإذا خلا بعضهم منضوين إلى بعض، ومستكينين إلى بعض قالوا.....).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ...﴾.^٥

قال أبو حيان: قضى يتعدّى بنفسه إلى مفعولٍ كقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩]، ولما ضمن هنا معنى الإيحاء أو الإنفاذ تعدّي بـ(إلى) أي: وأوحينا أو أنفذنا إلى بني إسرائيل في القضاء المحتوم المبتوت.^٦

١ - السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٥٥٤ / ٢)

٢ - سورة النساء: الآية/٢

٣ - سورة البقرة: الآية/١٤

٤ - سورة البقرة: الآية/٧٦

٥ - سورة الإسراء: الآية/٤

٦ - البحر الحيط في التفسير (١٢ / ٧)

ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ .^١
 عُدِّيَ الفعل نَجَّى من قوله: ﴿نَجَّيْنَاهُ﴾، بـ(إلى)، والأصل أن يعود بحرف الجر: (من)؛ كما
 في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِ﴾ . [الأنباء: ٨٨]؛ لأنَّه ضمن معنى (أخرجناه) بنجاتنا إلى
 الأرض.

١ - سورة الأنبياء: الآية / ٧١

التَّغْلِيبُ

حدُّ التَّغْلِيبِ:

الْتَّغْلِيبُ لُغَةً: إِيْرَادُ الْلَّفْظِ الْغَالِبِ.^١

وقيل: هو إعطاء الشيء حكم غيره.

واصطلاحاً: هو ترجيح أحد المعلومين على الآخر وإطلاقه عليهما، وقيدوا إطلاقه عليهمما للاحتراز عن المشاكلة.^٢

وقيل: هو أن يغلب على الشيء ما لغيره لتناسب بينهما أو اختلاط.^٣

والْتَّغْلِيبُ من أَسَالِيبِ الْعَرَبِ في كلامِهِمْ فِي الْعَرَبِ مَنْ يُجْرِي الْمُخْتَلَفَيْنِ مُحْرِي الْمُتَّقِيْنِ، فِيغْلِبُ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ لِخَفْتِهِ أَوْ شُهُرَتِهِ، وَمَثَالُ التَّغْلِيبِ: قَوْلُهُمْ فِي تَشْيَةِ الْأَبِ وَالْأُمِّ: أَبُوَانِ، وَفِي تَشْيَةِ الْمُشْرِقِ وَالْمُغْرِبِ: الْمُشْرِقَانِ وَفِي تَشْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ: الْقَمَرَانِ، غَلَبُوا الْقَمَرَ عَلَى الشَّمْسِ لِخَفْفَةِ التَّذَكِيرِ، وَفِي تَشْيَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ: الْمَلَوَانِ، وَفِي تَشْيَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الْعُمَرَانِ، غَلَبُوا عُمَرَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لِخَفْفَةِ اسْمِهِ؛ وَقِيلَ: لَأَنَّ أَيَّامَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ امتدَّتْ فَاشْتَهَرَتْ.

قال الفرزدق:

أَحَدُنَا بِآفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ * * * * لَنَا قَمَرًا هَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالُعُ

فائدةً: أحياناً يُراعى في التَّغْلِيبِ الْأَشْرَفُ وأحياناً يُراعى الْأَكْثَرُ، وأحياناً يُراعى الْأَشْهُرُ، وأحياناً يُراعى الْأَخْفُ.

١ - الكليات (ص: ٢٨١)

٢ - التعريفات (ص: ٦٣)

٣ - الكليات (ص: ٢٨١)

أمثلة للتغليب:

١ - تغليب العاقل على غير العاقل.

و معناه أن يشتمل الكلام على من يعقل ومن لا يعقل فيطلق اللفظ المختص بالعامل على الجميع.

مثاله قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.^١

الأرض فيها العاقل وغير العاقل، والعاقل يشار إليه بـ(من)، وغير العاقل يشار إليه بـ(ما)، وفي هذه الآية غلب العاقل لشرفه حيث أتى بـ﴿من﴾، على غير العاقل.

و منه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.^٢

قوله تعالى: ﴿كُلَّ دَابَّةٍ﴾، عام يشمل من يعقل ومن لا يعقل، فغلب من يعقل بقوله: ﴿فِمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى.....﴾. وذلك لشرف العاقل على غير العاقل.

و منه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةَ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.^٣

قال العلماء: علمه أسماء كل شيء، والضمير في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ لـما يعقل، مع أن الكلام إخبار عمّا يعقل وما لا يعقل فعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب لشرف العاقل على غير العاقل.

قال ابن كثير: و اختار ابن جرير أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية؛ لأنـه قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ وهذا عبارة عما يعقل. وهذا الذي رجح به ليس بلازم، فإنه لا ينفي أن يدخل معهم غيرهم، وي عبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب؛ كما قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ﴾

١ - سورة المؤمنون: الآية/٨٤

٢ - سورة النور: الآية/٤٥

٣ - سورة البقرة: الآية/٣١

مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ
يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [النور: ٤٥]

ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقَيْنَ﴾ .٢.

يحمل ذلك على الإماء والعيدين، وعلى الدواب والأنعام، وعلى الوحش والطير، وإنما
أطلق عليها صيغة من تغليباً لجانب العقلاء على غيرهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانِ﴾ .٣.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾؛ أي: كل من على الأرض من حيوان وإنما ذكره بلفظة: ﴿مَنْ﴾ تغليباً
لجانب العقلاء على غيرهم، فإن كل مخلوق هالك لأن وجود الإنسان في الدنيا عرض فهو
غير باق وما ليس بباقي فهو فان.

٢ - تغليب غير العاقل على العاقل.

مثاله قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ ذَبَابٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ
لَا يَسْتَكِبُرُونَ﴾ .٤.

يسجد لله ما في السماءات وما في الأرض العاقل وغير العاقل، فغلب غير العاقل حيث
أثني به ﴿ما﴾ الذي يدل على غير العاقل لكثرته.

ومنه قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .٥

فغلب غير العاقل حيث أثني بلفظ (ما) فقال: ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ الذي يدل على غير العاقل
ولم يقل: (وما فيهنَّ)؛ لأنَّ كلمة (ما) تتناول الأجناس كلها تناولاً عاماً بأصل الوضع

١ - تفسير ابن كثير (١/٢٢٣)

٢ - سورة الحجر: الآية/٢٠

٣ - سورة الرحمن: الآية/٢٦

٤ - سورة التحل: الآية/٤٩

٥ - سورة المائدة: الآية/١٢٠

والحديث هنا عن أجناس المخلوقات، و (من) لا تتناول غير العقلاء بأصل الوضع فكان استعمال (ما) هنا أولى.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿بَلَّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّهُ قَاتِلُونَ﴾.^٢

غلب غير العاقل حيث أتى بلفظ: (ما) الذي يدل على غير العاقل ولم يأت بلفظ: (من) الذي يدل على العاقل؛ لأنَّ كلمة: (ما) تتناول الأجناس كلها، والحديث هنا عن أجناس المخلوقات، و (من) لا تتناول غير العقلاء فكان استعمال (ما) هنا أولى كذلك.

- تَغْلِيْبُ الْأَشْهَرِ.

مثاله قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾.^٣

أراد المشرق والمغرب، فغلب ذكر المشرق لأنه أشهر الجهات، ولأنَّ المشرق دالٌ على الوجود والمغرب دالٌ على العدم، والوجود أشرف من العدم.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَّجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْخٌ أَجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَحًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾.^٤

أي الملح والعذب، والبحر خاص بالمالح، والعذب خاص باليم والنهر، فغلب البحر لأنَّه الأشهر ولكونه الأعظم.

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكُمْ وَإِلَهُ آبَائِكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾.^٥
فإنَّ إسماعيل عليه السلام عم يعقوب عليه السلام وإنما سموه أباً له من باب التَّغْلِيْبِ، فإنَّ الأب أقرب وأشهر في الذكر من العم.

١ - البرهان في علوم القرآن (٣٠٧ / ٣)

٢ - سورة البقرة: الآية / ١١٦

٣ - سورة الرخرف: الآية / ٣٨

٤ - سورة الفرقان: الآية / ٥٣

٥ - سورة البقرة: الآية / ١٣٣

٤- تَغْلِيْبُ الْمَذَكُورِ عَلَى الْمُؤْنَثِ.

مثاله قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا إِحْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذِكْرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾.^١

ومراد بالإخوة والأخوات ذكر لفظ: ﴿إِحْوَةً﴾، تغليباً لحكم للمذكور على المؤنث.

ومثاله قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِيْنِ﴾.^٢

فقوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِيْنِ﴾ مع أنها أنثى والأصل في غير القرآن أن تكون: (من القانتات)، تغليباً للمذكور على المؤنث، والحكمة في ذلك الإخبار بأئتها بلغت من العبادة والجَدِّ والاجتِهاد والرِّفْعَةِ منزلة استحقت بها أن توصف بأوصاف الرجال القانتين.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتُهُ قَدْرَنَاهَا مِنَ الْغَابِرِيْنِ﴾.^٣

فقوله تعالى: ﴿مِنَ الْغَابِرِيْنِ﴾ مع أنها أنثى والأصل في غير القرآن أن تكون: (من الغابرات) تغليباً للمذكور على المؤنث، والحكمة في ذلك الإخبار بأئتها بلغت في رضاها بفعال قومها القبيحة مبلغًا عظيمًا فقد لأنها كانت ردءاً لهم على دينهم، فكانت تدل قومها على ضي凡 لوط ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبي الله صلوات الله وسلامه عليه لا كرامة لها، لكنها لما رضيت بفعالهم القبيحة استحقت أن تجازى جزاءهم وتعاقب عقابهم.

ومعنى: ﴿مِنَ الْغَابِرِيْنِ﴾ أي: من الماكين.

ومنه قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِيْعِيْنِ﴾.^٤

فقوله تعالى: ﴿إِنَّكِ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِيْعِيْنِ﴾ مع أنها أنثى والأصل في غير القرآن أن تكون: (من الخاطمات)، وإنما قال بلفظ التذكير تغليباً للمذكور على المؤنث.

١ - سورة النساء: الآية / ١٧٦

٢ - سورة التحرير: الآية / ١٢

٣ - سورة التمل: الآية / ٥٧

٤ - سورة يوسف: الآية / ٢٩

٥- تَغْلِيبُ مَا وَقَعَ بِوْجَهِ مُخْصُوصٍ عَلَى مَا وَقَعَ بِغَيْرِهِ.

مثاله قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةً إِمَّا قَدَّمْتُ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.^١

ذكر الأيدي لأن أكثر الأعمال تراول بهن، وإن كانت من أعمال القلوب، فجعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب.

٦- تَغْلِيبُ جَزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى جَزَاءِ أَعْدَاءِ اللَّهِ.

مثاله قوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ إِمَّا يَعْمَلُونَ﴾.^٢

يعني: أهل الخير، وأهل الشر متفاوتون في منازلهم ودرجاتهم في الجنة ودركاتهم في النار، ودليل ذلك أن الله تعالى قال قبلها: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ١٦٢]، ولما كانت الدرجات للعلو والدركات للسفل فاستعمل الدرجات في القسمين تغليباً.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ الآية.^٣

أي: ولكل عامل من طاعة الله أو معصيته مراتب ومنازل من عمله، يبلغه الله إليها ويشبهها، إن خيراً فخيراً، وإن شرّاً فشرّاً.

فلا ينتمي طاعة الله درجات في الجنة، ولأهل معصيته دركات في النار، واستعمل الدرجات في القسمين تغليباً.

٧- تَغْلِيبُ الْأَكْثَرِ عَلَى الْأَقْلَلِ.

ومعناه أن يُنسب إلى ينسب إلى الجميع وصف يختص بالأكثر دون الأقل.

مثاله قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.^٤

١ - سورة الروم: الآية / ٣٦

٢ - سورة آل عمران: الآية / ١٦٣

٣ - سورة الأنعام: الآية / ١٣٢

٤ - سورة البقرة: الآية / ١٣٣

فإسماعيل عليه السلام لم يكن أباً ليعقوب عليه السلام ولكنها كان عمّه، وإنما دخل في آبائه تغليباً من باب تغليب الأكثري.

مثاله قوله تعالى: ﴿لَنْخِرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِيْتَنَا أُوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾^١.

شعيّب عليه السلام لم يكن في ملتهم أصلاً حتى يعود إليها، وإنما دُخِلَ عليه السلام في قوله: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ تغليباً، والذين آمنوا معه هم الذين كانوا على ملة قومهم فدخل في الخطاب معهم تغليباً.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسُ أَبَيْ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ .

دخل إبليس في أمر الله للملائكة بالسجود لآدم مع أنَّ إبليس كانَ من الجن ولم يكنَ من الملائكة، ولكنه لما كان مختلطًا بهم، وكان قد تشبَّه بهم، فُعُولَ مُعاملتُهم، وذُمَّ على المخالفَة، فحيثَنَدْ عمته الدعوة بـ بالخاطئة للملائكة لا لكونه من جنسهم فدخل معهم تغليباً، من باب تغليب الأكثَر.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا حَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ...﴾ الآية.^٣

لا شك أن الناس فيهم المؤمن والكافر، والمؤمن والمرتاب، ولما كان أكثر الناس على غير الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضْلُلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية.^٤

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

١ - سورة الأعراف: الآية / ٨٨

٢ - سورة البقرة: الآية / ٣٤

٣ - سورة الحج: الآية / ٥

٤ - سورة الأنعام: الآية / ١١٦

٤٩ - سورة المائدة: الآية /

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَضْتَ إِيمَانَهُنَّ﴾ [يوسف: ١٠٣]، أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق ناكبون عنه، فلما دل ذلك على أن الكُلَّ لم يكونوا مرتابين غالبَ غير المرتابين منهم على المرتابين.

٨- تَغْلِيْبُ الْمَوْجُودِ عَلَى مَا لَمْ يُوجَدْ.

مثاله قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾^١.

المراد: أنهم يؤمنون بما أنزل على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وبما سينزل في المستقبل، وإنما عبر عنه بلفظ الماضي وإن كان بعضه متربقاً تغليباً للموجود على ما لم يوجد.

٩- تَغْلِيْبُ الْمَخَاطِبِ عَلَى الْغَائِبِ.

مثاله قوله تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَعَلَّكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَرَأُوكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾^٢.

قال ابن القيم: أعاد الضمير بلفظ الخطاب وإن كان من تبعك يقتضي الغيبة لأنه اجتمع مخاطب وغائب فغلب المخاطب وجعل الغائب تبعا له كما كان تبعا له في المعصية والعقوبة فحسن أن يجعل تبعا له في اللفظ وهذا من حسن ارتباط اللفظ بالمعنى واتصاله به.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

قال الزركشي: عُلِّبَ فيه جانب (أنت) على جانب (من) فأنسد إليه الفعل وكان تقديره: فاستقيموا فغلب الخطاب على الغيبة لأن حرف العطف فصل بين المسند إليهم الفعل فصار كما ترى.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾^٥.

١ - سورة البقرة: الآية/ ٤

٢ - سورة الإسراء: الآية/ ٦٣

٣ - بدائع الفوائد (٤ / ١٨٦)

٤ - البرهان في علوم القرآن (٣٠٤ / ٣)

٥ - سورة الأنبياء: الآية/ ٩٨

بَيْنَ سَبَحَانَه لِأَهْلِ مَكَّةَ حَالَ مَعْبُودَاتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ﴾، أَيْ: وَقُودُ جَهَنَّمَ وَحْشَبُهَا، وَوَجْهُ إِلَقَاءِ الْأَصْنَامِ فِي النَّارِ، مَعَ كُونِهَا جَمَادَاتٍ لَا تَعْقُلُ ذَلِكَ وَلَا تَحْسُسُ بِهِ: التَّبَكِّيَّةُ لِمَنْ عَبَدَهَا، وَزِيادةُ التَّوْبِيقِ لَهُمْ، وَتَضَاعُفُ الْحَسْرَةِ عَلَيْهِمْ، وَالْخَطَابُ لَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ تَغْلِيْبًا.^١

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَّةِ﴾^٢.

﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَّةِ﴾، أَيْ: سَفِينَةُ نُوحَ، وَسَمِيتُ جَارِيَّةً لِأَنَّهَا تَحْرِي فِي الْمَاءِ، وَالْمَعْنَى: ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ فِي أَصْلَابِ آبَائِكُمْ، أَوْ حَمَلْنَاهُمْ وَحَمَلْنَاكُمْ فِي أَصْلَابِهِمْ تَغْلِيْبًا لِلْمُخَاطَبِينَ عَلَى الْغَائِبِينَ.

١ - فتح القدير للشوكاني (٥٠٦/٣)

٢ - سورة الحاقة: الآية/ ١١

خُروجُ الْفَظِ مَحْرَجُ الْغَالِبِ

معنى خُروجُ الْفَظِ مَحْرَجُ الْغَالِبِ:

معنى خُروجُ الْفَظِ مَحْرَجُ الْغَالِبِ: أن يَكُونَ الْوَصْفُ الَّذِي وَقَعَ بِهِ التَّقْيِيدُ فِي الْكَلَامِ غَالِبًا عَلَى تِلْكَ الْحَقِيقَةِ الْمُذَكُورَةِ مَوْجُودًا مَعَهَا فِي أَكْثَرِ صُورِهَا.

أَمْثَالٌ عَلَى خُروجُ الْفَظِ مَحْرَجُ الْغَالِبِ:

قول الله تعالى: ﴿وَرَبَّا يُنْهَا الْلَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ.....﴾ الآية.^١

الريبيبة: بنت زوجة الرجل، بنت الزوجة من آخر، سميت بذلك لأنها غالباً يربيها في حجره، كما يربي ولده ثم اتسع فيه فسميت به وإن لم يربها.

وكومنهن في حجور أزواج الأمهات هو الغالب من حاملن فوصفهن به لكونه الغالب فلا يدل الكلام المفيد للحكم المتعلّق بالحقيقة المقيدة به على نفي الحكم عند عدمه.^٢

فجمهور الأمة على أن الريبيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل، أو لم تكن في حجره، قالوا: وهذا الخطاب خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكَرِّهُوْ فَتَيَّاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرْدَنَ تَحْصُنَا﴾^٤.

فقول الله تعالى: ﴿إِنْ أَرْدَنَ تَحْصُنَا﴾، خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، ومعناه تحريم إكراههن سواء في ذلك إن أردن تحصناً أو لم يردن تحصناً.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾^٥.

١ - سورة النساء: الآية/٢٣

٢ - الفروق للقرافي (٥٤ / ٢)

٣ - تفسير ابن كثير (٢ / ٢٥١)

٤ - سورة النور: الآية/٣٣

٥ - سورة الإسراء: الآية/٣١

فقول الله تعالى: ﴿حَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾، خرج مخرج الغالب لا الشرط، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له، فإنَّ الغالب على من كانوا يقتلون أولادهم خافة الفقر والعوز، وقتل الأولاد محرم سواء كان ذلك بسبب الفقر أو غيره.

ويستوي في ذلك الخوف من الفقر الحاصل والفقير المتوقع، وقد أشار القرآن إلى الحالتين كما هنا، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أُولَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾^١.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَفْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْتِنُكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^٢.

فقول الله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْتِنُكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، خرج خرج مخرج الغالب لا الشرط، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب فَلَا مَفْهُومَ لَهُ، فقد كان الغالب على المسلمين الخوف في الأسفار، فعن يعلى بن أمية قال: سأَلْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فُلْتُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَفْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْتِنُكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَقَدْ أَمَّنَ اللَّهُ النَّاسَ؟ فَقَالَ لِي عُمَرُ: عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: "صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، فَاقْبِلُوا صَدَقَتُهُ".^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَمَمْبُودُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾.

فقول الله تعالى: ﴿وَمَمْبُودُوا كَاتِبًا﴾، خرج مخرج الغالب لا الشرط، لأنَّ الرَّهْنَ لَا يُخْتَصُ بِالسَّفَرِ لَكِنْ ذُكِرَ لِأَنَّ فَقَدَ الكَاتِبِ يَكُونُ فِي السَّفَرِ غَالِبًا، فلَمَّا كَانَ السَّفَرُ مَظِنَّةً إِعْوَازِ الكَاتِبِ وَالشَّاهِدِ الْمُوثُوقِ بِهِمَا أَمْرَرَ عَلَى سَبِيلِ الإِرْشَادِ بِحَفْظِ مَالِ الْمَسَافِرِينَ بِأَخْذِ الْوِثِيقَةِ الْأُخْرَى وَهِيَ الرَّهْنُ.

فَأَخْذُ الرَّهْنِ جَائِزٌ مَعَ وُجُودِ الكَاتِبِ وَالشَّاهِدِ، فَلَيْسَ فَقْدُ الكَاتِبِ شَرْطًا فِي جَوَازِ أَخْذِ الرَّهْنِ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ خَرَجَ مُخْرِجَ الغَالِبِ.

١ - سورة الأنعام: الآية / ١٥١

٢ - سورة النساء: الآية / ١٠١

٣ - رواه مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، حدیث رقم: ٦٨٦

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.^١

فقول الله تعالى: ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾، خرج مخرج الغالب لا الشرط، فإنَّ أكلَ الرِّبَا منهُ عنه قليلاً كان أو كثيراً، وذكر التقييد بـ ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾، باعتبار ما كانوا عليه في الجاهلية.

قال الشوكاني: وقوله: ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾، ليس لتقييد النهي لما هو معلوم من تحريم الربا على كل حال، ولكنه جيء به باعتبار ما كانوا عليه من العادة التي يعتادونها في الربا، فإنهم كانوا يربون إلى أجل، فإذا حل الأجل زادوا في المال مقداراً يتراضون عليه، ثم يزيدون في أجل الدين، فكانوا يفعلون ذلك مرة بعد مرة حتى يأخذ المريض أضعاف دينه الذي كان له في الابتداء وأضعافاً: حال، ومضاعفة: نعمت له، وفيه إشارة إلى تكرار التضعيف عاماً بعد عام، والبالغة في هذه العبارة تفيد تأكيد التوبخ.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.^٣

فقول الله تعالى: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾، خرج مخرج الغالب لا الشرط، فليس هذا دليلاً على أن أحداً يجوز أن يقوم له برهان على صحة القول بأن مع الله إلهآ آخر تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ولا حجَّةَ لِأَحَدٍ في دعوى الشرك، وإنما الحجَّةُ عليهم.

١ - سورة آل عمران: الآية / ١٣٠

٢ - فتح القدير للشوكاني (٤٣٦ / ١)

٣ - سورة المؤمنون: الآية / ١١٧

اللَّفُ وَالنَّشْرُ

اللَّفُ وَالنَّشْرُ أسلوب من أساليب القرآن وهو من المحسنات البدعية، ويضفي على الكلام رونقاً وجمالاً، وهو من بديع البلاغة، وعجب النظم.

تَعْرِيفُ الْلَّفِ وَالنَّشْرِ:

قال السكاكي: اللَّفُ وَالنَّشْرُ أَن تَلْفَ بَيْنَ شَيْئَيْنِ فِي الدَّكْرِ ثُمَّ تُبَعِّهُمَا كَلَامًا مَشْتَمِلًا عَلَى مَتَعَلِّقٍ بِوَاحِدٍ وَبِآخَرٍ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينٍ. ثُقَّةً بِأَنَّ السَّامِعَ يَرِدُ كَلَّا مِنْهُمَا إِلَى مَا هُوَ لَهُ.^١

وقال السيوطي: اللَّفُ وَالنَّشْرُ: هو أَن يَذَكُّر شَيْئَانِ أَوْ أَشْيَاءَ، إِمَّا تَفْصِيلًا بِالنَّصِّ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ أَوْ إِجْمَاعًا بِأَنْ يَؤْتَى بِالْفَظِّ يَشْتَمِلُ عَلَى مَتَعَلِّقٍ ثُمَّ يَذَكُّر أَشْيَاءَ عَلَى عَدْدٍ ذَلِكَ كُلُّ وَاحِدٍ يَرْجِعُ إِلَى وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَقْدِمِ وَيَفْوَضُ إِلَى عَقْلِ السَّامِعِ رَدَ كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَا يَلِيقُ بِهِ.^٢
وَالثَّرْتِيبُ فِي الْلَّفِ وَالنَّشْرِ هُوَ الْأَصْلُ وَالْغَالِبُ.

واللَّفُ وَالنَّشْرُ مِنْ أَسَالِيبِ الْعَرَبِ فِي كَلَامِهَا، وَمِنْهُ قَوْلُ امْرَئِ القيسِ:

كَانَ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا * * * * * لَدَى وَكْرِهَا العُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي
فِيهِ لَفُ وَنَشَرٌ مَرْتَبٌ وَتَقْدِيرٌ: كَانَ قُلُوبَ الطَّيْرِ حَالٌ كَوْنٌ بَعْضُهَا رَطْبًا وَبَعْضُهَا وَيَابِسًا،
عِنْدَ عَشِ العَقَابِ الْعَنَابِ، وَهُوَ ثَرْ أَحْمَرُ رَطْبٍ، فَهُوَ رَاجِعٌ لِلرَّطْبِ. وَالْحَشَفُ: الْجَافِ
الرَّدِيءِ مِنَ التَّمَرِ الْبَالِيِّ، وَهُوَ رَاجِعٌ لِلْلِيَابِسِ.

وَقَالَ النَّمَرُ بْنُ تَوْلِبٍ:

أَلَا يَا لِدَا النَّاسِ لَوْ يَعْلَمُو * * * * نَ لِلْحَيْرِ حَيْرٌ وَلِلشَّرِ شَرٌ
فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا * * * * وَيَوْمٌ تُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرِّ

١ - مفتاح العلوم (ص: ٤٢٥)

٢ - الإنقاذ في علوم القرآن (٣/٣٢٠)

ففي البيت الثاني لف ونشر مرتب فقوله: فيوم علينا هو اليوم الذي يُسِيءُ قوله: ويوم لنا هو اليوم الذي يسر.

ومثاله قول الشاعر:

قلبي وجفني واللسان خالقي **** راضٍ وباكٍ شاكرٌ وغفورٌ
ف (راضٍ) يعود على (قلبي)، و (باكٍ) يعود على (جفني)، و (شاكرٌ) يعود على (اللسان)، و (غفورٌ) يعود على (خالقي).

أقسام اللُّفُّ وَالنُّشُرِ:

اللُّفُّ وَالنُّشُرُ ينقسم إلى قسمين:

الأولُ: لف ونشر مرتب، ويقال له: موافق.

الثاني: لف ونشر غير مرتب، ويقال له: لف ونشر مشوش.

أولاً: اللُّفُّ وَالنُّشُرُ المرتبُ:

مثاله:

قول الله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْحَسِيرُ﴾.^١

قال الطيب: فيه لف ونشر، يعني أنه لطيف لا تحيط به الأ بصار، وهو للطف إدراكه للمدركات يحيط بتلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك علماء، ﴿الْحَسِيرُ﴾ العليم ببواطن الأشياء من الخبرة، وهي العلم بالخفايا الباطنة.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا حَيْرًا﴾.^٣

١ - سورة الأنعام: الآية/ ١٠٣

٢ - شرح المشكاة للطيب الكاشف عن حقائق السنن (٦ / ١٧٩٠)

٣ - سورة الأنعام: الآية/ ١٥٨

في الكلام حذف اختصار تقديره كما قال ابن الحاجب: لا ينفع نفسها إيمانها ولا كسبها لم تكن آمنت أو كسبت. قال السبكي: ويكون في الكلام لف ونشر. أي لا ينفع نفسها إيمانها لم تكن آمنت من قبل ولا ينفعها كسبها لم تكن كسبت في إيمانها خيراً، والمقصود سلب النفع إلا عن إيمان أو كسب الخير.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿الرَّكِتَابُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ حَبِيرٍ﴾^٢.

في هذه الآية لف ونشر مرتب، فقد ذكر الله تعالى في اللف أن هذا الكتاب أحكمت آياته ثم فصلت، ثم ذكر في النشر: ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ حَبِيرٍ﴾؛ فيكون المعنى: أحكماها حكيم، وفصلها حبير عالم بموضع الأمور.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلَتَبَتَّعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^٣.

فقوله تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾، راجع إلى الليل، أي: لتسكنوا في الليل، وقوله: ﴿وَلَتَبَتَّعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ راجع إلى النهار، أي: ولتابعوا من فضله في النهار، ففي الآية لف ونشر مرتب.

ومثاله أيضاً قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُأْتِ لَا تَكَلُّ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيقٌ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقَوْا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا رَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾^٤.

في هذه الآية لف ونشر مرتب؛ فقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات اللف في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيقٌ وَسَعِيدٌ﴾، ثم ذكر النشر فبدأ بذكر حال الذين شقوا، ثم أعقب ذلك بذكر حال الذين سعدوا.

١ - فتاوى السبكي (١/٣٦)

٢ - سورة هود: الآية/١

٣ - سورة القصص: الآية/٧٣

٤ - سورة هود: الآية/١٠٥ - ١٠٨

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنْقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾^{١.}

قال ابن عرفة: هذا لف ونشر؛ فاللوم راجع إلى البخل؛ لأن الإنسان يلام على عدم النفقة، ولم يقل مذموماً ليتناول ذلك النهي عن البخل بالواجب، وبغيره، وقوله: ﴿مَحْسُورًا﴾، راجع إلى النهي عن بسط اليد؛ لأنه إذا بالغ في بسطها يقل درنهه ورزقه ويغير عليه فيبقى محسوراً.^{٢.}

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عَتُوا كَبِيرًا﴾^{٣.}

في الكلام لف ونشر، اللف في قوله: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾، والنشر في قوله: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عَتُوا كَبِيرًا﴾، فالاستكبار لقولهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾، والعتو لقولهم: ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾.

قال ابن عرفة: الاستكبار راجع لإنزال الملائكة عليهم، والعتو مطلب الرؤية.^{٤.}

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شَعِيبًا قَالَ يَا قَوْمَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الرَّجْفَةُ فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِينَ (٣٧) وَعَادَا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلَّا أَخْذَنَا بِذِنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخْذَنَا الصَّيْحَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^{٥.}

١ - سورة التور: الآية / ٢٩

٢ - تفسير ابن عرفة (٢/٦٣)

٣ - سورة الفرقان: الآية / ٢١

٤ - تفسير ابن عرفة (٢/٢٣٢)

٥ - سورة العنكبوت: الآية / ٣٦: ٤٠

الذين أرسل عليهم حاصل هم عاذ، والذين أخذتهم الصيحة هم ثود، والذين خسفت بهم الأرض هو قارون وأهله، والذين أغرقهم: فرعون وهامان ومن معهما من قومهما. ففي الآيات لف ونشر مرتب كما ذكرنا.

ومنه قوله تعالى: ﴿شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَّبًا وَقَصْبًا (٢٨) وَرَزَّيْنَا وَنَحْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ عَلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبَا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلَا نَعِمْكُم﴾.

في هذه الآية لف ونشر مرتب، فقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات اللف في انشقاق الأرض عن أجناس من الزروع والنباتات، منها الحبوب والأعناب، والزيتون والنخيل، والحدائق الغناء، والفاكه الكثيرة، والأب وهو ما تأكله الأنعام من النبات، ثم ذكر النشر في قوله: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلَا نَعِمْكُم﴾، فكانت الأعناب والزيتون والنخيل، والحدائق والفاكه لبني آدم، وكان الأب للأنعم.

ثانيًا: اللف والنشر غير المرتب:

مثاله:

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعْوَضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحُقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾.

قال ابن عرفة: هذا لف ونشر لأنه لما تقدم ذكر المثل وذكر (بعده) الفريقيين عقبه ببيان أنه يضل به قوما، ويهدى به آخرين.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبُتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ حَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَرُزِّلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

١ - سورة عبس: الآية / ٣٢

٢ - سورة البقرة: الآية / ٢٦

٣ - تفسير ابن عرفة (٢١٣ / ١)

٤ - سورة البقرة: الآية / ٢١٤

في الآية لف ونشر غير مرتب، فيكون تقدير الكلام: يقول الذين آمنوا متى نصر الله، فيقول الرسول: ألا إن نصر الله قريب، واختار هذا الوافي، قال: وإنما قلنا إنه كذلك؛ لأن الرسول لا يشبهه أن يقول: متى نصر الله، وهذا حسن من تأمله.^١

قال ابن عطيه: قالت طائفة: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير حتى يقول الذين آمنوا متى نصر الله فيقول الرسول ألا إن نصر الله قريب، فقدم الرسول في الرتبة لمكانته ثم قدم قول المؤمنين لأنه المتقدم في الزمان.

قال القاضي أبو محمد: وهذا تحكم، وحمل الكلام على وجهه غير متذر، ويحتمل أن يكون: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾، إخباراً من الله تعالى مؤتنفاً بعد تمام ذكر القول.^٢

وقال ابن عرفة: لا حاجة إلى هذا التقديم والتأخير بل هو لف ونشر مخالف، جعل فيه أول القولين للسائل الثاني لكونه يليه.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبَيَّضُ وُجُوهٌ وَتَسْوُدُ وُجُوهٌ فَآمَّا الَّذِينَ اسْوَدُتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرُهُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ إِمَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَآمَّا الَّذِينَ ابْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.^٤

في الآيتين لف ونشر غير مرتب، فقد ذكر في اللف الإيضاح قبل الاسوداد، وذكر في النشر حكم من اسودت وجوههم قبل حكم من ابيضت وجوههم؛ لأن المقام مقام ترهيب.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبَتَّعُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلًا﴾.^٥

في هذه الآية لف ونشر غير مرتب، فقد ذكر في اللف الليل قبل النهار، فقال: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، وذكر في النشر: ﴿لِتَبَتَّعُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يُريدُ

١ - التفسير البسيط (٤ / ١٢٥)

٢ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١ / ٢٨٨)

٣ - تفسير ابن عرفة (٢ / ٦١٣)

٤ - سورة آل عمران: الآية / ١٠٦ ، ١٠٧

٥ - سورة الإسراء: الآية / ١٢

التَّصْرِفَ فِي الْمَعَاشِ فِي النَّهَارِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾، وَالْمَرْأَةُ الْحَسَابُ الْمُتَعَلِّقُ بِهَا فِي ضَمْنِ السَّنِينِ مِنَ الْأَشْهِرِ وَاللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، يَعْنِي مَنَازِلَ الْقَمَرِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَعْلَالًا وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُبُونَ مِنْ كَأسٍ كَانَ مِرَاجُهُهَا كَافُورًا﴾.^١

فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَفْ وَنِسْرٌ غَيْرُ مَرْتَبٍ، فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْلَّفْ فَتْرَاقَ النَّاسَ إِلَى فَرِيقَيْنِ: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، ثُمَّ ابْتَدَأَ فِي النَّشْرِ بِذِكْرِ مَا أَعْدَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْكَافِرِينَ؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَعْلَالًا وَسَعِيرًا﴾، ثُمَّ أَتَبَعَ ذَلِكَ بِمَا أَعْدَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلشَّاكِرِينَ وَسَاهِمِ الْأَبْرَارِ؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُبُونَ مِنْ كَأسٍ كَانَ مِرَاجُهُهَا كَافُورًا﴾.

الإيجازُ

الإيجازُ من أساليب القرآن وهو من أعظم أنواع البلاغة، قال عبد القاهر الجرجاني: الإيجازُ من الأركان في أمر الإعجاز.^١

حد الإيجاز:

الإيجاز لغةً: الاختصار.

والإيجاز ينقسم إلى قسمين: إيجاز قصرٍ، وإيجاز حذفٍ.

الفرق بين إيجاز القصر وإيجاز الحذف:

الفرق بينهما أن الكلام القليل إن كان بعضًا من الكلام أطول منه، فهو إيجاز حذف، وإن كان كلامًا يعطى معنى أطول منه فهو إيجاز قصر.^٢

أولاً: إيجاز القصر.

تعريف إيجاز القصر:

إيجاز القصر اصطلاحاً هو: تقليل الألفاظ، وتكتير المعانى.^٣

مثاله قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.^٤

هذه الآية وإن كانت قليلة المبني إلا أنها عظيمة المعنى، فقد جمعت كلَّ حَيْزٍ بذكر العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وجَمَعَتْ كُلَّ شَرٍّ بذكر الفحشاء والمنكر والبغى، لذلك قال عبد الله بن مسعود: إنَّ أَجْمَعَ آيَةً فِي الْقُرْآنِ حَلَالٌ، وَحَرَامٌ، وَأَمْرٌ، وَنَهْيٌ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾.^٥

١ - دلائل الإعجاز (١ / ٥٢١)

٢ - عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١ / ٥٨٦)

٣ - الصناعتين: الكتابة والشعر (ص: ١٧٥)

٤ - سورة التحل: الآية/ ٩٠

٥ - رواه الطبراني في الكبير - حديث رقم: ٨٦٦١

وقرأها الحسن يوماً ثم وقف فقال: إن الله عز وجل جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة فوالله ما ترك **﴿بِالْعَدْلِ وَإِلَحْسَانِ﴾**، من طاعة الله شيئاً إلا جمعه ولا ترك **﴿الْفَحْشَاءَ وَالْمُنْكَر﴾** من معصية الله شيئاً إلا جمعه.^١

فالله تعالى جمع في هذه الآية ما يتصل بالتكليف فرضاً ونفلاً، وما يتصل بالأخلاق والأداب عموماً وخصوصاً.^٢

فالعدل هو التوسط بين الإفراط والتفرط، والإحسان ذروة الإخلاص والعبادة، وصفة الأَخْلَاقِ وَأَرْفَعُهَا رتبةً.

﴿وَإِيتَاءُ ذِي الْقُرْبَى﴾، هو الزيادة على الواجب من النوافل هذا في الأوامر، وأما الثلاثة التي نهى الله عنها، وهي الفحشاء والمنكر والبغى فنقول: إنه تعالى أودع في النفس البشرية قوى أربعة، وهي الشهوانية البهيمية والغضبية السبعية والوهمية الشيطانية والعقلية الملكية.^٣

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، المراد منه المنع من تحصيل اللذات الشهوانية الخارجة عن إذن الشريعة، وأما القوة الغضبية السبعية فهي: أبداً تسعى في إيصال الشر والبلاء والإيذاء إلى سائر الناس، ولا شك أن الناس ينكرون تلك الحالة، فالمنكر عبارة عن الإفراط المحاصل في آثار القوة الغضبية. وأما القوة الوهمية الشيطانية فهي أبداً تسعى في الاستعلاء على الناس والترفع وإظهار الرياسة والتقدمة.^٤

ومنه قوله تعالى: **﴿حُذِّرِ الْعَفْوَ وَأَمْرُ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾** [الأعراف: ١٩٩]؛ فإنها جامدة لـمكارم الأخلاق لأن في أخذ العفو التساهل والتسامح في الحقوق واللين والرفق في الدعاء إلى الدين وفي الأمر بالمعروف كف الأذى وغض البصر وما شاكلاهما من المحرمات وفي الإعراض الصبر والحلم والتؤدة.^٥

١ - رواه البيهقي في شعب الإيمان - باب في الإيمان برسول الله صلوات الله عليهم، حديث رقم: ١٣٨، وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ١٥٨)

٢ - تفسير الرازي (٢٠ / ٢٥٨)

٣ - تفسير الرازي (٢٠ / ٢٦١)

٤ - تفسير الرازي (٢٠ / ٢٦١)

٥ - الإنقان في علوم القرآن (٣ / ١٨٣)

ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ مَا حَلَّقَ وَلَعَلَا بَغْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^١.

قال أبو هلال: لا يوازى هذا الكلام في الاختصار شيء.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾^٣.

ففيه النهي عن البغي، وذمه وذم من أتصف به، وبيان أن وبالبغي راجع إلى صاحبه.

ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يُصَدِّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِلُونَ﴾^٤.

جمعت هذه الآية جميع عيوب الخمر من الصداع وعدم العقل وذهاب المال ونفاد الشراب.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَاعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءَ أَقْلِعِي وَغِيَضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوْتُ عَلَى الْجُودِيٍّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلنَّقْوَمِ الظَّالِمِينَ﴾^٥.

فالله تبارك وتعالى في هذه الآية أمر وتحمّي وأخبار ونادي، ونعت وسمى وأهلك وأبنقى، وأسعد وأشقي، وقص من الأنبياء.

قال الكرماني: أجمع المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية بعد أن فتشوا جميع كلام العرب والعجم فلم يجدوا مثلها في فخامة ألفاظها وحسن نظمها وجودة معانيها في تصوير الحال مع الإيجاز من غير إخلال.^٦

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمَلُ اذْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمُنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^٧.

١ - سورة المؤمنون: الآية/ ٩١

٢ - الصناعتين: الكتابة والشعر (ص ١٧٦)

٣ - سورة يونس: الآية/ ٢٣

٤ - سورة الواقعة: الآية/ ١٩

٥ - سورة هود: الآية/ ٤

٦ - لباب التفاسير للكرماني (ص: ٧٥١)

٧ - سورة النمل: الآية/ ١٨

جمع في هذه اللفظة أحد عشر جنساً من الكلام نادت وكت ونبهت وسمت وأمرت ونصت وحدرت وخشت وعمت وأشارت وعدرت فالنداء ﴿يَا﴾، والكنایة ﴿أَي﴾، والتبنیه ﴿هَا﴾ والتسمیة ﴿النَّمَل﴾، والأمر ﴿ادْخُلُوا﴾، والتنصیص ﴿مَسَاكِنَكُم﴾، والتحذیر ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُم﴾، والتخصیص ﴿سُلَيْمَان﴾، والتعمیم ﴿وَجُنُودُهُ﴾، والإشارة ﴿وَهُمْ﴾، والعذر ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾، فأدت خمس حقوق حق الله وحق رسوله وحقها وحق رعيتها وحق جنود سليمان.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ كُنُودُوا زِينَتُكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرُبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّمَا لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.^٢

وهذه الآية جمع فيها أصول الكلام النداء والعموم والخصوص والأمر والإباحة والنهي والخبر، وقال بعضهم جمع الله الحکمة في شطر آية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرُبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْ أُمِّ مُوسَى أَنَّ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفِتِ عَلَيْهِ فَالْقِيَهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزِنِي إِنَّا رَادُوْهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.^٤

وقال ابن العربي: هي من أعظم آي في القرآن فصاحة إذ فيها أمران ونهيان وخبران وبشارتان.^٥

فالأمران: ﴿أَرْضِعِيهِ﴾، و﴿فَالْقِيَهِ﴾، والنهيان: ﴿لَا تَخَافِي﴾، و﴿لَا تَحْزِنِي﴾، والخبران: ﴿أَوْحَيْنَا﴾، و﴿خَفِتِ عَلَيْهِ﴾، والبشراتان: ﴿رَادُوْهُ إِلَيْكِ﴾، و﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشَهِّيَ الْأَنْفُسُ وَتَلَدُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا حَالِدُونَ﴾.^٦

١ - الإتقان في علوم القرآن (١٨٤ / ٣)

٢ - سورة الأعراف: الآية / ٣١

٣ - الإتقان في علوم القرآن (١٨٤ / ٣)

٤ - سورة القصص: الآية / ٧

٥ - الإتقان في علوم القرآن (١٨٥ / ٣)

٦ - سورة الزخرف: الآية / ٧١

قال القفال: جمع بحاتين اللفظتين ما لو اجتمع الخلق كُلُّهم على وصف ما فيهما على التفصيل لم يخرجوا عنه.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾.....^٢.

فإن معناه كثير ولفظه قليل لأن معناه أن الإنسان إذا علم أنه متى قتل كان ذلك داعيا إلى ألا يقدم على القتل فارتفاع بالقتل الذي هو القصاص كثير من قتل الناس بعضهم البعض وكان ارتفاع القتل حياة لهم.^٣

ثانياً: إيجاز الحذف:

قلنا إن الإيجاز هو: جعل المعنى الكثير في اللُّفْظِ القليل، وتكلمنا عن القسم الأول منه وهو إيجاز القصر.

والقسم الثاني من قسمي الإيجاز: وهو إيجاز الحذف.

حدُّ إيجاز الحذف:

هو ما يكون بحذف شيء من أصل الكلام.^٤

وقد يكون المذوف حرفاً، وقد يكون كلاماً، وقد يكون أكثر من كلاماً.

أمثلة حذف حرفٍ:

حذف حرف الجر كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾.^٥

ومعنى الكلام: ولا تعزموا على عقدة النكاح.

١ - لباب التفاسير للكرماني (ص: ٢٧٦٢)

٢ - سورة البقرة: الآية / ١٧٩

٣ - الإنقاذه في علوم القرآن (٣ / ١٨٥)

٤ - عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١١ / ٥٩١)

٥ - سورة البقرة: الآية / ٢٣٥

وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخْوِفُ أُولَيَاءَهُ﴾^١.

ومعنى الكلام: إنما ذلكم الشيطان يخوّفكم من أولياءه.

وكما في قوله تعالى: ﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾^٢.

ومعنى الكلام: والقوى في الأرض رؤاسي أن تميد بكم.

وحذف "أن" كما في قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ حَوْفًا وَطَمَعًا﴾^٣.

ومعنى الكلام: أن يريكم؛ كما في قوله عز وجل: ﴿يَنْوُنَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَنْوُنَا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَعْلَمُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُمْ لِإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^٤.

ومعنى الكلام: ينون عليك بأن أسلموا.

أمثلة حذف الكلمة:

وكما في قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ الآية.^٥

ومعنى الكلام: لا نفرق بين أحد وأحد من رسليه.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَادِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾^٦.

ومعنى الكلام: فاقتلو أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم ففعلتم فتاب عليكم.

١ - سورة النساء: الآية / ١٧٥

٢ - سورة التحل: الآية / ١٥

٣ - سورة الروم: الآية / ٢٤

٤ - سورة الحجرات: الآية / ١٧

٥ - سورة البقرة: الآية / ٢٨٥

٦ - سورة البقرة: الآية / ٥٤

ومنه قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ أَنْتَأَ عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أَنَاسٍ مَشْرَكُهُمْ كُلُّوا وَاشْرُبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾.^١

قال ابن عطية: وفي الكلام مذوف تقديره وقلنا لهم كلوا المن والسلوى واشربوا الماء المنفجر من الحجر المنفصل، وبهذه الأحوال حسنت إضافة الرزق إلى الله تعالى، وإلا فالجميع رزقه وإن كان فيه تكسب للعبد.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ أَنْتَأَ عَشْرَةَ عَيْنًا﴾.^٣

وفي الآية إضمار واختصار؛ تقديره: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾؛ فضرب ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾؛ أي: سالت.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿الْحِجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾.^٥
في الكلام حذف تقديره: أَشْهُرُ الْحِجَّ أَشْهُرٌ، أو وقت الْحِجَّ أَشْهُرٌ.

وكما في قوله تعالى: ﴿مَتَّلَ الدَّيْنَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾.^٦

قال القرطي: وفي الكلام حذف مضاد تقديره مثل نفقة الدين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة.^٧

١ - سورة البقرة: الآية / ٦٠

٢ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١٥٢ / ١)

٣ - سورة البقرة: الآية / ٦٠

٤ - تفسير الحداد (١ / ١٧٥)

٥ - سورة البقرة: الآية / ١٩٧

٦ - سورة البقرة: الآية / ٢٦١

٧ - تفسير القرطبي (٣٠٣ / ٣)

وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِي نَفْقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيهِمْ بِآيَةٍ﴾^١.

قال النحاس: ولمعنى ان استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية فافعل ثم حذف هذا لعلم السادس.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^٢.

في الآية حذف تقديره: سارعوا إلى ما يوجب المغفرة من ربكم، ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْتُمْ وَلَا بَعْثَرْتُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾^٤.

في الآية حذف تقديره: ما خلقتم أيها الناس ولا بعثتم على الله إلا كخلق نفس واحدة وبعثها.^٥

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبَرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.....﴾^٦.

في الآية حذف تقديره: ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر، حذف المضاف وهو لفظ: (بر) إيجازاً لدلالة السياق عليه.

قال الطبرى: ولمعنى: ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر.^٧

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾^٨.

١ - سورة الأنعام: الآية / ٣٥

٢ - معاني القرآن للنحاس (٤٢٠ / ٢)

٣ - سورة آل عمران: الآية / ١٣٣

٤ - سورة لقمان: الآية / ٤

٥ - تفسير الطبرى (٥٧٤ / ١٨)

٦ - سورة البقرة: الآية / ١٧٧

٧ - تفسير الطبرى (٤٢٣ / ٨)

٨ - سورة البقرة: الآية / ٩٣

وَمِنْ الْكَلَامِ: وَأُشْرِبُوا فِي فُلُوْحِهِمْ حُبَّ الْعِجْلِ، فَحُذِفَ الْمُضَافُ وَهُوَ لِفْظٌ: (حُبٌّ)
إِيجَازًا لِدَلَالَةِ السِّيَاقِ عَلَيْهِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَمْ تَرْ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ
تَضْلِلُوا السَّيِّلَ﴾.^١

فِي الْكَلَامِ حَذْفٌ تَقْدِيرُهُ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ بِالْمَهْدَى.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَا تُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُفْقَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ
ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ الآية.^٢

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ
الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ﴾ الآية.^٣

وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: (شَهَادَةُ اثْنَيْنِ)، حُذْفَ الْمُضَافُ، وَأَقِيمَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ.

وَمِنْ الْكَلَامِ: فَلَنْ يُفْقَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا لَوْ مَلَكَهُ وَلَوْ افْتَدَى بِهِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية.^٤

وَمِنْ الْكَلَامِ: وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَاعْتَقَدوْ إِيمَانَ.

أَمْثِلَةُ حَذْفٍ أَكْثَرُ مِنْ كَلِمَةٍ:

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ حَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾.^٥

فِي الْآيَةِ حَذْفٌ مُقْدَرٌ فِي نَهايَةِ الْآيَةِ وَتَقْدِيرِهِ: (وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَلَا يُسْأَلُونَ
عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ). وَتَرَكَتِ الْجَمْلَةُ الثَّانِيَةُ لِدَلَالَةِ قَوَاعِدِ الشَّرِيعَةِ عَلَيْهَا، وَدَلَالَةِ الْعُقْلِ عَلَيْهَا،

١ - سورة النساء: الآية/ ٤٤

٢ - سورة آل عمران: الآية/ ٩١

٣ - سورة المائدة: الآية/ ١٠٦

٤ - سورة الحشر: الآية/ ٩

٥ - سورة البقرة: الآية/ ١٤١

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيئٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.^{١.}

ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذْى مِنْ رَأْسِهِ فَقَدِيَّةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.^{٢.}

ومعنى الكلام: فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه فحلق فعليه فدية.

ومنه قوله تعالى: ﴿فُلَانْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.^{٣.}

قال صاحب الدر المصنون: وفي الكلام حذف أي: ولا يسألون عمما كنتم تعملون. قال أبو البقاء: «ودل عليه: ﴿هَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ انتهى. ولو جعل الدال قوله: ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كان أولى لأنه مقابلة.^٤

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْمَا الَّذِينَ اسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرُهُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ إِمَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.^{٥.}

في الكلام حذف تقديره: فأما الذين اسودت وجوههم فيقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون.^{٦.}

وقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.^{٧.}

١ - سورة يونس: الآية / ٤١

٢ - سورة البقرة: الآية / ١٩٦

٣ - سورة سباء: الآية / ٢٥

٤ - الدر المصنون في علم الكتاب المكون (٣٣٠ / ١)

٥ - سورة آل عمران: الآية / ١٠٦

٦ - تفسير الطبراني (٦٦٤ / ٥)

٧ - سورة آل عمران: الآية / ١١٣

في الكلام حذفٌ تقديره: في الكلام اختصار وحذف، تقديره: ﴿لَيَسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾، وأخرى غير قائمة، فترك ذكر الأخرى اكتفاء بذكر أحد الفريقين.^١

وكما في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعْلَنَا مِنْكُمْ شِرْعَةٌ وَمِنْهَا جَأَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوْكُمْ فِي مَا آتَانُكُمْ﴾.^٢

في الكلام حذف، المعنى: ولكن جعل شرائعكم مختلفة ليختبركم فيما آتاكم من شرائعه.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُرِّيَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾.^٤

أي: لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى في قبورهم، لكن هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره.^٥

ومنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَفْوَى الْقُلُوبِ﴾.^٦

في الكلام حذف مضافين، والتقدير: فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب، فحذفت هذه المضافات، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها.^٧

وكما في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدْوُرُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُعْشِي عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾.^٨

ومعنى الكلام: تدور أعينهم كدوارِ عيني الذي يعيش عليه من الموت.

١ - تفسير الشعلي (٩/١٦٩)

٢ - سورة المائدة: الآية/٤٨

٣ - المهدية إلى بلوغ النهاية (٣/١٧٧١)

٤ - سورة الرعد: الآية/٣١

٥ - تفسير ابن كثير (٤/٤٦٠)

٦ - سورة الحج: الآية/٣٢

٧ - تفسير الكشاف (٣/١٥٦)

٨ - سورة الأحزاب: الآية/١٩

وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.^١

قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: مَعْنَى الْآيَةِ: وَتَجْعَلُونَ بَدْلَ شَكْرِ رِزْقِكُمُ الَّذِي رَزَقَكُمُ اللَّهُ التَّكْذِيبُ.^٢

وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيمَا نَقْضَيْهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفُرُهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بَعْيَرْ حَقِّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا عُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفُرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥٥) وَبِكُفُرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبَّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ احْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعُ الظَّنِّ وَمَا قَاتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفِعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.^٣

قَالَ الطَّبَرِيُّ: مَعْنَى الْكَلَامِ: فِيمَا نَقْضَيْهِمْ مِيثَاقَهُمْ، وَكُفُرُهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَبِكُذَا وَبِكُذَا، لَعْنَاهُمْ وَغَضِبْنَا عَلَيْهِمْ فَتَرَكَ ذِكْرَ لَعْنَاهُمْ لِدَلَالَةِ قَوْلِهِ: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفُرِهِمْ﴾، عَلَى مَعْنَى ذَلِكَ. إِذَا كَانَ مِنْ طَبَعِهِ، فَقَدْ لَعِنْ وَسُخْطَ عَلَيْهِ.

وَإِنَّا قَلَنَا ذَلِكَ أُولَى بِالصَّوَابِ، لَأَنَّ الَّذِينَ أَخْذَنَهُمُ الصَّاعِقَةَ، إِنَّمَا كَانُوا عَلَى عَهْدِ مُوسَى وَالَّذِينَ قَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ، وَالَّذِينَ رَمَوا مَرْيَمَ بِالْبَهْتَانِ الْعَظِيمِ، وَقَالُوا: قَتَلْنَا الْمَسِيحَ، كَانُوا بَعْدَ مُوسَى بَدْهَرٌ طَوِيلٌ. وَلَمْ يَدْرِكُ الَّذِينَ رَمَوا مَرْيَمَ بِالْبَهْتَانِ الْعَظِيمِ زَمَانَ مُوسَى، وَلَا مِنْ صُعْقَ مِنْ قَوْمِهِ. وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذِلِكَ، فَمَعْلُومٌ أَنَّ الَّذِينَ أَخْذَنَهُمُ الصَّاعِقَةَ، لَمْ تَأْخُذْهُمْ عَقُوبَةً لِرَمِيْهِمْ مَرْيَمَ بِالْبَهْتَانِ الْعَظِيمِ، وَلَا لِقَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾. وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذِلِكَ، فَبِيَّنَ أَنَّ الْقَوْمَ الَّذِينَ قَالُوا هَذِهِ الْمَقَالَةَ، غَيْرَ الَّذِينَ عَوَقَبُوا بِالصَّاعِقَةِ. وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذِلِكَ، كَانَ بِيَّنًا انْفَصَالَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فِيمَا نَقْضَيْهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾، مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَأَخْذَهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾.^٤

وَقَدْرَهُ ابْنِ عَطِيَّةَ: لَعْنَاهُمْ وَأَذْلَلَنَاهُمْ، وَحَتَّمْنَا عَلَى الْمَوْافِينَ مِنْهُمُ الْخَلُودَ فِي جَهَنَّمَ.

١ - سورة الواقعة: الآية / ٨٢

٢ - التفسير الوسيط للواحدى (٤ / ٢٤٠)

٣ - سورة النساء: الآية / ١٥٥ - ١٥٨

٤ - تفسير الطبرى (٧ / ٦٤٨)

قال ابن عطية: وحذف جواب هذا الكلام بلين منهم، متترك مع ذهن السامع، تقديره لعنهم وأذللناهم، وحتمنا على الموافقين منهم الخلود في جهنم.^١

والباء في: ﴿فِيمَا نَقْضِيهِمْ﴾، فيما نقضهم تتعلق بمحذوف قدره الزمخشري: فعلنا بهم ما فعلناه.^٢

١ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١٣٢ / ٢)

٢ - البحر الحيط في التفسير (٤ / ١٢٣)

الإطنابُ

تعريف الإطنابِ:

الإطنابُ لغةً: المبالغة في الشيء.

قال ابن فارس: أطنب في الشيء إذا بالغ.^١

وقال ابن سيده: الإطناب: البلاغة في المنطق والوصف، مدحًا كان أو ذمًا.^٢

وفي اصطلاح البayanين: زيادة اللفظ على المعنى لفائدة.^٣

فإن لم يكن في الكلام زيادة في المعنى كان ذلك تطويلاً، وليس ذلك من الفصاحة في شيء بل هو عي.

ولا شك أن الإطناب أسلوب من أساليب البلاغة في المنطق والوصف.

وقد قيل: الإيجاز بلاغة والتقصير عي، كما أن الإطناب بلاغة والتطويل عي.^٤

وقال السيوطي في الإيجاز والإطناب: اعلم أنهما من أعظم أنواع البلاغة حتى نقل صاحب سر الفصاحة عن بعضهم أنه قال: البلاغة هي الإيجاز والإطناب.

قال صاحب الكشاف: كما أنه يجب على البلاغ في مظان الإجمال أن يحمل ويوجز فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل أن يفصل ويبيح أنشد الحافظ:

يَرْمُونَ بِالْخُطَبِ الطَّوَالِ وَتَارَةً وَحْيٍ الْمُلَاحِظِ حِيفَةَ الرُّقَبَاءِ^٥

أقسام الإطنابِ:

ينقسم الإطناب إلى عدة أقسام وهي:

١ - معجم مقاييس اللغة (٤٢٦ / ٣)

٢ - المحكم والحيط الأعظم (١٨٩ / ٩)

٣ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢٨٠ / ٢)

٤ - إعجاز القرآن للرماني (ص: ٣)، وانظر إعجاز القرآن للباقلي (١ / ٢٦٣)

٥ - الإنegan في علوم القرآن (٣ / ١٧٩)

- ١ الإيضاح بعد الإبهام.
- ٢ ذكر الخاص بعد العام.
- ٣ ذكر العام بعد الخاص.
- ٤ التكرير لداعٍ.
- ٥ الاحتراس.
- ٦ الاعتراض.
- ٧ التذليل.
- ٨ الإيضاح.
- ٩ الإيغال.
- ١٠ البسط.
- ١١ التتميم.
- ١٢ التكميل.
- ١٣ التوشيع.
- ١٤ الزيادة.

أمثلة الإطناب:

القسم الأول الإطناب بالبسط:

ستتناول إن شاء الله في هذا البحث عدداً من هذه الأقسام بالبيان ونفرد الكلام عن كل قسم منها على حدة، وليس الغرض في هذا البحث أن نستقصي كل الأقسام بالدراسة، إنما البحث في أشهر هذه الأقسام، أما هنا فنتحدث عن قسمين من أقسام الإطناب، وهما البسط والزيادة، وإليك أمثلة على إطناب البسط والزيادة.

من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ

مَوْكِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَائِةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَحَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ
لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ^١.

في الآية إِطْنَابٌ بِتَكْثِيرِ الْجَمْلِ؛ لأنَّ الخطابَ في الآية للإِنْسَانِ والجَنِّ، وفيهم العَالَمُ والجَاهِلُ،
والمُؤْمِنُ والكافِرُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمْسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا
إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.^٢

فقوله تعالى: ﴿فَلَمْسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ إِطْنَابٌ؛ لأنَّ اللمس عادة لا يكون إلا بالأيدي.
وفائدته: زيادة التأكيد ودفع احتمال التجوز الواقع في قوله تعالى حكاية عن الجن: «وَأَنَّا
لَمَسْنَا السَّمَاءَ» أي تفحصنا السماء.

أما هنا ﴿فَلَمْسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: جسُوه وعاينوه، ورأوا نزوله، وبashروا ذلك بحيث لم يبق
عندهم فيه الشبه، وفيه بيان لـمكابرهم للمحسوسات.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَيِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ
وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾.^٣

فقوله تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ إِطْنَابٌ لأنَّ إيمانَ حَمْلَةِ الْعَرْشِ مَعْلُومٌ، وفادته إِظْهَارُ شَرْفِ
الإِيمَانِ تَرْغِيْبًا فِيهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.^٤

فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ إِطْنَابٌ لأنَّ المشركين لا يؤتون الزكاة، وفادته حثُّ
المؤمنين على أدائها والتَّحذير من منعها، لأنَّ ذلك من أوصاف المشركين.

١ - سورة البقرة: الآية / ١٦٤

٢ - سورة الأنعام: الآية / ٧

٣ - سورة غافر: الآية / ٧

٤ - سورة فصلت: الآية / ٦ ، ٧

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايِي أَتَوَكَّلُ عَلَيْهَا وَأَهْشُ إِلَيْهَا عَلَى عَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَارِبُ أُخْرَى﴾^١.

ففي الآية إِطْنَابٌ بتکثیر الجمل؛ فقد كان يكفي أن يقول موسى عليه السلام جواباً عن قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾، كان يكفي أن يقول: ﴿هِيَ عَصَايِي﴾، ولكن زاد في الجواب، تلذداً بخطاب الله تعالى، فقال: ﴿أَتَوَكَّلُ عَلَيْهَا وَأَهْشُ إِلَيْهَا عَلَى عَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَارِبُ أُخْرَى﴾ وكأنه أجاب عن سؤال مقدّر، كأنه قدر أن يقال له: وما تفعل بها؟ فقال معدداً منافعها، وذلك لما لمناجاة الله تعالى من لذة لا تشبهها لذة.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَيْهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ^٢ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَرَ لَهَا عَاكِفِينَ^٣.

ففي قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَرَ لَهَا عَاكِفِينَ﴾، إِطْنَابٌ بتکثیر الجمل؛ فإنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام سألهم عن معبودهم، فكان القياس أن يقولوا: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَاماً﴾، ولكنهم زادوا في جوابهم على سؤال إِبْرَاهِيمَ عليه السلام: ﴿فَنَظَرَ لَهَا عَاكِفِينَ﴾، لبيان ما في نفوسهم من الفرح والابتهاج والفرح، بعبادة هذه الأصنام.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحْكُمُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأْرَتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾^٤.

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْكُمُ بِيَمِينِكَ﴾، إِطْنَابٌ فإن الكتابة لا تكون عادةً إلا باليمين، وفائدة الإِطْنَاب هنا تأكيد للحقيقة ونفي توهם المجاز، ومثله قوله: رأيته يعني، وسمعته بأذني، وقبضته بيدي.

١ - سورة طه: الآية / ١٧ ، ١٨

٢ - سورة الشعرا: الآيات / ٦٩ : ٧١

٣ - سورة العنكبوت: الآية / ٤٨

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿فَالْقُلُّوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِي وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى فَقَالَ بَلْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا﴾^١

في قوله تعالى على لسان السحره: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِي وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ إطناه؛ فإنهم كان يمكنهم أن يقولوا: (إِمَّا أَنْ تُلْقِي وَإِمَّا أَنْ نُلْقَى)، وفائدة الإطناه هنا، بيان اعتزاز السَّحَرَةِ بِأَنفُسِهِمْ، وثقتهم في سحرهم، واستطالتُهُمْ على مُوسَى وذلك لأنهم لما أُسندوا الفعل لأنفسِهِمْ جاءَوا بِلِفْظٍ أَتَّمَّ وَأَوْفَ من الفعل الذي أُسندوه إليه عليه السلام.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٦٠) فَقَالَ يَا قَوْمَ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) ﴿أُبَيْلِغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^٢.

ففي قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦١) ﴿أُبَيْلِغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، إطناه؛ فقد كان يكفي في الجواب أن يقول: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾، وفائدة الإطناه هنا المبالغة في نفي الضلال، والمبالغة في إثبات الهدایة، ردًا على مبالغتهم في وصفهم له بالضلال، فهم قد نسبوا له صورًا كثيرة من الضلال، فناسب ذلك المبالغة بالإطناه في نفي ذلك عن نفسه، ثم وصف نفسه بأشرف الصفات وأجلها وهو كونه رسولاً إلى الخلق من رب العالمين ذكر ما هو المقصود من الرسالة وهو أمران: الأول: تبليغ الرسالة. والثاني: تقرير النصيحة. فقال: ﴿أُبَيْلِغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾، ثم وصف نفسه بالعلم المنافي للجهل الذي من آثاره الضلال، فقال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^٣.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَيَوْدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأُهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ....﴾^٤.

١ - سورة طه: الآية /٦٥ ، ٦٦

٢ - سورة الأعراف: الآيات /٦٠ : ٦٢

٣ - تفسير الرازي (١٤ / ٢٩٦)

٤ - سورة البقرة: الآية /٢٦٦

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَمَّ مَا لِكَ الْمُلْكُ تُؤْتِي الْمُلْكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزَعُ الْمُلْكَ مِنْ تَشَاءُ وَتُعَزِّزُ مِنْ تَشَاءُ وَتُذَلِّلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْحَمْرَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^١.

ففي الآية إِطْنَابٌ بِتَكْثِيرِ الْجُمْلِ؛ لأنَّ هَذَا الْمَعْنَى أَتَى مَوْجَرًا فِي سُورَةِ الْبَقْرَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾^٢.

وَفَائِدَةُ الْإِطْنَابِ هُنَا بِيَانُ أَنَّ الْمَلْكَ لَا يَبْتَدِي وَلَا يَدُومُ بِالْقُوَّةِ وَحْدَهَا، فَكُمْ مِنْ دُولَةِ دَالِتِ، وَكُمْ مِنْ مَالِكِ زَالَتِ، وَلَمْ تَغُنِّ عَنْهُمْ كُثُرَتِهِمْ شَيْئًا، وَقَدْ شَهَدَ التَّارِيخُ سُقُوطًا مَرْوِعًا لِكَثِيرٍ مِنَ الْعَرُوشِ، الَّتِي مَا كَانَ يَظْنَنُ أَحَدٌ أَنْ تَسْقُطَ، وَشَهَدَ إِنْهَايَاً لِأَمْمَ مَا كَانَ يَتَخَيلُ أَحَدٌ أَنَّهَا سَتَنْهَار، وَرَأَى الْعَالَمُ ذُلُّ الْمُلُوكِ الَّذِينَ طَغَوْا وَبَغَوْا وَعَتَوْا وَتَجَبَّرُوا، فَمِنْهُمْ مَنْ دُبَحَ كَمَا تُدْبَحُ الشَّاهَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ مَاتَ تَحْتَ وَطَأَةِ الْأَقْدَامِ، وَمِنْهُمْ مَنْ صُلِّبَ وَمِنْهُمْ مَنْ عُلِّقَ عَلَى أَعْوَادِ الْمَشَانِقِ، ﴿وَكَذَلِكَ أَحْذَرُ رَبِّكَ إِذَا أَحْذَرَ الْفَرِّي وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَحْذَرَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾^٣.

وَكُمْ مِنْ خَامِلِ الذِّكْرِ لَا يَلْقَي لَهُ أَحَدٌ بَالًا، وَلَا يَعِيرُهُ أَحَدٌ التَّفَاتًا، حِيزَتْ لَهُ الدِّينَى، وَأَمْسَكَ بِمَقَالِيدِ الْأَمْوَارِ، وَصَارَ رَأْسًا فِي النَّاسِ بَعْدَمَا كَانَ مَغْمُورًا، فَالْمَلْكُ بِيَدِ اللَّهِ تَعَالَى يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُهُ مَنْ يَشَاءُ، لَا مَعْقُبٌ لِحُكْمِهِ وَلَا رَادٌ لِقَضَائِهِ.

وَمَثَالُهُ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرِحِينٌ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^٤.

ففي الآية إِطْنَابٌ بِتَكْثِيرِ الْجُمْلِ؛ لأنَّهُ كَانَ يَكْفِي فِي الْجَوابِ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، لِذَلِكَ أَتَى

١ - سورة آل عمران: الآية / ٢٦

٢ - سورة البقرة: الآية / ٢٤٧

٣ - سورة هود: الآية / ١٠٢

٤ - سورة آل عمران: الآية / ١٦٩ : ١٧١

الجواب في سورة البقرة موجزاً، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاهُ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.^١

وفائدة الإطناب هنا بيان منزلة الذين قتلوا في سبيل الله، وأنهم أحياه عند ربهم يرزقون، وليس كما يظن بعض الناس من أنهم أموات، وأنهم فرحون بما هم فيه من النعم، ومستبشرون بأخواتهم الذين يقدموه عليهم من يقاتلون في سبيل الله، لا يخافون مما يقدمون عليه، ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم.

ومثاله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضْيِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبِّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.^٢

ففي قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، إطنابٌ فإن التسبيح في عُرفِ الشرع: تنزيه الله جل وعلا عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله.

وعلى هذا فمعنى: «سبّح»: نزه ربك جل وعلا عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله.

أي: في حال كونك متلبساً بحمد ربك، أي: بالثناء عليه بجميع ما هو أهله من صفات الكمال والجلال؛ لأن لفظة: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أضيفت إلى معرفة فتعم جميع الحامد من كل وصف كمال وجلال ثابت لله جل وعلا، فتستغرق الآية الكريمة الثناء بكل كمال؛ لأن الكمال يكون بأمررين:

أحدهما: التخلّي عن الرذائل، والتّنّزه عما لا يليق، وهذا معنى التسبيح.

والثاني: التحلّي بالفضائل والاتصال بصفات الكمال، وهذا معنى الحمد؛ فتم الثناء بكل كمال.^٣

وقيل: المراد بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، أي: صل له، فقوله: ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، من عطف الخاص على العام، والصلة تتضمن غاية التنزيه، فيكون المراد بقوله: ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، أي: من المصلين، ويكثر في القرآن إطلاق التسبيح على الصلاة.

١ - سورة البقرة: الآية/ ١٥٤

٢ - سورة الحجر: الآية/ ٩٧ - ٩٨

٣ - أصوات البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢ / ٣٢٢)

وفائدة الإطناب هنا بيان أهمية السجود، ويكون هذا أيضًا من باب عطف الخاص على العام.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةَ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.^١

فإن قوله تعالى: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾، بعد قوله تعالى: ﴿رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ﴾، من باب عطف العام على الخاص؛ فإنه سبحانه رب كل شيء ومليكه.

القسم الثاني إِطْنَابُ الزِّيَادَةِ:

إِطْنَابُ الزِّيَادَةِ يكون بأنواعٍ:

أحدها: دخول حرف فأكثر من حروف التأكيد السابقة في نوع الأدوات وهي: إن وأن ولام الابتداء والقسم وألا الاستفتاحية وأما وها التنبيه وكأن في تأكيد التشبيه ولكن في تأكيد الاستدراك وليت في تأكيد التمني ولعل في تأكيد الترجي وضمير الشأن وضمير الفصل وأما في تأكيد الشرط وقد والسين وسوف والنونان في تأكيد الفعلية ولا التبرئة ولن وما في تأكيد النفي وإنما يحسن تأكيد الكلام بها إذا كان المخاطب به منكراً أو متددداً.^٢

أمثلة إِطْنَابُ الزِّيَادَةِ:

قول الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدُمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾.^٣

ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾، أربع تأكيدات، أكدة الكلام بـ ﴿إِنَّ﴾، وفيها تأكيدان؛ لأنَّ ﴿إِنَّ﴾، تفيد التكرير مرتين، وإثبات الضمير المتصل في: ﴿إِنَّهُ﴾ (الباء)، والضمير المنفصل ﴿هُوَ﴾.

وفائدة الإطناب هنا أن فيه ترغيباً للعباد في التوبة، وبيان حب الله تعالى للتوبة وللتائبين.

١ - سورة التمل: الآية / ٩١

٢ - الإتقان في علوم القرآن (٣ / ٢١٧)

٣ - سورة البقرة: الآية / ٣٧

ومنه قول الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمْ يُشْتُونَ * إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبَعَّثُونَ﴾.^١
 أكد الله تعالى الموت بثلاث تأكيدات بـ ﴿إِنَّ﴾، وفيها تأكيدان، وتأكيد باللام، وإذا اجتمعت إن واللام كان منزلة تكرير الجملة ثلاثة مرات، وأكيد إثبات البعث باللام.

وفائدة الإطناب: أن الله تعالى نَزَّلَ المخاطبين تنزيل من ينكر الموت لتماديهم في الغفلة.
 قال أبو حيان: بولغ في تأكيد ذلك تنبئها للإنسان أن يكون الموت نصب عينيه ولا يغفل عن ترقبه، فإن مآلاته إليه فكأنه أكدت جملته ثلاط مرار لهذا المعنى، لأن الإنسان في الحياة الدنيا يسعى فيها غاية السعي، ويؤكده ويجمع حتى كأنه مخلد فيها فنبه بذلك الموت مؤكداً مبالغوا فيه ليقصر، وليعلم أن آخره إلى الفناء فيعمل لدار البقاء، ولم تؤكده جملة البعث إلا بإبان أنه أبرز في صورة المقطوع به الذي لا يمكن فيه نزع ولا يقبل إنكارا وإنه حتم لا بد من كيانه فلم يحتاج إلى توكيده ثان.^٢

وقد يقول قائل: لم أَكَدَ الله تعالى الموت بتأكيدتين، وأَكَدَ إثبات البعث تأكيداً واحداً؟

وقد وجد من ينكرو البعث ولم نسمع من ينكر الموت؟

والجواب: أن الله تعالى أكد الموت بتأكيدتين لما ذكرناه آنفاً، وأكيد إثبات البعث تأكيداً واحداً؛ لأنَّ البعث أدلة ظاهرة يراه الإنسان كل يوم في الكون من حوله، ولما كانت أدلة ظاهرة كان جديراً بأن لا ينكر؛ فنزل المخاطبون منزلة غير المنكر حتَّى لهم على النظر في أدلة الواضحة.^٣

ومنه قول الله تعالى حكاية عن الرسُّل في سورة يس: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزَنَا بِهِمَا فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾.^٤

١ - سورة المؤمنون: الآية/ ١٥ ، ١٦

٢ - البحر الحيط في التفسير (٥٥٣ / ٧)

٣ - الإنقاذ في علوم القرآن (٢١٧ / ٣)

٤ - سورة يس: الآية/ ١٤

ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ نوعان من التأكيد، تأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ وتأكيد بالجملة الإسمية. فلما كذبهم قومهم قالوا رداً عليهم: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾.^١

ففي المرة الثانية زاد التأكيد فأكيد الكلام بالقسم وأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ واللام بالجملة الإسمية وهذا إطناهُ الزِيادةُ، بدليل قولهم في المرة الأولى: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾، وكان يكفي هذا في المرة الثانية.

وفائدة الإطناه هنا المبالغة في التأكيد لمبالغة المخاطبين في الإنكار حيث قالوا للرسل: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾.^٢

ومن إطناهُ بالزيادة أيضاً قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِنْ لِيَسَ أَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾.^٣

في الآية إطناهُ بالزيادة في قوله: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾، وهو توكيدهُ معنويٌّ.

وفائدته: رفع توهם المجاز، ودفع ظن عدم شامل الأمر لجميع الملائكة.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيهِ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدُ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الدِّينِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.^٤

في قوله تعالى: ﴿ضَيْقًا حَرَجًا﴾، إطناهُ بالزيادة، ففي غير كلام الله تعالى يكفي أن يقال: (يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا)، للإخبار عن ضيق الصدر.

وفائدة الإطناه هنا بذكر لفظ ﴿حَرَجًا﴾؛ المبالغة في بيان شدة الضيق فإن الحرج هو أشدُ الضيق، فالله تعالى يجعل قلبه ضيقاً ضيقاً شديداً ليس فيه منفذٌ للخير حتى لا يدخله الإيمان عيادةً بالله.

١ - سورة يس: الآية / ٦

٢ - سورة يس: الآية / ٥

٣ - سورة الحجر: الآية / ٣٠

٤ - سورة الأنعام: الآية / ١٢٥

ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَلَمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾.^١

في قوله تعالى: ﴿تَكْلِيمًا﴾، إِطْنَابٌ بِالْزِيادَةِ؛ لأنَّ الْمَعْنَى يَتَمُّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَلَمَ اللَّهُ مُوسَى﴾.

وَفَائِدَةُ الْإِطْنَابِ هُنَا بِزِيادَةِ لِفْظِ ﴿تَكْلِيمًا﴾؛ رفع توهُّمِ الْمَجازِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَلَمَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَلَامًا حَقِيقِيًّا وَأَكَدَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿تَكْلِيمًا﴾؛ فَأَتَى التَّوْكِيدُ لِرَفِعِ الْمَجازِ فِي الْفَعْلِ.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾.^٢

فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾، إِطْنَابٌ بِالْزِيادَةِ فِي السَّقْفِ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ فَوْقِهِمْ، وَكَانَ يَكْفِي فِي غَيْرِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ: (فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ).

وَفَائِدَةُ الْإِطْنَابِ هُنَا بِزِيادَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾، بِيَانِ أَكْهَمِ كَانُوا تَحْتَهُ عِنْدَمَا خَرَّ السَّقْفُ لِأَنَّهُ رُبَّمَا خَرَّ السَّقْفُ، وَلَا يَكُونُ تَحْتَهُ أَحَدٌ، فَلَمَّا قَالَ: ﴿فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾، دَلَّ عَلَى أَكْهَمِ كَانُوا تَحْتَهُ، أَكْهَمُ مَا تَحْتَهُ لَمَا تَهَمُّمُ عَلَيْهِمْ.

ومنه قوله تعالى: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَّمِسُوا نُورًا﴾.^٣

فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَاءَكُمْ﴾، إِطْنَابٌ بِالْزِيادَةِ فِي الرَّجُوعِ لَا يَكُونُ إِلَّا إِلَى الْخَلْفِ وَالْوَرَاءِ، وَكَانَ يَكْفِي فِي غَيْرِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ: (اْرْجِعُوا فَالْتَّمِسُوا نُورًا).

وَفَائِدَةُ الْإِطْنَابِ هُنَا بِزِيادَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَاءَكُمْ﴾. أَنْ قَوْلُهُ: ﴿اْرْجِعُوا﴾ أَمْرٌ لِلْمَرَادِ مِنْهُ التَّوْبِيْخُ وَالْطَّرْدُ، وَلَيْسُ الإِرْشَادُ وَالْدَّلَالَةُ، أَيْ: ارْجِعُوا إِلَى الْمَوْقِفِ حِيثُ أُعْطِيَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ النُّورَ فَالْتَّمِسُوا النُّورَ هَنَالِكَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَاءَكُمْ﴾، خَدْعَةٌ لِلْمُنَافِقِينَ، كَمَا كَانُوا يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا، وَالْجَزَاءُ مِنْ جَنْسِ الْعَمَلِ، وَتَحْكِيمُ بَعْضِهِمْ كَذَلِكَ، كَقُولُ الرَّجُلِ لِمَنْ يَرِيدُ أَنْ يَقْرَبَ مِنْهُ: وَرَاءَكَ أَوْسَعُ لَكَ.

١ - سورة النساء: الآية / ١٦٤

٢ - سورة التحـلـ: الآية / ٢٦

٣ - سورة الحـدـيدـ: الآية / ١٣

عطف الخاص على العام

ومن أقسام الإطناب ذكر الخاص بعد العام، للتبنيه على فضله حتى كأنه ليس من جنسه، تنزيلاً للتغایر في الوصف منزلة التغایر في الذات.^١

فائدة:

قال السيوطي: وفائدة التبنيه على فضله حتى كأنه ليس من جنس العام تنزيلاً للتغایر في الوصف منزلة التغایر في الذات.

وحكى أبو حيان عن شيخه أبي جعفر بن الزبير أنه كان يقول هذا العطف يسمى بالتجريد كأنه جرد من الجملة وأفرد بالذكر تفضيلاً.^٢

أمثلة عطف الخاص على العام:

من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَيْنِي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.^٣

عطف قوله تعالى: ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، على قوله: ﴿نِعْمَتِي﴾، من باب عطف الخاص على العام، والمراد: على عالمي زمانكم، وفائدة: تذكيره بمنته عليهم فإن تفضيل الآباء شرف للأبناء.

ومنه قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجَبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾.^٤

فإن جبريل وميكال ملكيان كريمين من ملائكة الله المقربين وإفرادهما بالذكر بعد ذكر الملائكة من باب عطف الخاص على العام للتبنيه على مكانتهما، وعظيم فضلهم.

قال ابن الكثير: وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا في الملائكة، ثم عموم الرسل، ثم خصصا بالذكر؛ لأن السياق في الانتصار لجبريل وهو السفير بين الله

١ - الإيضاح في علوم البلاغة (٣ / ٢٠٠)

٢ - الإنegan في علوم القرآن (٣ / ٢٤٠)

٣ - سورة البقرة: الآية / ١٢٢

٤ - سورة البقرة: الآية / ٩٨

وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل في اللفظ؛ لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم وميكائيل ولهم، فأعلمهم أنه من عادى واحداً منها فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوْكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾^٢.

المراد بنقص الثمرات ما يصيبها من الآفات، وعطف نقص الثمرات على نقص الأموال من عطف الخاص على العام، لأن الأموال تشمل الثمرات وغيرها؛ للتنبيه على قيمة الثمرات وأنها من أسباب قوام العيش.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾^٤.
عطف إهلاك الحرث والنسل على الإفساد في الأرض من باب عطف الخاص على العام؛ فإن الإفساد في الأرض أعم من ذلك، فيشمل سفك الدماء ونهب الأموال، وهتك الأعراض وغير ذلك، وفائدة التنبيه على خطر إهلاك الحرث والنسل.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾^٥.
قال الألوسي: والنعمة إما عامة فعطف ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ﴾، عليها من عطف الخاص على العام، وإما أن تخص بالإسلام ونبوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وخاصة بالذكر ليناسب ما سبقه.^٦

ومنه قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾^٧.
فإن الصلاة الوسطى هي إحدى الصلوات الخمس، فذكرها بعد الصلوات الخمس من باب عطف الخاص على العام للتنبيه على فضلها، ولمزيد العناية بها، والراجح أنها صلاة

١ - تفسير ابن كثير (١/٣٤٢)

٢ - سورة البقرة: الآية/١٥٥

٣ - انظر فتح البيان في مقاصد القرآن (١/٣١٩)

٤ - سورة البقرة: الآية/٢٠٥

٥ - سورة البقرة: الآية/٢٣١

٦ - تفسير الألوسي روح المعاني (١/٥٣٧)

٧ - سورة البقرة: الآية/٢٣٨

العصر؛ فَعَنْ عَلَيِّ قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْأَخْرَابِ: شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى صَلَاةَ الْعَصْرِ، مَلَأَ اللَّهُ بِيُوْكَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا. ثُمَّ صَلَّاهَا بَيْنَ الْعِشَاءِ وَالْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ».^١

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَايُونَ عَنِ الْمُنْكَر﴾.^٢

فإن عطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الدعوة على الخير من باب عطف الخاص على العام، فإن الدعوة على الخير أعم من أن تكون مجرد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإفراد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالذكر لإظهاراً لشرفه، فإنه القطب الأعظم لهذا الدين، والمهم الذي ابتعث الله له النبيين.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.^٣

فإن قول الله تعالى: ﴿وَاسْمَعُوا﴾، بعد لامر بالتقوى من باب عطف الخاص على العام؛ فإن التقوى تشتمل على فعل الطاعات وترك المحرمات، فهي أعم من السمع والطاعة.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾.

فسر بعضهم النكث بالارتداد بقرينة ذكره في مقابلة: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾؛ أي: قدحوا فيه بأن عابوه وقبعوا أحكامه علانية؛ فيكون من عطف الخاص على العام؛ وفائدة التنبية على خط الطعن في دين الله تعالى، وأنه موجب من موجبات القتال.

١ - رواه البخاري - كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلل، حديث رقم: ٢٩٣١، ومسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الدليل لمن قال: الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، حديث رقم: ٦٢٧

٢ - سورة آل عمران: الآية/ ١٠٤

٣ - سورة المائدة: الآية/ ١٠٨

٤ - سورة التوبة: الآية/ ١٢

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾.^١

فإن فعل الخيرات أعم من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وعطف إقام الصلاة وإيتاء الزكاة من باب عطف الخاص على العام.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخْدَنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيقَاتَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخْدَنَا مِنْهُمْ مِيقَاتًا غَلِيظًا لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.^٢

فإن ذكر محمد ونوح وإبراهيم وموسى ويعيسى عليهم السلام، بعد ذكر النبيين، من باب عطف الخاص على العام؛ للتبنيه على فضلهم ومكانتهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِنَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.^٣

قال ابن كثير: نهان أولًا عن الشر ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وهذا من باب عطف العام على الخاص.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾.^٥

فإن الجبال داخلة في جملة الأرض، لكن لفظ الأرض عام، والجبال خاص، وفائدته ههنا تعظيم شأن الأمانة المشار إليه، وتفخييم أمرها.^٦

١ - سورة الأنبياء: الآية / ٧٣

٢ - سورة الأحزاب: الآية / ٧

٣ - سورة الأحزاب: الآية / ٣٣

٤ - تفسير ابن كثير (٦ / ٤١٠)

٥ - سورة الأحزاب: الآية / ٧٢

٦ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢ / ١٦١)

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِ وَالأنْعَامُ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾.^١

فإن ذكر الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، بعد ذكر الدواب وهي: كل ما يدب على الأرض من باب عطف الخاص على العام.

قال ابن كثير: قال هناك: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رَوْجَانٌ﴾، وقال هنا: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، ولا شك أن الأولى أعم وأكثر في الأفراد والتنوع على فاكهة، وهي نكرة في سياق الإثبات لا تعم؛ وهذا فسر قوله: ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخاري وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾.^٣

عن عطف الفواحش على كبائر الإثم من عطف الخاص على العام؛ فإن الفواحش ما عظم قبحه من الكبائر، والكبائر أعم منها بكثير.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.^٤

قال الألوسي: وعطف: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، على: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، من عطف الخاص على العام تعظيمًا لهم بعدهم كأنهم جنس آخر، ولذا أعيد الموصول في النظم الكريم.^٥

ومنه قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةً﴾.^٦

فإن عطف الروح على الملائكة من باب عطف الخاص على العام فإن المراد بالروح هنا هو جبريل عليه السلام.

١ - سورة فاطر: الآية/ ٢٨

٢ - تفسير ابن كثير (٧/ ٥٠٧)

٣ - سورة الشورى: الآية/ ٣٧

٤ - سورة المجادلة: الآية/ ١١

٥ - تفسير الألوسي روح المعاني (١٤ / ٢٢٣)

٦ - سورة المعارج: الآية/ ٤

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ آهِنَّكُمْ وَلَا تَدْرُنَّ وَدًا وَلَا سُواعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعْوَقَ وَنَسْرًا﴾.^١

فإن عطف ود وسوع ويعوق ونسر على لفظ: ﴿آهِنَّكُمْ﴾، من باب عطف الخاص على العام، فإنهم اتخذوهم آلهة من دون الله تعالى.

ومنه قوله تعالى: ﴿تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾.^٢

تقدّم أن المراد بالروح هو جبريل عليه السلام، فيكون من باب عطف الخاص على العام.

١ - سورة نوح: الآية / ٢٣

٢ - سورة القدر: الآية / ٤

عطف العام على الخاص

ومن أقسام الإطناب عطف العام على الخاص، وهو مقابل عطف الخاص على العام.

فائدة:

وفائدته: التعميم.

منه قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾^١.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾، على: ﴿ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ﴾، من عطف العام على الخاص، أي: وأهل الأرض كلهم قابلون للإهلاك، والمسيح ابن مريم منهم فحكمه كحكمهم سواء.

ومنه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾^٢.

الأمر بالعبادة بعد الأمر بالركوع والسجود من عطف العام على الخاص؛ لأن العبادة أعم من الصلاة ذات الركوع والسجود، فإن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأول والأفعال الظاهرة والباطنة.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْ الْجَاهِلِيَّةُ الْأُولَى وَأَقْمَنَ الصَّلَاةَ وَآتَيْنَ الزَّكَاةَ وَأَطْعَنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾^٣.

الأمر بطاعة الله وبرسوله صلى الله عليه وسلم، أعم من الإقرار في البيوت وترك التبرج وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم يدخل فيها امتداد كل أمر واجتناب كل نهي، فهي من عطف العام على الخاص.

١ - سورة المائدة: الآية / ١٧

٢ - سورة الحج: الآية / ٧٧

٣ - سورة الأحزاب: الآية / ٣٣

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَرَنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْ اجْهَالِيَّةَ الْأُولَى وَأَقْمَنَ الصَّلَادَةَ وَآتَيْنَ الزَّكَاتَ وَأَطْعَنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^١.

ومنه قوله تعالى: ﴿الَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتُرْكِبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تُأْكُلُونَ﴾^٢.
الأنعام هي الإبل والبقر والغنم، والذي يركب منها الإبل فقط، ويؤكل منها جميماً، وتكون (منها) في الموضع الأول تبعية، و (منها) في الموضع الثاني بيانية، فهي من عطف العام على الخاص.

ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُتِينُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًا وَلَا أَذًى﴾^٣.
وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِ وَالْأَذْى﴾^٤.
عطف الأذى على المني من باب عطف العام على الخاص؛ فإن الأذى أعم من المني.
قال الراغب: الأظهر الأكثر أنه معطوف على قوله: ﴿مَنًا﴾، وهو أعم منه لأن كل مانِ أذى، وليس كل أذى مانِ.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَمَّا يُأْمِنُ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَّلَ مِنَ الْحَقِّ﴾^٥.
قيل المراد بـ(ذكر الله)، هنا القرآن، و﴿وَمَا نَزَّلَ مِنَ الْحَقِّ﴾، قيل: الحلال والحرام فيشمل ذلك القرآن والسنة، فيكون من عطف العام على الخاص.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾^٦.

١ - سورة الأحزاب: الآية / ٣٣

٢ - سورة غافر: الآية / ٧٩

٣ - سورة البقرة: الآية / ٢٦٢

٤ - سورة البقرة: الآية / ٢٦٤

٥ - تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٥٥١)

٦ - سورة الحديد: الآية / ١٦

٧ - سورة الحجر: الآية / ٨٧

بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ السَّبْعَ الْمَثَانِي هِيَ فَاتِحةُ الْكِتَابِ؛ فَعَنْ أَيِّ هُرَيْرَةَ رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ».^١

وَوَرَدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْعُودٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمَا أَنَّ الْمَرَادَ بِالسَّبْعِ الْمَثَانِي: السَّبْعُ الطُّولُ، فَيَكُونُ عَطْفُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عَلَى السَّبْعِ الْمَثَانِي مِنْ عَطْفِ الْعَامِ عَلَى الْخَاصِ إِذَ الْمَرَادُ بِالسَّبْعِ إِمَّا الْفَاتِحةِ وَإِمَّا الطُّولِ، فَكَأَنَّهُ ذَكَرَ مَرْتَينِ بِجَهَةِ الْخَصُوصِ ثُمَّ بَانِدَرَاجِهِ فِي الْعُمُومِ.^٢

وَمِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّمَرِّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رِبِّكَ الْحَقُّ﴾.^٣

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾، إِشارةٌ إِلَى آيَاتِ تِلْكَ السُّورَةِ، وَقَوْلُهُ: إِشارةٌ إِلَى مُجْمُوعِ مَا نُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رِبِّكَ﴾، إِشارةٌ إِلَى الْقُرْآنِ كُلِّهِ، وَعَطْفُهُ عَلَى: ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾، مِنْ عَطْفِ الْعَامِ عَلَى الْخَاصِ.^٤

وَمِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فُلُّ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنٌ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيَّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقْلَانِ أَفَلَا تَتَسْأَلُونَ﴾.^٥

فَإِنْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾، مِنْ عَطْفِ الْعَامِ عَلَى الْخَاصِ؛ لِأَنَّهُ يَعْمَلُ كُلَّ مَا تَقْدِمُ وَغَيْرُهُ.^٦

وَمِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.^٧

١ - رواه البخاري - كتاب التفسير، سورة الحجر، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمِ﴾، حديث رقم: ٤٧٠.

٢ - انظر السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٢١١ / ٢)

٣ - سورة الرعد: الآية/ ١

٤ - انظر التفسير المظہري (٥ / ٢١٢)

٥ - سورة يونس: الآية/ ٣١

٦ - انظر فتح القدير للشوكاني (٥٠٤ / ٢)

٧ - سورة الأنفال: الآية/ ٣٢

فإن العذاب الأليم أعم من أن يكون إمطاراً بالحجارة من السماء، فهو من عطف العام على الخاص؛ فإن العذاب يكون بالحجارة وغيرها.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^{١.}

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، أمر بالتسبيح والصلوة، وعطف عليه الأمر بعبادة الله تعالى، والعبادة أعم وأشمل من التسبيح والصلوة، فهو من عطف العام على الخاص.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُحِبُّ الْمُضْطَرَ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْسِفُ السُّوءَ﴾.^{٢.}

المضطر هو المكروب الذي مسه الضر البالغ، والله تعالى هو الذي يحب دعوة المضطر، وقد عطف على إجابة المضطر أنه: ﴿يَكْسِفُ السُّوءَ﴾، وكشفسوء يكون عن المضطر وغير المضطر؛ فالكلام من عطف العام على الخاص.

ومنه قوله تعالى: ﴿رَبِّ اعْفُرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِئَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾^{٣.}

ذكر المؤمنين والمؤمنات بعد ذكر الوالدين ومن دخل بيته من المؤمنين من عطف العام على الخاص.

١ - سورة الحجر: الآية/ ٩٩، ٩٨

٢ - سورة التمل: الآية/ ٦٢

٣ - سورة نوح: الآية/ ٢٨

التَّذْكِيرُ

ومن أقسام الإطناب التذليل، قال أبو هلال العسكري: وللتذليل في الكلام موقع حليل، ومكان شريف خطير؛ لأن المعنى يزداد به انشراحًا والقصد اتضاحًا. وقال بعض البلغاء: للبلاغة ثلاثة مواضع؛ الإشارة، والتذليل، والمساواة.^١

حدُّ التَّذْكِيرِ:

التَّذْكِيرُ لُغَةً: جعل الشيء ذيلاً للآخر.^٢

واصطلاحًا: هو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه، حتى يظهر من لم يفهمه، ويتوكل عند من فهمه.^٣

وقيل: هو العبارة عن المعنى بالألفاظ تزيد عليه.^٤

وقيل: أن يؤتى بعد تمام الكلام بكلام مستقل في معنى الأول تحقيقاً لدلالة منطق الأول أو مفهومه؛ ليكون معه كالدليل ليظهر المعنى عند من لا يفهم ويكمel عند من فهمه.^٥

أقسامُ التَّذْكِيرِ:

التَّذْكِيرُ ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: ما يجري مجرى المثل.

الثاني: ما لا يجري مجرى المثل، وكلاهما يؤتى به بعد تمام الكلام ليظهر المعنى عند من لا يفهم ويكمel عند من فهمه.

١ - الصناعتين: الكتابة والشعر (ص: ٣٧٣)

٢ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٦٨)

٣ - الصناعتين: الكتابة والشعر (ص: ٣٧٣)

٤ - سر الفصاحة (ص: ٢١٩)

٥ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٦٨)

أمثلة ما يجري مجرى المثل:

مثال القسم الأول: وهو ما يجري مجرى المثل؛ قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحُقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، فجملة: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، أتت بعد تمام الكلام تحقيقاً لدلالة منطق الأول، وهي كذلك جارية مجرى المثل.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزِينَاهُمْ إِمَا كَفَرُوا وَهُلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورُ﴾، فجملة: ﴿وَهُلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورُ﴾، أتت بعد تمام الكلام تحقيقاً لدلالة منطق الأول، وهي كذلك جارية مجرى المثل.

أي: هل يجازى ذلك الجزاء الذي يستحقه الكفور إلا الكفور فإن جعلنا الجزاء عاماً كان الثاني مفيداً فائدة زائدة.^١

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُونَا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشَرِكَكُمْ وَلَا يُنَتِّكَ مِثْلُ حَبِيرٍ﴾^٢.

فجملة: ﴿وَلَا يُنَتِّكَ مِثْلُ حَبِيرٍ﴾ تذيل؛ لأنها أتت بعد تمام الكلام؛ تحقيقاً لدلالة منطق الأول ولا شتماها على معنى زائد وهو سعة علم الله تعالى، وهي كذلك جارية مجرى المثل.

أمثلة ما لا يجري مجرى المثل:

ومثال القسم الثاني وهو ما لا يجري مجرى المثل؛ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُعَاتِلُونَ فِي سَيِّلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِسَيِّعِكُمُ الدِّيَ بِاِيَاعِتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^٣.

١ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٦٩)

٢ - سورة فاطر: الآية / ١٣ ، ١٤

٣ - سورة التوبة: الآية / ١١١

في هذه الآية تذليلان: الأول: وقع في درج الكلام لا في الفاصلة، وهو **﴿وَمَنْ أَوْفَ بِعِهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾**. والثاني: وقع في الفاصلة: **﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**، وكلا التذليلين أتي بعد تمام الكلام تحقيقاً لدلالة منطوق الأول وتأكيداً له.

ومنه قوله تعالى: **﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَجَنِينَاهُ مِنَ الْقَرِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِلَّا كُلُّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوْءًا فَاسِقِينَ﴾** ١.

فقوله تعالى: **﴿إِلَّا كُلُّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوْءًا فَاسِقِينَ﴾**، تذليل لا يجري مجرى المثل، مؤكداً لمعنى: **﴿الْقَرِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾**.

ومنه قوله تعالى: **﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَىٰ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾** ٢.

فقوله تعالى: **﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾**، تذليل لا يجري مجرى المثل، مؤكداً لمعنى: **﴿عَلَىٰ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾**.

ولما كان التذليل عبارة عن كلام مستقل أتي به بعد تمام الكلام الأول تحقيقاً لدلالة منطوق الأول، فنهاية الآية هنا عبارة عن جملة تلخص محمل الآية وتزيد معناها وضوحاً.

والتأذليل يقع في الغالب في نهاية الآية، ورعاً وقع في وسط الآية ولكنه قليل، وهذه الجملة أعني (التذليل) أحياناً تكون مثل المثل السائر بين الناس وقد تتخذ مثلاً بعد ذلك، وهذا معنى قولهم تجري مجرى المثل، مثل قوله تعالى: **﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾** ٣.

والذي يجري مجرى المثل مثاله قوله تعالى: **﴿وَقُلْ جَاءَ الْحُقُّ وَرَاهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾** ٤.

١ - سورة الأنبياء: الآية / ٧٤

٢ - سورة القصص: الآية / ٤

٣ - سورة فاطر: الآية / ١٤

٤ - سورة الإسراء: الآية / ٨١

فجملة: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحُقْقُ وَرَفَقُ الْبَاطِلِ﴾. تم عندها الكلام، والكلام الذي بعدها وهو: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهْوًا﴾، أتى بعد تمام الكلام ليزيده وضوحاً لما كان في ذيل الآية سمي تذيلاً وما كان يشبه المثل لأنه وجيز قيل عنه أنه يجري مجرى المثل.

ومنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ إِمَا كَفَرُوا﴾، كلام تام وضح منه المراد ثم أتت جملة: ﴿وَهُلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَافُورَ﴾، بعد تمام الكلام الأول، لتزيده وضوحاً، وما كانت في ذيل الآية سمي ذلك القدر من الآية تذيلاً وما كان يشبه المثل لأنه وجيز قيل عنه أنه يجري مجرى المثل.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُونَا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشَرْكِكُمْ﴾. كلام تام وضح منه المراد ثم أتت جملة: ﴿وَلَا يُنَسِّنُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ بعد تمام الكلام الأول، لتزيده وضوحاً، وما كانت في ذيل الآية سمي ذلك القدر من الآية تذيلاً وما كان يشبه المثل لأنه وجيز قيل عنه أنه يجري مجرى المثل.

الاحتراسُ

ومن أقسام الإطناب الاحتراس، وهو التحفظ سي بذلك؛ لأن فيه التوقى والاحتراز عن توهם خلاف المقصود، ويسمى التكميل؛ لأن فيه تحفظ الكلام عن نقصان الإبهام فناسب التسمية بالتكمل. ^١

حدُّ الاحتراسِ:

الاحتراسُ لغةً: الاحتراز والتحفظ.

قال ابن سيده: احترس منه: احترز. ^٢

واصطلاحاً: الاحتراسُ: هو أن يكون الكلام محتملاً لشيء بعيد فيؤتى بما يدفع ذلك الاحتمال. ^٣

أمثلةُ الاحتراسِ:

قول الله تعالى: ﴿اسْأْلُكُ يَدَكَ فِي جَيْلِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾. ^٤

احترس سبحانة بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ عن أن يكون ذلك بسبب برص أو مرض.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحْبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَدِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. ^٥

احترس سبحانة بقوله: ﴿أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ عن أن يكون ذلك لضعفهم؛ فإنَّه لو اقتصر على وصفهم بالذلة لتوهم أنَّ ذلك سببه الضعف، فلما ذكر عزتهم على الكافرين علم أنَّها منهم تواضع وعطف.

١ - الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم (٢/٩٢)، وانظر حاشية الدسوقي على مختصر المعاني (٢/٧١٢)

٢ - المحكم والمحيط الأعظم (٣/١٨٢)

٣ - البرهان في علوم القرآن (٣/٦٤)

٤ - سورة التمل: الآية/١٢

٥ - سورة المائدة: الآية/٤

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ يَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطْئُوهُمْ فَتُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^{١.}

احترس سبحانه بقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. عن أن يكون ذلك عن قصدٍ منهم وبيانُ أَحَمُّ لا يقصدُونَ ضرَرَ مُسِّلِمٍ.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرَتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرَتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^{٢.}

احترس سبحانه بقوله: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾، قطعاً لتوهم اختصاص ملكه بالبلدة المشار إليها، بل له كُلُّ شَيْءٍ، وتنبيها على أن الإضافة إنما قَصَدَ بها التشريف لهذِهِ البلدة.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^{٣.}

لَمَّا قَالَ سَبَحَانُهُ حَكَايَةً عَنْ مُوسَى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَبَنَاهُ نَحْيَا﴾. [مريم: ٥٢]، فلما نفى سبحانه عن رسوله أن يكون بالمكان الذي قضى موسى فيه الأمر عرف المكان بالغربي ولم يقل في هذا الموضع الأيمن كما قال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ فاحترس سبحانه بقوله: ﴿بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ أن ينفي عنه كونه بالجانب الأيمن أو يسلب عنه لفظاً مشتقاً من الأيمَنِ، تعليماً للآمِنةِ الأدب في الخطاب مع النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.^{٤.}
ذكر سبحانه الكلام في الكهولة مع أنه لا إعجاز فيه؛ احتراساً من أن يُظنَّ أنه لا يعيش ولا يتَمَادِي به العُمُرُ إلى الكهولة فقال: ﴿فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ لذلك.

١ - سورة الفتح: الآية / ٢٥

٢ - سورة التمل: الآية / ٩١

٣ - سورة القصص: الآية / ٤٤

٤ - سورة آل عمران: الآية / ٤٦

قلنا: إنَّ الاحتراسَ: هُوَ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ مُحْتَمِلًا لِشَيْءٍ بَعِيدٍ فَيُؤْتَى بِمَا يَدْفَعُ ذَلِكَ الإِحْتِمَالَ.

يعني قد يفهم بعض الناس من الكلام أمراً بعيداً غير مراد لو لا ذكر جملة في الآية تنبه على المقصود وتوضح المراد، يحترس بها عن المعنى البعيد أنه غير مراد ولا هو مقصود من الكلام.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بِيَضَاءٍ مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾.^١

قد يقول قائل أصيّرت يده بمرض مثل البرص أو البهاق، فدفع الله تعالى هذا التوهّم الذي يمكن أن يقع لبعض الناس بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾، فجملة: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ تبيّن أن تلك معجزة من الله وليس مريضاً أو عيناً في اليد.

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَعْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمَلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمْنَكُمْ سُلَيْمَانٌ وَجُنُودُهُ﴾.^٢

ربما يتوهّم بعض الناس من الكلام أن سليمان وجنوده فعلوا هذا قاصدين تحطيم النمل وتدمير بيوقهم، لقوة جيش سليمان واستهانتهم ببعض المخلوقات، فدفع هذا التوهّم بقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، لبيان أن سليمان عليه السلام من عدله وفضله وفضل جنوده لا يحطمون نملةً فما فوقها ولا يظلمون أحداً مع قوتهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُجْهُمُ وَيُجْبُونَهُ أَذْلَلَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْزَزَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.^٣

ربما يتوهّم بعض الناس من الكلام أن وصف هؤلاء الذين يحبهم الله أنهم ﴿أَذْلَلَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أن هذا الذل للمؤمنين سببه أنهم ضعفاء، فدفع الله تعالى هذا التوهّم بقوله: ﴿أَعْزَزَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فهم ليسوا ضعفاء بل أقوىاء بدليل أنهم ﴿أَعْزَزَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أما مع المؤمنين فهم رحماء متواضعون رفقاء متعاطفون.

١ - سورة النمل: الآية / ١٢

٢ - سورة النمل: الآية / ١٨

٣ - سورة المائدة: الآية / ٥٤

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا اتَّبَعَاهُ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَّةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ هُمُ الْعَفَّافُونَ﴾.^١

ربما يتوهם بعض الناس من قوله: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾. أنهم صبروا لغرض دنيوي مثل المنصب أو الجاه أو المال أو حسن الثناء عند الناس فدفع الله تعالى هذا التوهם بقوله: ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾. ليبين أن صبرهم كان لله وابتغاهم وجهه لا لشيء آخر.

ومنه قوله تعالى: ﴿لَنْ يَضْرُوكُمْ إِلَّا أَذَىٰ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمُ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾.^٢

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾. احتراس من أن تكون التولية تولية منهزمين لا تولية متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَلَالُهُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾.^٣

فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾. احتراس عن زوجة الدعي، فإنه ليس من الصلب، فأما الابن من الرضاعة، فمنزلة ابن الصلب شرعاً، بقوله عليه السلام في الصحيحين:

«حَرَّمُوا مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يَكْرُمُ مِنَ النَّسَبِ».^٤

١ - سورة الرعد: الآية / ٢٢

٢ - سورة آل عمران: الآية / ١١١

٣ - سورة النساء: الآية / ٢٣

٤ - انظر تفسير ابن كثير، والحديث رواه البخاري - كتاب الأدب، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم تربت يمينك وعقري حلقي، حديث رقم: ٦١٥٦، ومسلم - كتاب الرضاع، باب تحريم الرضاعة من ماء الفحل، حديث رقم:

٥ - عن عائشة رضي الله عنها.

الاعتراضُ

ومن أقسام الإطناب الاعتراضُ، من أساليب القرآن البلاغية وهو ما يسميه النحاة بالجملة المعترضة، ووقعه في الكلام جليل، وأثره في النظم بديع.

حدُّ الاعتراضِ:

الاعتراضُ لغةً: الانتصارُ والمنعُ.

قال الخليل: اعترض الشيء، أي: صار عارضاً كالمشبة المعترضة في النهر. واعتراض عرضي، إذا وقع فيه.^١

واصطلاحاً: أن يؤتى في أثناء الجملة بكلام فاصلٍ، يتم الغرضُ الأصليُّ بدونه ولا يفوته بفواته لنكتةٍ.

قال الزركشي: هو أن يؤتى في أثناء كلام أو كلامين متصلين معنى بشيء يتم الغرض الأصلي بدونه ولا يفوته بفواته فيكون فاصلاً بين الكلام والكلامين لنكتة.

وقيل: هو إرادة وصف شيئاً منهما قصداً والثاني بطريق الانحراف وله تعليق بالأول بضرب من التأكيد.

وعند النحاة جملة صغرى تتخلل جملة كبيرة على جهة التأكيد.^٢

أسبابُ الاعتراضِ:

للاعتراضِ أسبابٌ منها:

١ - التقريرُ:

ومثاله قول الله تعالى: ﴿قَالُوا تَالَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾.^٣

١ - العين (٢٧٣ / ١)

٢ - البرهان في علوم القرآن (٥٦ / ٣)

٣ - سورة يوسف: الآية / ٧٣

فجملة: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾، اعتراضٌ بين قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَالَّهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿مَا جَنَّا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾، والمرادُ بهذا الاعتراض تقوير إثبات البراءة من حكمة السرقة.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَّلَكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسَلٌ إِلَيْهِمْ بِحَدِيثٍ فَنَاظِرٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾.

فجملة: ﴿وَكَذَّلَكَ يَفْعَلُونَ﴾، اعتراضٌ بين قوله: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾، وقولها: ﴿وَإِنِّي مُرْسَلٌ إِلَيْهِمْ بِحَدِيثٍ فَنَاظِرٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾.

والمرادُ بهذا الاعتراض: تقوير إثبات أن الملوك إذا دخلوا قرية من القرى خربوا مبانيها، وغيروا معاناتها، وأتلفوا أموالها، وفرقوا شمل أهلها وأهانوا أشرافها، وحطوا مراتبهم، فصاروا عند ذلك أذلة وإنما يفعلون ذلك لأجل أن يتم لهم الملك، وتستحكم لهم الوطأة وتتقرر لهم في قلوبهم المهابة.^٢

٢ - التَّنْزِيهُ:

ومثاله قول الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾.^٣

فجملة: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، اعتراضٌ بين قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾، والغرض منه التنزيه والتَّعظيم لله تعالى، وفيه الشَّناعة على من جعل البنات لله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾.^٤

فجملة: ﴿تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾، اعتراضٌ بين قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾، والغرض منه التنزيه والتَّعظيم لله تعالى، وفيه التشنيع على من زعم أن الله تعالى اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَدًا.

١ - سورة التمل: الآية / ٣٥ ، ٣٤

٢ - فتح القدير للشوكاني (٤ / ١٥٩)

٣ - سورة التحل: الآية / ٥٧

٤ - سورة الجن: الآية / ٣

٣ - التَّبَرُّكُ:

ومثاله قول الله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِين﴾^١. فجملة: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، اعتراضٌ بين قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾، قوله تعالى: ﴿آمِين﴾. وفائدة الاعتراض هنا التَّبَرُّكُ.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبُوهُيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِين﴾^٢.

فجملة: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، اعتراضٌ بين قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبُوهُيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ﴾، قوله تعالى: ﴿آمِين﴾. وفائدة الاعتراض هنا التَّبَرُّكُ.

٤ - التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ:

ومثاله قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارُأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^٣. فقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، جملة معتبرةٌ بين المعطوف، وهو قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾، والممعطوف عليه وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارُأْتُمْ فِيهَا﴾. والغرض منها التَّهْدِيدُ بهتك أستارهم، والوعيدُ بعقابهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^٤.

فقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، جملة معتبرةٌ، الغرض منها التَّهْدِيدُ والوعيدُ للمنافقين، فإن حالمهم لا يخفى على الله تعالى.

قال ابن عاشور: قوله: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، اعتراض للتذكير بأن المقصود التمثيل لحال المنافقين في كفرهم لا مجرد التفنن في التمثيل.^٥

١ - سورة الفتح: الآية / ٢٧

٢ - سورة يوسف: الآية / ٩٩

٣ - سورة البقرة: الآية / ٧٢

٤ - سورة البقرة: الآية / ١٩

٥ - التحرير والتنوير (٣١٩ / ١)

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَانْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ (٣٩) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفُهَا وَيُؤْتَ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا^١.

فِإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾. جملة معتبرضة بين قوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَانْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفُهَا وَيُؤْتَ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. وهي تهدية ووعيد لهؤلاء الكفار على كفرهم وسوء أعمالهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٣٧) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنْ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا^٢.

فِإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾. جملة معتبرضة بين قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ﴾. وهي تهدية ووعيد لهؤلاء الكفار على كفرهم وعلى ما يتصرفون به من البخل وكتمان فضل الله تعالى وما يتصرفون به من الرياء.

٥ - بَيَانٌ سَعَةٌ عِلْمٌ اللَّهِ تَعَالَى وَعَظِيمٌ قُدْرَتِهِ:

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِيهِ إِلَّا أُمُّمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾^٣.

فِإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾. جملة معتبرضة بين قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِيهِ إِلَّا أُمُّمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. والغاية منه بيان سعة علم الله تعالى وعظيم قدرته.

١ - سورة النساء: الآية/ ٤٠، ٣٩

٢ - سورة النساء: الآية/ ٣٨

٣ - سورة الأنعام: الآية/ ٣٨

وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرِسِّلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِيَلَدِ مَيِّتٍ فَأَنْزَلَنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.^١

فَإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾. جَمْلَةٌ مُعْتَرَضَةٌ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرِسِّلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِيَلَدِ مَيِّتٍ فَأَنْزَلَنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وَالْغَايَةُ مِنْهُ بَيَانٌ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

٦- تَمْجِيدُ اللَّهِ تَعَالَى:

وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبِّ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾.^٢

فَإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. جَمْلَةٌ مُعْتَرَضَةٌ بَيْنَ الْمُبْتَدَأِ وَهُوَ لَفْظُ الْجَلَالَةِ: ﴿اللَّهُ﴾، وَخَرِيرُهُ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبِّ فِيهِ﴾. وَالْغَايَةُ مِنْ تَمْجِيدِ اللَّهِ تَعَالَى.

٧- الْمَدْحُ وَالثَّنَاءُ:

وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفَهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.^٣

قَالَ ابْنُ عَاشُورَ: فَقَوْلُهُ: وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ إِلَى آخِرِهِ اعْتَرَاضٌ بَيْنَ جَمْلَةِ اصْطَفَيْنَا وَبَيْنَ الظَّرْفِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾.^٤

١ - سورة الأعراف: الآية / ٥٧

٢ - سورة النساء: الآية / ٨٧

٣ - سورة البقرة: الآية / ١٣١ ، ١٣٠

٤ - التحرير والتنوير (١/ ٧٢٦)

- ٨ - التأكيدُ:

مثاله قول الله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسْمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾^١.

هذه الآية فيها اعتراضان، الأول قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسْمٌ﴾، اعتراض بين: القسم وهو قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْاقِعِ النُّجُومِ﴾، وجوابه وهو قوله تعالى: ﴿عَظِيمٌ﴾.

والاعتراض الثاني: قول الله تعالى: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ بين: الصفة وهي قول الله تعالى: ﴿عَظِيمٌ﴾، والموصوف وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسْمٌ﴾.

والمراود من الاعتراض تعظيم شأن ما أقسام الله تعالى به من مواقع النجوم، وتأكيد إجلاله في النفوس لا سيما بقوله: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ (٣٠) أولئك لهم جنات عدن يجري من تحتهم الأنهر.....^٢.

فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾، اعتراض بين إن واسمها وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وخبرها وهو قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ.....﴾.

قال ابن عطيه: ونحو هذا من الاعتراض قول الشاعر:

إِنَّ الْخَلِيقَةَ إِنَّ اللَّهَ أَلْبَسَهُ * سِرْبَالَ مُلْكٍ بِهِ ثُرْجَى الْحَوَاتِمُ^٣

وفائدة الاعتراض: تأكيد المعنى، والتذكير بأفضال الله، والتنبيه على حسن جزائه.

ومنه قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحُقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَّهُمْ﴾^٤.

١ - سورة الواقعة: الآية / ٧٥ - ٨٠

٢ - سورة الكهف: الآية / ٣٠ ، ٣١

٣ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥١٤ / ٣)

٤ - سورة محمد: الآية / ٢

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْحُقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ جملة معترضة بين المبتدأ، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، وَبَيْنَ حَبَرِهِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

وفائدة الاعتراض: تأكيد حقيقة هذا المنزَل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتقدير كماله وصدقه؛ لكونه ناسحاً لا ينسخ.

٩- تَخْصِيصُ أَحَدِ الْمَذْكُورِينَ بِزِيادةِ التَّأْكِيدِ:

مثاله قول الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا إِلَيْنَا إِنْسَانًا بِوَالِدِيهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهُنَّا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالٍ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.^١

فجملة: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهُنَّا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالٍ فِي عَامَيْنِ﴾، اعتراض بين قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا إِلَيْنَا إِنْسَانًا بِوَالِدِيهِ﴾، وَبَيْنَ الْمُوَصَّى بِهِ وَهُوَ قوله تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

وفائدة الاعتراض تذكيرُ الولد بما كابده أمه من المشقة في حمله وفصالة ذكر الحمل والفالصال يفيد زيادة التوصية بالأم لتحملها من المشاق والمتاعب في حمل الولد ما لا يتكلفه الوالد.^٢

١٠- زِيادةُ الرَّدِّ عَلَى الْخَصْمِ:

مثاله قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارُتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَعَلَّمَنَا اصْرِبُوهُ بِعَضِهَا كَذَلِكَ يُنْهِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُبَيِّنُكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.^٣

فجملة: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، فيها اعتراض بين المعطوف وهو قوله تعالى: ﴿فَعَلَّمَنَا اصْرِبُوهُ بِعَضِهَا﴾، والمعطوف عليه وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارُتُمْ فِيهَا﴾.

١ - سورة لقمان: الآية / ١٤

٢ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٥٨)

٣ - سورة البقرة: الآية / ٧٢، ٧٣

وفائدته أن يقرر في أنفس المخاطبين أن تدارؤ بني إسرائيل في قتل تلك الأنفس لم يكن نافعا لهم في إخفائه وكتمانه لأن الله تعالى مظهر لذلك ومحرجه ولو جاء الكلام حاليا من هذا الاعتراض لكان تقديره: (وإذ قتلت نفسا فادارتم فيها فقلنا اضربوه بعضها....).^١

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيهِمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.^٢

فجملة: ﴿تِلْكَ أَمَانِيهِمْ﴾، اعتراضٌ بين قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وفائدة الاعتراض هنا: تفنيد دعواهم والرد على افترائهم على الله تعالى بادعائهم ما ليس لهم، وتقولهم على الله تعالى.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةً وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّا أَنْتَ مُفْتَرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١]؛ فجملة: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ اعتراضٌ بين إذا الشرطية و فعل الشرط من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةً﴾، وجوابها في قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا أَنْتَ مُفْتَرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وفائدة الاعتراض: الجواب عن دعواهم وافتائهم على النبي صلى الله عليه وسلم أنه مفتَر بسبب نسخ بعض الآيات، فالله أعلم بما ينزل، وهو أعلم بما هو أصلح لخلقه فيما يغير ويبدل من أحكامه.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩]، فجملة: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾، اعتراضٌ بين اسم ما وهو قوله تعالى: ﴿أَنْتَ﴾، وبحبرها وهو قوله تعالى: ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾.

وفائدة الاعتراض: الجواب عن دعواهم وافتائهم على النبي صلى الله عليه وسلم أنه كاهن أو مجانون، والله تعالى نفي الكهانة والجنون عنه ثم إنه تعالى قرن بهذه الدعوى ما يكون

١ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٥٩)

٢ - سورة البقرة: الآية / ١١١

كالدلالة القاطعة على صحتها وذلك لأن قوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ يدل على أن نعم الله تعالى كانت ظاهرة في حقه من الفصاحة التامة والعقل الكامل والسيرة المرضية، والبراءة من كل عيب، والاتصال بكل مكرمة وإذا كانت هذه النعم محسوسة ظاهرة فوجودها ينافي حصول الجنون، فالله تعالى نبه على هذه الدقيقة لتكون جارية مجرى الدلالة اليقينية على كونهم كاذبين في قولهم له: إنه مجنون.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ إِمْجُنُونٌ﴾.^٢

فجملة: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾، اعتراف بين اسم ما وهو قوله تعالى: ﴿أَنْتَ﴾، وخبرها وهو قوله تعالى: ﴿إِمْجُنُونٌ﴾، والمعنى: انتفي عنك الجنون بنعمة ربك كما يقال: أنت بحمد الله عاقل، وأنت بحمد الله لست بمجنون، وأنت بنعمة الله فهم، وأنت بنعمة الله لست بفقرير، ومعناه أن تلك الصفة المحمودة إنما حصلت، والصفة المذمومة إنما زالت بواسطة إنعام الله ولطفه وإكرامه، وقال عطاء وابن عباس: يزيد بنعمة ربك عليك بالإيمان والنبوة.^٣

وفائدة الاعتراف: الجواب عن دعوى كفار مكة وافتراضهم على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عداوة وحسداً، أنه مجنون.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا يُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

فجملة: ﴿لَا يُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾، معتبرة بين الشرط وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، والجزاء وهو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾، كقولك: من أحسن إلى زيد لا أحق منه بالإحسان، فالله مُثبته.

وفائدة الاعتراف: الجواب عن دعوى من يدع مع الله إلها آخر، وأن من يكون هذا حاله فإنما حسابه عند ربه ومن كان هذا حاله فهو كافر ولا يُفْلِحُ الكافرون.

١ - تفسير الرازي (٦٠٠ / ٣٠)

٢ - سورة القلم: الآية / ٢

٣ - تفسير الرازي (٦٠٠ / ٣٠)

٤ - سورة المؤمنون: الآية / ١١٧

ومنه قوله تعالى: ﴿فُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ حَالِصَةً مِنْ ذُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبْدًا إِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) ولتجد هم أحقر الناس على حياة ومن الذين أشركوا يوؤد أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمخرجه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون (٩٦) قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَبْلِكَ^١.

وجملة: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبْدًا...﴾، إلى آخره معتبرضة بين جملة: ﴿فُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ.....﴾، وبين جملة: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًا لِجِبْرِيلَ...﴾^٢.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَنْتَلُ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرُ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَإِلَ هَارُوتَ وَمَأْرُوتَ وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكُفُّرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُعَرِّفُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءَ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ حَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^٣.

وقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ.....﴾، جملة معتبرضة بين جملة ﴿وَاتَّبَعُوا﴾، وبين قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ وقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، جملة معتبرضة.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيْهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا حُوقٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْرُثُونَ﴾^٤.

فإنَّ قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيْهُمْ﴾. جملة معتبرضة بين قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

١ - سورة البقرة: الآية / ٩٤ ، ٩٥

٢ - سورة البقرة: الآية / ٩٧

٣ - سورة البقرة: الآية / ١٠٢

٤ - سورة البقرة: الآية / ١١٢

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا إِيَّاكَ نَّعْمَلُ مَعَهُمْ فَأَفْوَزُ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^١.

فإِنْ قوله تعالى: ﴿كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ جملة معتبرة بين قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَا إِيَّاكَ نَّعْمَلُ مَعَهُمْ فَأَفْوَزُ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُسْأَوْنَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تَظَهَرُونَ﴾ [الروم: ١٧]؛ فجملة: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، كلام معتبر بين المعطوف والمعطوف عليه.

وفائدة الاعتراض: أن الله تعالى لما أمر العباد بالتسبيح كأنه بين لهم أن تسبيحهم الله لنفعهم لا لنفع يعود على الله فعليهم أن يحمدوا الله إذا سبحوه.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعْتُهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذِّكْرُ كَالْأُنْثَى وَلَيْسَ سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَلَيْسَ أَعِيذُهَا بِكَ وَدُرِّيَّتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^٣.

فجملة: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذِّكْرُ كَالْأُنْثَى﴾، كلام معتبر بين قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا﴾. وقولها: ﴿وَلَيْسَ سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَلَيْسَ أَعِيذُهَا بِكَ وَدُرِّيَّتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. فيكون هذا من كلام الله تعالى كلامًا معتبرًا بين كلامها.

وقرآً ابن عاصِم، وشعبة، ويعقوب: بضم الثناء، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ فجملة: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾، كلام معتبر بين قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا﴾. وقولها: ﴿وَلَيْسَ الذِّكْرُ كَالْأُنْثَى وَلَيْسَ سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَلَيْسَ أَعِيذُهَا بِكَ وَدُرِّيَّتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

فالكلام كله من كلام أم مريم، وكأنها تخاطب نفسها بقولها.

وفائدة الاعتراض: تسلية النفس عن الذكر، والتسلیم لأمر الله تعالى.

١ - سورة النساء: الآية / ٧٣

٢ - تفسير الرازي (٨٨ / ٢٥)

٣ - سورة آل عمران: الآية / ٣٦

قال أبو حيان: وأن علم الله وسابق قدرته وحكمته يحمل ذلك على عدم التحسن والتحذر على ما فاتني من المقصود، إذ مراده ينبغي أن يكون المراد، وليس الذكر الذي طلبه ورجوته مثل الأئمَّةِ التي علمها وأرادها وقضى بها. ولعل هذه الأئمَّةِ تكون خيراً من الذكر.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿الطلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ يُعْرُوفٌ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا إِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمُ أَلَا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَيَّ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ...﴾^٢.

جملة: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾، معترضة بين جملة: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا إِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾، وما اتصل بها، وبين الجملة المفرعة عليها وهي: ﴿فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ﴾ الآية. ومناسبة الاعتراض ما جرى في الكلام الذي قبلها من منعأخذ العوض عن الطلاق، إلا في حالة الخوف من ألا يقيما حدود الله، وكانت حدود الله مبينة في الكتاب والسنة، فجيء بهذه الجملة المعترضة تبيينا لأن منعأخذ العوض على الطلاق هو من حدود الله.^٣

١ - انظر البحر المحيط في التفسير (١١٧/٣)

٢ - سورة البقرة: الآية/ ٢٣٠، ٢٢٩

٣ - التحرير والتنوير (٤١٣/٢)

وضع الظاهر موضع المضمر

وضع الظاهر موضع المضمر، من بديع البلاغة، وعجيب النظم، ومن الحسنيات البدعية، يضفي على الكلام رونقاً وجمالاً.

من ذلك قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ إِمَّا كَانُوا يَفْسُدُونَ﴾^١.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (فأنزلنا عليهم)، وفائدةه: بيان أن سبب إنزال الرجز عليهم من السماء إنما هو ظلمهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^٢.

قوله تعالى: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (فلعنة الله عليهم)، وفائدةه: بيان أن الكفر سبب اللعنة.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾^٣.

قوله تعالى: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾، وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (فتذكرةا الأخرى)، وفائدةه: أنه لا يستقيم في المعنى إلا كذلك، ألا ترى أنه إذا قال: أن تضل إحداهما فتذكرةا الأخرى، وجب أن يكون ضمير المفعول عائداً على الضالة متبعاً لها كما إذا قلت: جاءنى رجلاً وضربته، يتبعين أن يكون الجائى هو المضروب وذلك محل بالمعنى المقصود، لأنها قد تكون الضالة الآن في الشهادة وهي الذاكرة فيها في زمان آخر، فالمذكورة هي الضالة فإذا قيل: فتذكرةا الأخرى لم يفده ذلك لتعيين عود الضمير إلى الضالة، وإذا قيل: فتذكِّر إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى كان مبهما في كل واحدة منهما، فلو ضلت إحداهما الآن وذكرتها الأخرى، فذكرت كان داخلاً ثم لو انعكس الأمر والشهادة بعينها في وقت آخر اندمج أيضاً تحته لوقوع قوله: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾، غير معين، ولو قيل: فتذكرةا الأخرى، لم يستقم أن يكون

١ - سورة البقرة: الآية / ٥٩

٢ - سورة البقرة: الآية / ٨٩

٣ - سورة البقرة: الآية / ٢٨٢

من درجا تحته إلا التقدير الأول، فعلم أن العلة هي التذكير من إحداها الأخرى كيما قدر، وإن اختلف وهذا المعنى لا يفيده إلا ما ذكرناه، فوجب لذلك أن يقال: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَا لِكَ الْمُلْكُ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِنْ تَشَاءُ﴾.^٢
قوله تعالى: ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (وتنزعه)، وفائدة: أن النزع يقتضي سبقية الإتياء للشخص المنزوع منه.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾.^٤

قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (رأيهم)، وفائدة: تأكيد أتصافهم بالنفاق، وبيان أنه العلة في صدهم عن سبيل الله.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.^٥

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (فإنهم هم الغالبون)، وفائدة: تشريف من هذا شأنه، وبيان أن من يوالى أعداء الله فليس من حزب الله الذين رفع الله شأنهم وكتب لهم الغلبة في الدنيا، والنعيم المقيم يوم القيمة.

قال البيضاوي: وضع الظاهر موضع المضمر تبيهًا على البرهان عليه فكانه قيل: ومن يتول هؤلاء فهم حزب الله وحزبه هم الغالبون وتنويعًا بذكرهم وتعظيمًا لشأنهم وتشريفاً لهم بهذا الاسم، وتعرضاً لمن يوالى غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان.^٦

١ - عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (٢١٥ / ١)

٢ - سورة آل عمران: الآية / ٢٦

٣ - التقىيد الكبير للبسيلي (ص: ٤٩٠)

٤ - سورة النساء: الآية / ٦١

٥ - سورة المائدة: الآية / ٥٦

٦ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١٣٢ / ٢)

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا هَلَّ أَنْتُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾^١.

قوله تعالى: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾، من وضع الظاهر موضع المضرر، وأصله: (هم أنتم)، كأنه قيل: قل هل أنتكم بشر من ذلك عند الله مثوبة؟ أنتم، أي: هم أنتم.^٢

وفائدته: التنبية على العلة التي من أجلها استحقوا أن يكونوا شر الناس مثوبة عند الله وهي الطرد من رحمة الله تعالى.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ إِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَهْمَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾^٣.

قوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾، وضع الظاهر موضع المضرر، وأصله: (وذلك جزاؤهم)، وفادته: أنهم أثيروا هذا الثواب العظيم لاتصافهم بالإحسان وهو ذروة الدين.

ومنه قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾^٤.

قوله تعالى: ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضرر، وأصله: (به يعدلون)، وفادته: ذمهم والتشنيع بهم لكونهم يعدلون بربهم الذي أوجدهم من العدم، وهو ولهم نعمتهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسْتُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾^٥.

قوله تعالى: ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضرر، وأصله: (لقالوا)، وفادته: تسجيل وصف الكفر عليهم، وأنه السبب في عدم التسليم عند رؤية الآيات.

١ - سورة المائدة: الآية/ ٦٠

٢ - الدر المصنون في علوم الكتاب المكنون (٤ / ٣٢٧)

٣ - سورة المائدة: الآية/ ٨٥

٤ - سورة الأنعام: الآية/ ١

٥ - سورة الأنعام: الآية/ ٧

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرِدُّ بِأُسْنَهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.^١

قوله تعالى: ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (ولا يرد بأسه عنكم)، وفائدة: التنبية على العلة التي من أجلها تعرضوا لباس الله تعالى.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهُدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَبَعَّ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.^٢

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَعَّ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (ولا تتبع أهواهم)، وفائدة: بيان الموجب للنهي عن اتباع أهواهم وهو تكذيبهم بآيات الله تعالى.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.^٣

قوله تعالى: ﴿أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (إنما لا نضيع أجرهم)، وفائدة: أن وصفهم بالمصلحين هو سبب نجاحهم وفلاحهم عند ربهم، وأن الإصلاح كان هو المانع من تضييع الكتاب.

ومنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ فَدُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾.^٤

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (ولكم عذاب النار)، وفائدة: الشهادة عليهم بالكفر، وبيان العلة التي استوجبوا بها عذاب النار.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكُثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفَّارِ﴾.^٥

١ - سورة الأنعام: الآية / ١٤٧

٢ - سورة الأنعام: الآية / ١٥٠

٣ - سورة الأعراف: الآية / ١٧٠

٤ - سورة الأنفال: الآية / ١٤

٥ - سورة التوبة: الآية / ١٢

قوله تعالى: ﴿فَقَاتَلُوا أَئِمَّةَ الْكُفَّارِ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (قاتلوهم)، وفائدته: بيان العلة التي من أجلها نكثوا أيمانهم وطعنوا في الدين، فأوجبوا قتالهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرُوهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.^١

قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (وكلمة هي العليا)، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وأصله: (وهو عزيز حكيم)، وفائدته: ما في التصريح بلفظ الجلالة من المهابة والإجلال والتعظيم.

ومنه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.^٢

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾، وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (كيف كان عاقبتهم)، وفائدته: بيان الوصف الذي من أجله ساءت عاقبتهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾.^٣

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (وقالوا إن تتبعون...)، وفائدته: بيان سبب وصفهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه مسحور، وهو مجاوزتهم الحد، وطغيانهم وبغيهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لَا يُشْرِى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾.^٤

قوله تعالى: ﴿لَا يُشْرِى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (لا يشرى يومئذ لهم)، وفائدته: تسجيل وصف الإجرام عليهم؛ وأن العلة التي حرموا من أجلها البشري عندر رؤية الملائكة.

١ - سورة التوبه: الآية / ٤٠

٢ - سورة يونس: الآية / ٣٩

٣ - سورة الفرقان: الآية / ٨

٤ - سورة الفرقان: الآية / ٢٢

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُوحٌ لَمَّا كَذَّبُوا الرَّسُولَ أَعْرَفْتَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.^١

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (واعتدنا لهم)، وفائدته: تسجيل الظلم عليهم، وأنه سبب إغراقهم، وذمهم على اتصافهم به.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لِمُحِيطَةٍ بِالْكَافِرِينَ﴾.^٢

قوله تعالى: ﴿لِمُحِيطَةٍ بِالْكَافِرِينَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (لحيطة بهم)، وفائدته: بيان أن الكفر هو الموجب لإحاطة جهنم بهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾.^٣

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (وقالوا هذا ساحر كذاب)، وفائدته: وصفهم بالكفر لقولهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخْفِفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾.^٤

قوله تعالى: ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (لخزنتها)، وفائدته: التهويل والتخييف بذكر جهنم؛ فإن جهنم أفظع من النار، وذكرها أشد وقعًا على القلوب من ذكر النار.

ومنه قوله تعالى: ﴿لَخْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.^٥

١ - سورة الفرقان: الآية / ٣٧

٢ - سورة العنكبوت: الآية / ٥٤

٣ - سورة ص: الآية / ٤

٤ - سورة غافر: الآية / ٤٩

٥ - سورة غافر: الآية / ٥٧

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾، وضع للظاهر موضع المضمر، وأصله: (ولكنَّ أكثرهم)، وفائدته: بيان حال أكثر الناس وأنهم لا علم لهم.

قال الطيب: قال صاحب "الفرائد": وضع الظاهر موضع المضمر؛ للإيذان بأنهم لا يشكرون لكونهم ناساً؛ لأن الشر معجون في طينة الناس، وهو الغالب عليهم.^١

قلت: كان الأولى بصاحب الفرائد أن يقول: للإيذان بأنهم يغلب عليهم الجهل؛ لأن المقام مقام المقارنة بين خلق السماوات والأرض وخلق الناس، وليس مقام تعداد النعم.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمْ زُمِّرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُهَا فُتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ حَرَّتْهَا أَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتٍ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنَ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.^٢

قوله تعالى: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وضع للظاهر موضع المضمر، وأصله: (عليها)، وفائدته: أنهم صرحو بالوصف الموجب لعذابهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾.^٣

قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾، وضع للظاهر موضع المضمر، وأصله: (رحمة منا)، وفائدته: التصریح بأن من مقتضيات الربوبية الرحمة بالمربيين.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أُمَاثَلُهَا﴾.^٤

قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أُمَاثَلُهَا﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (ولهم أمثالها)، وفائدته: بيان أن سبب تدمير الأمم الغابرة، والموجب لتدمير من سلك سبيلهم وسار على نجدهم هو الكفر بالله تعالى.

١ - فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (٥٣٧ / ١٣)

٢ - سورة الزمر: الآية / ٧١

٣ - سورة الدخان: الآية / ٥، ٦

٤ - سورة محمد: الآية / ١٠

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ .^١

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (قالوا هذا شيء عجيب)، وفائدةه: قصد ذمهم بالكفر، كما تقول: جاءني فلان فقال الفاجر كذا، إذا قصدت ذمه.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِباقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ .^٣

قوله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾، وضع الظاهر موضع المضمر، قال ابن المنير: في قوله: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِباقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾، وأصله: ما ترى في خلقهن من تفاوت، ولكنه ذكرهن منسوبات لخلق الرحمن، تنبئها على السبب الذي رأى بهن على الفطور والتفاوت.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَيْنِ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ .^٥

قال ابن المنير: في قوله ﴿يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ﴾، وضع الظاهر موضع المضمر، وفائدةه: التنبية على أن الذي يرجع خاسئاً حسيراً غير مدرك الفطور: هو الآلة التي يلتمس بها إدراك ما هو كائن، فإذا لم يدرك شيء دل على أنه لا شيء.^٦

١ - سورة ق: الآية / ٢

٢ - التسهيل لعلوم التنزيل (٣٠٠ / ٢)

٣ - سورة الملك: الآية / ٣

٤ - الانتصار من الكشاف المطبوع بهامش الكشاف (٤ / ٥٧٦)

٥ - سورة الملك: الآية / ٤

٦ - الانتصار من الكشاف المطبوع بهامش الكشاف (٤ / ٥٧٦)

العامُ المرادُ بهُ الخصوصُ

قبل أن نتكلّم عن هذا الأسلوب من أساليب القرآنِ نبين معنى العام ومعنى الخاص حتى يتضح الكلام.

حدُّ العامَّ:

العامُ هو: اللُّفْظُ الدَّالُّ على مسَمَّياتٍ دلالةً لا تنحصرُ في عددٍ.

أَلْفَاظُ الْعُمُومِ:

- ١ المعرف باللام كالناس والمسلمين والشركين، والذين.
- ٢ ما أضيف من ذلك إلى معرفة، كعبيد زيد، ومال عمرو.
- ٣ أدوات الشرط، كمن: للعقل، وما: لغير العاقل، وأي وain للمكان، ومتى وأيان للزمان.
- ٤ كل وجميع.
- ٥ النكرة في سياق النفي.

حدُّ الخاصِّ:

الخاصُ هو: (قصرُ العام على بعض أفراده).

ومن أمثلة العام المراد به الخصوص قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ هُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَرَأَدُوهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسِبْنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ﴾^١.

فإن لفظ: ﴿النَّاسِ﴾ عام يقتضي دخول جميع الناس في اللّفظين جميعاً والمراد بعضهم؛ فإن المراد بالنّاس في اللّفظ الأول هو نعيم بن مسعودٍ وحده، والمراد بالنّاس في اللّفظ الثاني هو أبو سفيان بن حرب.

قال مجاهد ومقاتل وعكرمة والكلبي: نعيم بن مسعود الأشجعى.

١ - سورة آل عمران: الآية / ١٧٣

ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^١.

لفظ ﴿النَّاس﴾ عام يشمل الناس جميعاً والمراد بالنّاس في الآية محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبب ذكره صلى الله عليه وسلم بلفظ العموم هو جمعه صلى الله عليه وسلم ما في الناس من الخصال الحميدة.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمِمْ إِذَا هُمْ مَكْرُرِ في آيَاتِنَا﴾^٢.

لفظ ﴿النَّاس﴾، هنا عام يراد به الخصوص، وهم المشركون المكذبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم. يخبر الله تعالى عن حال المشركين أنه إذا أذاقهم رحمة من بعد ضراء مستهم، كاليسير بعد العسر، والأمن بعد الخوف، والرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجدب، قابلوا آيات الله تعالى بالتكذيب، والطعن فيها، والاحتيال في دفعها، وما ذاك إلا لأنهم ألغوا الدعوة، واعتادوا النعمة، فدعواهم ذلك إلى البطر، ونسوا ما كانوا فيه من الضر، وما كانوا عليه من الشدة.

ومنه قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾^٣.

فإن لفظ: ﴿الْمَلَائِكَة﴾ عام يشمل جميع الملائكة، والمراد بذلك جبريل عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾^٤.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمْ مُنْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾^٥.

فإن لفظ: ﴿النَّاس﴾ في الآية عام يشمل الناس جميعاً والمراد بالنّاس المهاجرُونَ وألَّا نصارٌ.

١ - سورة النساء: الآية / ٤

٢ - سورة يونس: الآية / ٢١

٣ - سورة التحل: الآية / ٢

٤ - سورة الشعرا: الآية / ١٩٣، ١٩٢

٥ - سورة البقرة: الآية / ١٣

قال ابن عباسٌ: نزلت في شأن اليهود، أي: وإذا قيل لهم يعني اليهود آمنوا كما آمن الناس عبد الله بن سلام وأصحابه قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾، يعني الجهل والخرقاء.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادَوْنَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجْرَاتِ﴾.^٢

فإن لفظ: ﴿الَّذِينَ﴾، في الآية عام، وإنما الذي ناداه الأقرع بن حابس.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.^٣

لفظ: ﴿النَّاس﴾ في الآية عام يشمل النَّاسَ جمِيعاً ولا شك أنه خطاب للمكلفين، فلم يدخل في الخطاب الأطفال والجانين، فالآية من العام المراد به الخصوص.

ومنه قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ حَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالَّدَيْنِ وَالْأَقْرَبَيْنَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِيْنَ﴾.

فلفظ: ﴿الْوَالِدَيْن﴾ ولفظ: ﴿الْأَقْرَبَيْن﴾، ظاهره العموم ومعناه الخصوص في الوالدين اللذين لا يرثان كالكافرين والعبدان، وفي القرابة غير الوراثة، وذلك لأن الوالدين اللذين يرثان ثبت ميراثهما بدليل مستقل؛ قال تعالى: ﴿وَلَا بَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَةُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾.^٤

قال ابن المنذر: أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الوصية للوالدين اللذين لا يرثان المرء وللأقرباء الذين لا يرثون جائزة.^٥

١ - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١١ / ١٩)

٢ - سورة الحجرات: الآية / ٤

٣ - سورة البقرة: الآية / ٢١

٤ - سورة البقرة: الآية / ١٨٠

٥ - سورة النساء: الآية / ١١

٦ - الإشراف لابن المنذر (٤٠٣ / ٤)

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنََ وَلَآمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ حَيْثُ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبْتُكُمْ﴾^١.

فلفظ: ﴿الْمُشْرِكَاتِ﴾ عام يشمل كل كافرة، وهذا العام مخصوص بالكتابيات، فلا يجوز للمسلم أن يتزوج كافرة من غير الكتابيات، كالهندوسية أو البوذية أو الملحدة، وهذا الحكم خاص بالرجال فلا يجوز للمسلمة أن تتزوج كافراً سواء كان كتابياً أو غير كتابي ولا يجوز لها أن تتزوج إلا من مسلم.

ودليل أن هذا العموم في الآية يراد به الخصوص قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَحِلَّ لَكُمُ الطَّيَّابَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْسَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْسَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْسِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَحْدَانٍ﴾^٢.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَّلَّقَاتُ يَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةٌ فُرُوعٌ﴾^٣.
فإن لفظ: ﴿الْمُطَّلَّقَاتُ﴾ عام في كل مطلقة، والمراد به المدخول بهن، وخرجت المطلقة قبل الدخول بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكْحُنُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْنَاهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوْهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَيِّلًا﴾^٤.

وخرجت المطلقة الحامل بقوله تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَهْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَلْمَهُنَّ﴾^٥.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزِّيزٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾^٦.

١ - سورة البقرة: الآية/ ٢٢١

٢ - سورة المائدة: الآية/ ٥

٣ - سورة البقرة: الآية/ ٢٢٨

٤ - سورة الأحزاب: الآية/ ٤٩

٥ - سورة الطلاق: الآية/ ٤

٦ - سورة التوبة: الآية/ ٣٠

فإن لفظ: ﴿الْيَهُودُ﴾ عام والمراد به الخصوص؛ لأنَّه ليس كل اليهود يقولون عزيز ابن الله. وكذلك لفظ: ﴿النَّصَارَى﴾، عام والمراد به الخصوص؛ لأنَّه ليس كل النصارى يقولون المسيح ابن الله.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقْرَرَهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلُّهُ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.^١

فقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾، نكرة في سياق النفي يفيد العموم، والمراد به الخصوص بالدواب التي قدر الله تعالى لها رزقاً؛ لأنَّ كثيراً من الدواب تموت قبل أن ترزق.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ...﴾.^٢

فقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾، عام والمراد به الخصوص؛ لأنَّه ليس كل أهل الكتاب يفرحون بما أُنزِلَ إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما يفرح بالقرآن بعض من أُوتِي الكتاب، من آمن كعبد الله بن سلام وسلمان وغيرهما.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظُلُومٌ كُفَّارٌ﴾.^٣

لفظ الإنسان اسم جنس وهو عام والمراد به الخصوص، لأنَّه لا يتصرف كل إنسان بعينه بأنه ظُلُومٌ كُفَّارٌ، فمن جنس الإنسان الرسل والأنباء والصديقين والصالحين.

ومنه قوله تعالى: ﴿تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾.^٤

لقطُّ ﴿كُلَّ﴾ من أقوى صيغ العموم، وهو عام والمراد به الخصوص، ولم تدمِر السَّمَاوَاتِ والأرضَ، والمراد تدمير كل شيء مرت عليه من رجال عاد وأموالها أو كل شيء بعثت إليه، أو تدمير كل شيء من شأنه التدمير.

١ - سورة هود: الآية / ٦

٢ - سورة الرعد: الآية / ٣٦

٣ - سورة إبراهيم: الآية / ٣٤

٤ - سورة الأحقاف: الآية / ٢٥

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذَكَرُوا بِهِ فَتَخَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾^١.
 فقوله تعالى: ﴿فَتَخَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، عامٌ والمراد به الخصوص؛ لأنَّهم لم تفتح عليهم أبواب الرحمة.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾^٢.
 قوله تعالى: ﴿إِيمَانَكُمْ﴾، الإيمان يشتمل على أركان وشعب وخاص، وهو قول باللسان واعتقاد بالجناح والأركان، والصلة من الأيمان، وهذه الآية نزلت فيمن مات وهو يصلِّي إلى بيت المقدس قبل أن تحول القبلة إلى المسجد الحرام؛ فعن البراء قال: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَأَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يُوَجِّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: قَدْ نَرَى تَقْلُبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّنَّكَ قِيلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]، فَوَجَّهَ نَحْوَ الْكَعْبَةِ».^٣

قال القرطي: اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات وهو يصلِّي إلى بيت المقدس.^٤

فيكون هذا من العام الذي يراد به الخصوص.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا حَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^٥.
 قوله: ﴿الْجِنَّ وَالإِنْسَ﴾ عامٌ والمراد به الخصوص؛ لأنَّ المجنين والصبيان ما أمرُوا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة، وهذا خاصٌ فيمن سبق في علم الله أنَّه يعبدُه، قال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون.

١ - سورة الأنعام: الآية / ٤٤

٢ - سورة البقرة: الآية / ١٤٣

٣ - رواه البخاري - كتاب الصلاة، باب التوجيه نحو القبلة حيث كان، حديث رقم: ٣٩٩، ومسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة، حديث رقم: ٥٢٥

٤ - الجامع لأحكام القرآن (١٥٧ / ٢)

٥ - سورة الذاريات: الآية / ٥٦

ومنه قوله تعالى: ﴿فَالَّتِي الْأَعْرَابُ آمَنَّا فُلُونَ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ فُلُونَا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْحُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.^١

فلفظُ: ﴿الْأَعْرَاب﴾ عامٌ المراد به الخصوص؛ لأنَّه ليس كلَّ الأعراب قالوا آمناً.

قالَ مجاهِدُ: نزلت في بني أسد بن خزيمة، وهي قبيلة كانت تجاور المدينة، فلم يقل ذلك الأعراب جمِيعاً وإنما قال ذلك فريقٌ منهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿فُلُونَ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾.^٢

لفظُ: ﴿الْكَافِرُونَ﴾ عامٌ في كُلِّ كافِرٍ، والمراد به الخصوص لا جميع الكافرين؛ لأنَّ منهم من آمن، فعبد الله، ومنهم من مات أو قتل على كفره، وهم المخاطبون بهذا القول فمنهم المذكورون. عامٌ الذي يراد به الخصوص.

ومنه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلُهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَحَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾.^٣

فالكلام عامٌ في كُلِّ أهْلِ الْمَدِينَةِ وَجَمِيعِ مَنْ حَوْلُهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ، والمراد به الخصوص لمن أطاقَ المجاهد من الرجال.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَانْتَلَقُوا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَنَا قَرِيَّةً اسْتَطَعُمَا أَهْلَهَا فَأَبْوَا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا﴾.^٤

فَقَوْلُهُ: ﴿اسْتَطَعُمَا أَهْلَهَا﴾ عامٌ في كلِّ أهل القرية، والمراد به الخصوص لا جميع أهل القرية، فإنهما لم يأتيا جميعَ أهلِ القرية إنما أتيا بعضهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوُلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَحْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرِيَّةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾.^٥

١ - سورة الحجرات: الآية/١٤

٢ - سورة الكافرون: الآية/١

٣ - سورة التوبة: الآية/١٢٠

٤ - سورة الكهف: الآية/٧٧

٥ - سورة النساء: الآية/٧٥

فَقَوْلُهُ: ﴿الظَّالِمُ أَهْلُهَا﴾ عام في كُلِّ أَهْلِ القريةِ، والمراد به الخصوصُ لا جَمِيع أَهْلِ القريةِ، فإنَّ كُلَّ واحدٍ من أَهْلِ القريةِ لم يكن ظالماً، فقد كان فيهم المسلمون، ولكنَّهم كانوا قلة.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.^١

فَقَوْلُهُ: ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، عامٌ والمراد به الخصوصُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدُ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَنَّ رَبِّكَ مَقَامًا حَمْوَدًا﴾.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.^٣

فلفظ: ﴿النَّاس﴾، من قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ﴾ عامٌ والمراد به الخصوصُ؛ فإنَّ المراد بالناس هنا العرب عبدُ الأوثانِ، وكان دُخُولُهم في دينِ اللهِ تعالى أَفْواجًا بينَ فتحِ مَكَّةَ وموتهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قالَ أبو عمر: لم يبقَ عربيٌ بعد حنينٍ والطائف إلا أسلمَ، منهم من قدمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنهم من لم يقدمْ عليهِ وقُنِعَ بما أَتَاهُ به وافدُ قومِهِ من الدِّينِ عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.^٤

قال ابن عطية: والمراد والله أعلم عرب عبدة الأوثان، وأما نصارىبني تغلب فما أراهم
أسلموا قط في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن أعطوا الجزية.^٥

وقيل: المراد بالناس هنا أهل اليمَنِ، قال مقاتل وعكرمة: المراد بالناس أهل اليمَنِ وفَدَ منهم

سبعمائةَ رجلٍ.^٦

١ - سورة آل عمران: الآية / ٣٣

٢ - سورة الإسراء: الآية / ٧٩

٣ - سورة النصر

٤ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٤ / ١٦٣٨)

٥ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥ / ٥٣٢)

٦ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥ / ٥٣٢)

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾^١.

فقوله تعالى: ﴿لَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾، عامٌ والمراد به الخصوص؛ فإن المراد بمن في الأرض هنا: المؤمنون؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسَعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾^٢.

١ - سورة الشورى: الآية/ ٥

٢ - سورة غافر: الآية/ ٧

التَّرْقَى

حدُ التَّرْقَى:

التَّرْقَى لغَةً:

تَفَعُّلٌ من الرُّقَى وهو الصعود، والدرج من الأدنى إلى الأعلى.

قال الخليل: رقي: ورقى يرقى رقىأ: صعد وارتقى. والمرقاة: الواحدة من المراقي في الجبل والدرجة، وتقول: (هذا جبل) لا مرقي فيه ولا مرتقى. وما زال فلان يترقى به الأمر حتى بلغ غايته.^١

وقال إسماعيل بن عباد: رقي يرقى رقىأ: صعد في سلم أو في درجة. وجبل لا مرقي فيه ولا مرتقى.^٢

وقال الأزهري: يقال: رقي فلان في الجبل يرقى رقىأ: إذا صعد، ويقال: ارتقى يرتقى، والمرقاة: واحدة مراقي الدرجة. ويقال: هذا جبل لا مرقي فيه ولا مرتقى، ويقال: ما زال فلان يترقى به الأمر حتى بلغ غايته.^٣

التَّرْقَى اصطلاحًا:

قال السبكي: الترقى وهو أن يذكر معنى، ثم يردف بأبلغ منه.^٤

أمثلة الترقى:

ومنه قول الله تعالى: ﴿أَوْ تَرَقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَفِيقِكَ﴾^٥.

أي: تصعد في سلم إلى السماء ونحن ننظر إليك.

١ - العين (٥ / ٢١١)

٢ - المحيط في اللغة (٦ / ١٨)

٣ - تهذيب اللغة (٩ / ٢٢٤)

٤ - عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (٢ / ٣١٩)

٥ - سورة الإسراء: الآية/ ٩٣

ومنه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.^١

إن الله تعالى ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سنة وهي ما يعتري الإنسان من الفتور قبل النوم، ويقال لها كذلك الوَسْنُ والتعاسُ، ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾، والنوم هو الذي يزول به العقل في حق الإنسان، فبدأ بنفي السنة بقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةً﴾؛ لأنها أخف ثم نفى النوم بقوله: ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾؛ لأنَّه أقوى من السنة، ففي الكلام ترقى من الأدنى إلى الأعلى.

ومنه قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمُسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾.^٢

في الآية ترقى من الأدنى إلى الأعلى، في المقصود وليس في الفضل والرتبة، فإنَّ الاستنكاف هنا هو الامتناع عن العبادة والملائكة أقدر على ذلك من المسيح عليه السلام؛ فلهذا قال: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾، ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل من المسيح عليه السلام.

قال الزركشي: هؤلاء لما عبدوا المسيح واعتقدوا فيه الولدية لما فيه من القدرة على الخوارق والمعجزات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغيره، ولكونه خلق من غير أب، والتزهيد في الدنيا وغالب هذه الأمور هي للملائكة أتم، وهم فيها أقوى؛ فإن كانت هذه الصفات أوجبت عبادته، فهو مع هذه الصفات لا يستنكف عن عبادة الله، بل ولا من هو أكبر منه في هذه الصفات للترقي من الأدنى إلى الأعلى في المقصود، ولم يلزم منه الشرف المطلق والفضيلة على المسيح.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمُ وَالْبُغْيَ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.^٤

في الخطاب تدرج من الأدنى إلى الأعلى فإن ﴿الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، أدنى هذه المحرمات المذكور منزلة وأخفها حكمًا، ﴿وَالْإِثْمُ وَالْبُغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، أعظم منها إثماً

١ - سورة البقرة: الآية / ٢٥٥

٢ - سورة النساء: الآية / ١٧٢

٣ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٢٧٠)

٤ - سورة الأعراف: الآية / ٣٣

وصاحبها أقبح من صاحب الأولى حالاً، والشرك المراد بقوله: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، أقبح مما سبق، وأعظم خطرًا، والمشرك أبعد الناس عن مغفرة الله تعالى وشر الناس منزلة يوم القيمة، والقول على الله تعالى المراد بقوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. أعظم مما سبق ذكره وأعظم من الشرك بالله تعالى، والعلة في ذلك أن الشرك بالله تعالى ضرر قاصر على صاحبه أما القول على الله تعالى فضرر متعد للغير، والقول على الله تعالى افتراء وكذب عليه ولا أظلم من هذا حاله فهو أسوء الناس حالاً على الإطلاق، نعوذ بالله من الضلال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فبدأ بالأسهل تحريمًا ثم ما هو أشد منه إلى أن ختم بأغلظ المحرمات وهو القول عليه بلا علم، فما أهل به لغير الله في الدرجة الرابعة من المحرمات.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿أَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشِيُونَ إِلَيْهَا أَمْ هُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ إِلَيْهَا أَمْ هُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ إِلَيْهَا أَمْ هُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ إِلَيْهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كَيْدُونِ فَلَا تُنْظِرُونَ﴾^٢.

قال الزركشي: فإنه سبحانه بدأ منها بالأدنى لغرض الترقى لأن منفعة الرابع أهم من منفعة الثالث فهو أشرف منه ومنفعة الثالث أعم من منفعة الثاني ومنفعة الثاني أعم من منفعة الأول فهو أشرف منه، وقد قرن السمع بالعقل ولم يقرن به البصر في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُهْدِي الْعُمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصِرُونَ﴾، وما قرن بالأشرف كان أشرف.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيَّا﴾^٤.

بدأ سبحانه بالأدنى وهي النفقه الصغيرة ثم ثنى بالكبيرة، على سبيل الترقى، ثم ذكر الجهاد بالنفس: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيَّا﴾ ولا شك أنه أعظم من الإنفاق في سبيل الله.

١ - أحكام أهل الذمة (٥٢٨ / ١)

٢ - سورة الأعراف: الآية/ ١٩٥

٣ - البرهان في علوم القرآن (٢٧٠ / ٣)

٤ - سورة التوبة: الآية/ ١٢١

ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيَلَّتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا إِلَّا حَصَاهَا﴾^١.

ينظر الله تعالى عن حسرة المُجْرِمِينَ يوم القيمة عند رؤية كل واحد منهم لكتاب أعماله، الذي دونت فيه الأعمال، ومنها الصغير والكبير، والحقير والعظيم، والقتل والقطمير، فتعظم حسرته، وتشتد حيرته، ويزداد كربه، فالكتبة لم تترك ذنبًا وإن صغر إلا دونته، ولا عملاً صغيرًا ولا كبيرًا إلا أحصته وحفظته.

فيبدأ منها بالأدنى لبيان مدى حسرة الجرميين على تفريطهم وترقي لبيان كمال ضبط الحفظة التي تكتب أعمال العباد.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوْكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَفْسٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾^٢.

قال أبو حيان: الترقى في العطف بعد ﴿وَنَفْسٍ﴾، فيبدأ أولاً بالأموال، ثم ترقى إلى الأنفس.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ حَشْيَةِ اللَّهِ﴾^٤.

قال أبو حيان: وترتيب تقسيم هذه الحجارة ترتيب حسن جداً، وهو على حسب الترقى. فيبدأ أولاً بالذي تنفجر منه الأنهار، أي خلق ذا خروق متعددة، فلم ينسب إليه في نفسه تفعل ولا فعل، أي أنها خلقت ذات خروق بحيث لا يحتاج أن يضاف إليها صدور فعل منها. ثم ترقى من هذا الحجر إلى الحجر الذي ينفعل انفعالاً يسيراً، وهو أن يصدر منه تششقق بحيث ينبع منه الماء. ثم ترقى من هذا الحجر إلى الحجر الذي ينفعل انفعالاً عظيماً، بحيث يتحرك ويتدحرج من علو إلى أسفل، ثم رsex هذا الانفعال التام بأن ذلك هو من

١ - سورة الكهف: الآية/ ٤٩

٢ - سورة البقرة: الآية/ ١٥٥

٣ - البحر المحيط في التفسير (٥٦ / ٢)

٤ - سورة البقرة: الآية/ ٧٤

خشية الله تعالى، من طواعيته وانقياده لما أراد الله تعالى منه، فكني بالخشية عن الطواعية والانقياد، لأن من خشي أطاع وانقاد.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾^٢.

هذا من باب الترقى، بدأً أولاً بنفي كشف الضر ل هذه الآلهة المزعومة عمن يعبدونهم، ثم ترقى إلى نفي تحويلهم من حال الضر إلى غيرها.

ومنه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ أَتَقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^٣.

هذا من باب الترقى، فقد بدأً أولاً بذكر الإيمان وعمل الصالحات، ثم ترقى إلى رتبة أعلى وهي الإيمان والتقوى والإحسان.

ومنه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَشِيرُ أَنْ يُؤْتِيَ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُوْنُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^٤.

قال أبو حيان: بدأً أولاً بالكتاب وهو العلم، ثم ترقى إلى التمكين وهو الفصل بين الناس ثم ترقى إلى الرتبة العليا وهي النبوة وهي مجمع الخير.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْمَئِيرَوْا أَنَا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُزِيرَ فَتُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبَصِّرُونَ﴾^٥.

في الآية ترقى من الأدنى إلى الأشرف، بدأً بالأدنى وهي الأنعام، في قوله: ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾، ثم ترقى إلى الأشرف بقوله: ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾ وهم بنو آدم.

١ - البحر الحيط في التفسير (٤٣١ / ١)

٢ - سورة الإسراء: الآية / ٥٦

٣ - سورة المائدة: الآية / ٩٣

٤ - سورة آل عمران: الآية / ٧٩

٥ - البحر الحيط في التفسير (٢٣٠ / ٣)

٦ - سورة السجدة: الآية / ٢٧

قال أبو حيان: بدأ بالآدنى ثم ترقى إلى الأشرف، وهم بنو آدم.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿أَمَّا تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوَا عَنْهُ وَيَتَنَاجِهُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدُوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ...﴾^٢.

قال أبو حيان: نهى المؤمنين أن يكون تناجيهم مثل تناجي الكفار، وبدأ بالإثم لعمومه، ثم بالعدوان لعظمته في النفوس، إذ هي ظلامات العباد. ثم ترقى إلى ما هو أعظم، وهو معصية الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي هذا طعن على المنافقين، إذ كان تناجيهم في ذلك.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتَيمَ فَلَا تَقْهِرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهِرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^٤.

في الآية ترقى من الآدنى إلى الأشرف، بدأ بالآدنى وهو اليتيم وهو لا يكون إلا حال الصغر، وهو أعظم مظاهر الاحتياج، ثم ارتقى إلى حال السائل، والسؤال وإن كان مظهنة الفقر والعوز، إلا إنه أحسن حالاً من اليتيم، ثم ترقى إلى الأشرف وهو حال النعمة والغنى.

قال أبو حيان: فكان ذكر الامتنان بذلك على حسب الواقع بعد اليتيم وحالة التكليف، وفي الآخر ترقى إلى الأشرف، فهما مقصدان في الخطاب.^٥

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا حَرَمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ...﴾^٦.

في الآية ترقى من الآدنى إلى الأعلى، بدأ بالآدنى الأخف تحريمًا وهي الميتة ثم بما هو أشد منها وهو الدم فإنه أخبث وضرره أعظم، ثم بما هو أشد منها وهو لحم الخنزير؛ فإنه أخبث

١ - البحر المحيط في التفسير (٤٤٢ / ٨)

٢ - سورة المجادلة: الآية / ٨

٣ - البحر المحيط في التفسير (١٢٦ / ١٠)

٤ - سورة الضحى: الآية / ٩ - ١١

٥ - البحر المحيط في التفسير (٤٩٨ / ١٠)

٦ - سورة البقرة: الآية / ١٧٣

منهما، وأعظم ضرراً، ثم بما هو أشد منها جميماً وهو ما أهلاً به لغير الله؛ لأنه شرك بالله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لَغَيْرُ اللَّهِ﴾، فحصر التحرم في هذه الأربعة، فإنها محرمة في كل ملة، لا تباح بحال إلا عند الضرورة، وبدأ بالأخف تحريمًا ثم بما هو أشد منه فإن تحريم الميتة دون تحريم الدم فإنه أخبث منها ولحم الخنزير أخبث منها وما أهل به لغير الله أخبث الأربعة.

ونظير هذا قوله: ﴿فُلْ إِنَّا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمُ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحُقْقِ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فبدأ بالأسهل تحريماً ثم ما هو أشد منه إلى أن ختم بأغلفظ المحرمات وهو القول عليه بلا علم، فما أهل به لغير الله في الدرجة الرابعة من المحرمات.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ (٥٣) ^٢ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا^٣.

قال أبو حيان: فالبخل منع وصول خير من الإنسان إلى غيره، والحسد تبني زوال ما أعطى الله الإنسان من الخير وإيتاؤه له. نهى الله تعالى عليهم تحليهم بجهاتين الخصلتين الذميمتين، ولما كان الحسد شر الخصلتين ترقى إلى ذكره بعد ذكر البخل.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَمَ بُوَحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾.

قال أبو حيان: بدأ أولاً بالعام وهو افتاء الكذب على الله وهو أعم من أن يكون ذلك الافتاء بادعاء وحي أو غيره ثم ثانياً بالخاص وهو افتاء منسوب إلى وحي من الله تعالى ولم

١ - أحكام أهل الذمة (١/٥٢٨)

٢ - سورة النساء: الآية/٥٣، ٥٤

٣ - البحر الحيط في التفسير (٣/٦٧٨)

٤ - سورة الأنعام: الآية/٩٣

يوح إلىه شيء جملة حالية أو غير موحى إليه لأن من قال أوحى إلي وهو موحى إليه هو صادق ثم ثانياً بأخص مما قبله، لأن الوحي قد يكون بإنزال قرآن وبغيره.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾^٢.

في الآية ترقى من الأدنى إلى الأعلى، قال الفيروزآبادي: فالصبر دون المصابرة، والمصابرة دون المرابطة.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿فُلَانْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١) مَلِكُ النَّاسِ (٢) إِلَهُ النَّاسِ^٤.

قال ابن جماعة: ف (رب): أخص الثلاثة، لأنه يقال في الباري تعالى وفي غيره و(ملك): أعم منه، وأخص من (إله)، لأنه يقال: ملك العراق ونحوه و(إله): أعم الثلاثة، لأنه تعالى: ربهم، وملكهم، وإلههم، ولا يشاركه غيره في ذلك فحصل الترقى من صفة إلى صفة، لما في الوصف الثاني من التعظيم ما ليس في الأول، وفي الثالث ما ليس في الثاني.^٥

١ - البحر المحيط في التفسير (٤ / ٥٨٥)

٢ - سورة آل عمران: الآية / ٢٠٠

٣ - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٣ / ٣٧٩)

٤ - سورة الناس: الآية / ١ - ٣

٥ - كشف المعاني في المتشابه من المثاني (ص: ٣٨٣)

الطباق

تعريفُ الطِّبَاقِ:

الطباقُ أو المطابقةُ لغةً: مقابلة الشيء مثله الذي هو على قدره.

وقال الثعالبي: هو الجمع بين ضدتين.^١

واصطلاحاً: هو أن يجمع بين متضادين مع مراعاة التقابل كالبياض والسود والليل والنهر.^٢

الفرقُ الطِّبَاقِ والمُقَابِلَةِ:

قال ابن أبي الأصبع: الفرق بين الطِّبَاقِ والمُقَابِلَةِ من وجهين: أحدهما أن الطِّبَاقَ لا يكون بين ضددين فقط والمُقَابِلَةِ لا يكون إلا بما زاد من الأربع إلى العشرة وثانيهما أن الطِّبَاقَ لا يكون بالأضداد والمُقَابِلَة تكون بالأضداد وبغيرها.^٣

وقيل: المُقَابِلَةِ: أن يؤتى بمعنىين متواافقين، أو أكثر ثم يقابل ذلك على الترتيب.^٤

والطباق باعتبار دلالة اللفظ، ينقسم إلى قسمين: لفظي ومعنوي.

وباعتبار النفي والإثبات، ينقسم إلى قسمين:

طباق إيجابٍ، وطباق سلبٍ.

وباعتبار الظهور والخفاء ينقسم إلى قسمين:

طباق ظاهرٍ وطباق خفيٍّ.

ويكون الطباق في الأسماء، والأفعال.

١ - فقه اللغة وسر العربية (ص ٢٧٥)

٢ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٤٥٥)

٣ - كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (٢ / ١٦٢٠)

٤ - معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (ص: ١٠١)

أولاً الطِّبَاقُ الْلَّفْظِيُّ:

و معناه: بين متضادين مع مراعاة التقابل في اللفظين، مثل الضحك والبكاء، والفرح والحزن، والموت والحياة.

مثاله قوله تعالى: ﴿فَلَيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلَيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً إِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^١.
في الآية طِبَاقٌ بين الضَّحَكِ في قوله: ﴿فَلَيَضْحَكُوا﴾ والبكاء في قوله: ﴿وَلَيَبْكُوا﴾،
وطِبَاقٌ بين القليل في قوله: ﴿قَلِيلًا﴾ والكثير في قوله: ﴿كَثِيرًا﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تُأسِوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرُحُوا بِمَا آتَكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ
مُخْتَالٍ فَحُورٍ﴾^٢.

في الآية طِبَاقٌ بين الأسى وهو الحزن في قوله: ﴿تُأسِوا﴾ والفرح في قوله: ﴿تَفْرُحُوا﴾،
وطِبَاقٌ بين فقد الفوات في قوله: ﴿فَاتَكُمْ﴾ والعطاء في قوله: ﴿آتَكُمْ﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾^٣.
في الآية طِبَاقٌ بين الضَّحَكِ في قوله: ﴿أَضْحَكَ﴾ والبكاء في قوله: ﴿وَأَبْكَى﴾، وطِبَاقٌ
بين الموت والحياة في قوله: ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَحْسِبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُؤُودٌ﴾^٤.

في الآية طِبَاقٌ بين اليقظة في قوله: ﴿أَيْقَاظًا﴾، والرقد في قوله: ﴿رُؤُودٌ﴾.
ومنه قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقُولَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَحْفِ بِاللَّيْلِ
وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾^٥.

١ - سورة التوبه: الآية/ ٨٢

٢ - سورة الحديد: الآية/ ٢٣

٣ - سورة النجم: الآية/ ٤٤ ، ٤٣

٤ - سورة الكهف: الآية/ ١٨

٥ - سورة الرعد: الآية/ ١٠

في الآية طِباقٌ بين الإسرارِ في قوله: ﴿أَسَرَّ﴾ وَالجَهْرُ في قوله: ﴿جَهَرَ﴾، وَطِباقٌ بين الاستخفاء في قوله: ﴿مُسْتَحْفِ﴾ والظهور في قوله: ﴿وَسَارِبُ﴾، فإن معنى سارِبٍ أي: ظاهِرٌ ماشٌ في ضياء النَّهَارِ وَطِباقٌ بين اللَّيلِ والنَّهَارِ في قوله: ﴿مُسْتَحْفِ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَا لَكَ الْمُلْكُ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزَعُ الْمُلْكُ مَنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلِّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْحَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٦) ثُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَثُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.^١

في الآية طِباقٌ بين الإيتاء وهو الإعطاء والتمكين في قوله: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ﴾ وَالنَّزَعُ وهو السلب بقوَّةٍ في قوله: ﴿وَتَنْزَعُ الْمُلْكَ﴾، وَطِباقٌ بين العزة في قوله: ﴿وَتُعِزُّ﴾ والذلة في قوله: ﴿وَتُذَلِّ﴾، وَطِباقٌ بين اللَّيْلِ في قوله: ﴿بِاللَّيْلِ﴾ وَالنَّهَارِ في قوله: ﴿بِالنَّهَارِ﴾، وَطِباقٌ بين الحياة في قوله: ﴿الْحَيَّ﴾، والموت في قوله: ﴿الْمَيِّتَ﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلْمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحُرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾.^٢

في الآية طِباقٌ بين الأعمى في قوله: ﴿الْأَعْمَى﴾ وَالْبَصِيرُ في قوله: ﴿وَالْبَصِيرُ﴾، وَطِباقٌ بين الظَّلَامِ في قوله: ﴿الظُّلْمَاتُ﴾ وَالنُّورِ في قوله: ﴿وَلَا الظُّلْمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾، وَطِباقٌ بين الظِّلِّ في قوله: ﴿الظِّلُّ﴾ وَالْحَرْ في قوله: ﴿الْحُرُورُ﴾، وَطِباقٌ بين الأحياء في قوله: ﴿الْأَحْيَاءُ﴾، وَالموتى في قوله: ﴿الْأَمْوَاتُ﴾.

قلنا إنَّ الْمُطَابَقَةَ أو الطِّبَاقَ ينقسمُ إلى قسمين: إلى طِباقٍ لفظيٍّ وَطِباقٍ معنويٍّ وقد مثلنا على الطِّباقِ اللفظيِّ بما سبق من أمثلة أما الطِّباقُ المعنويُّ فمعناه: الجمع بين مُتضادَيْنِ مع مُراعاةِ التَّقَابِلِ في المعنيين.

١ - سورة آل عمران: الآية / ٢٦ ، ٢٦

٢ - سورة فاطر: الآيات / ١٩ - ٢٢

أمثلة الطِّبَاقِ المعنويِّ:

قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ *
 قالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ .^١

فقولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾، يقابله من حيث الطِّبَاقِ معنى قولِ الرَّسُولِ: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾، أي: رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا لَصَادِقُونَ.

ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ .^٢

قال أبو علي الفارسي: لما كان البناء رفعاً للمبني قبل بالفراش الذي هو على خلاف البناء.^٣

ومن الطِّبَاقِ المعنويِّ نوع يسمى الطِّبَاقُ الْخَفِيِّ، ولا يتوصل إليه إلا بطول التأمل وإعمال الفكر.

ومنه قوله تعالى: ﴿مَا حَطَّيَاكُمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا هُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ .^٤
 في الآية طابق بين قوله: ﴿أُغْرِقُوا﴾ وقوله: ﴿أُدْخِلُوا نَارًا﴾؛ لأن الغرق من صفات الماء فكأنه جمع بين الماء في النار والنار. قال ابن منقد: وهي أخفى مطابقة في القرآن.^٥

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ .^٦

وفي تشريع القصاص حكمة عظيمة وهي بقاء المهج وصوتها؛ لأنَّه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه، فكان في ذلك حياة للنفوس، وفي الكتب المتقدمة: القتل أدنى للقتل فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ وأوجز، وهو من أملح الطِّبَاقِ وأخفاه كما قال ابن المعتر.

١ - سورة يس: الآية / ١٥ ، ١٦

٢ - سورة البقرة: الآية / ٢١

٣ - البرهان في علوم القرآن (٤٥٦ / ٣)

٤ - سورة نوح: الآية / ٢٥

٥ - البرهان في علوم القرآن (٤٥٧ / ٣)

٦ - سورة البقرة: الآية / ١٧٩

وينقسم الطلاق من حيث النفي والإثبات إلى قسمين: طلاق إيجابٍ وطلاق سلبٍ.

تعريف طلاق السلب:

طلاقُ السلبِ هو الذي يكون بين معنيين متضادين أحدهما ثابت والآخر منفي، أو بين أمرٍ ونفيٍ.

ومثاله في الأمر والنفي: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشُؤُهُمْ وَاحْشُؤُنِي﴾^١.

ففي الآية نهي للمؤمنين عن خشية الناس، وأمر لهم بالخشية من الله تعالى وحده.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشُوا النَّاسَ وَاحْشُؤُنِي﴾^٢.

في الآية نهي للمؤمنين عن خشية الناس وأمر لهم بالخشية من الله تعالى وحده.

ومنه قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾^٣.

يتبرأ عيسى عليه السلام من عبده في الدنيا، وينفي عن نفسه علم شيء من الغيب ويسلم أمره لخالقه الذي يعلم السر وأخفى فيقول يارب تعلم سرّي وما انطوى عليه ضميري ومكونون نعمسي، ولا أعلم شيئاً مما استأثرت به من غيرك وعلمنك.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ لَهُمَا أُفْيٌ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾^٤.

في الآية نهي عن التألف في وجوه الوالدين ونفي عن انتهارهما، وأمر بالإحسان لهما بإلأنة القول لهما وحسن معاملتهما.

ومثاله في الإثبات والنفي: قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^٥.

في الآية نفي للعلم النافع عن كثير من الناس، وإثبات لعلم لا ينفع.

١ - سورة البقرة: الآية/ ١٥٠

٢ - سورة المائدة: الآية/ ٤٤

٣ - سورة المائدة: الآية/ ١١٧

٤ - سورة الإسراء: الآية/ ٢٣

٥ - سورة الروم: الآية/ ٦ ، ٧

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ .^١

في الآية نفي للرمي وإثبات له، نفي عنه الرمي وأثبته له، ويفسر ذلك صدر الآية، أعني قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَاتَلَهُم﴾ . أي ما أصبت وقتلت عندما رميت ولكن الله أصابهم وقتلهم، وقيل: ما رميت على الحقيقة إذ رميت في ظاهر الحال، أو ما رميت الرعب في قلوبهم إذ رميت الحصيات والتراب.

وكما يكون الطلاق في الأفعال يكون في الأسماء كذلك.

أمثلة الطلاق في الأسماء:

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاهُمْ إِنْ أُمَّهَاهُمْ إِلَّا الَّذِي وَلَدُوكُمْ﴾ .^٢

ففي الآية نفي للأمومة عن الأزواج، فليست الزوجة أمًا، وأثبات الأمومة فقط لمن انجبته.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ .^٣

في الآية بيان أن من الأعناب والزرع والنخيل ما هو صنوان وغير صنوان والصنوان: هي الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين وبعض النخيل، ونحو ذلك. وغير الصنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿مِنْ مُضْعَةٍ مُخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ﴾ .^٥

في الآية بيان أن المضعة يكون منها المخلقة وهي التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين، وغير المخلقة وهي التي لم يخلق فيها شيء.

١ - سورة الأنفال: الآية / ١٧

٢ - سورة المجادلة: الآية / ٢

٣ - سورة الرعد: الآية / ٤

٤ - تفسير ابن كثير (٤ / ٤٣١)

٥ - سورة الحج: الآية / ٥

ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾^١.

يخبر الله تعالى أن زلزلة الساعة شيء عظيم تدهش له عقول الناس، وتذهل من حوله ألا يهم، فمن رأهم حسب أئمهم سكارى، وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد.

١ - سورة الحج: الآية / ٢

المُدَرَّجُ

تعريف المدرَّج:

المدرَّجُ لغةً: بضم الميم وفتح الراء اسم مفعول من (أَدْرَجَ) يقال أَدْرَجَ إِدْرَاجًا، إذا أدخل شيئاً في شيءٍ، ومنه قولهم: أَدْرَجَ الْمِيتُ فِي الْكَفْنِ.

قال ابن فارس: الدال والراء والجيم أصل واحد يدل على مضى الشئ والمضى في الشئ.^١

قال ابن منظور: وأدرج الكتاب في الكتاب: أدخله وجعله في درجه أي في طيه. ودرج الكتاب: طيه وداخله؛ وفي درج الكتاب كذا وكذا. وأدرج الميت في الكفن والقبر: أدخله.^٢

واصطلاحاً: أن تحيي الكلمة إلى جنب أخرى كأنها في الظاهر معها وهي في الحقيقة غير

متعلقة بها.^٣

وهذا النوع سمى بهذه التسمية بنظرير المدرَّج من الحديث.

أمثلة المدرَّج:

قول الله تعالى حكاية عن بليقيس: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

قال ابن عباس: قالت بليقيس: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾، قال رب، عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

قال الشوكاني: أي: إذا دخلوا قرية من القرى خربوا مبانيها، وغيروا معاناتها، وأتلفوا أموالها، وفرقوا شمل أهلها وجعلوا أعزه أهلها أذلة أي: أهانوا أشرافها، وحطوا مراتبهم، فصاروا عند

١ - معجم مقاييس اللغة (٢ / ٢٧٥)

٢ - لسان العرب (٢ / ٢٦٩)

٣ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٢٩٤)

٤ - سورة التمل: الآية / ٣٤

ذلك أدلة وإنما يفعلون ذلك لأجل أن يتم لهم الملك، و تستحكم لهم الوطأة وتتقرر لهم في
قلوهم المهابة.^١

فقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. أي: مثل ذلك الفعل يفعلون.

فجملة: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ هي من قول الله تعالى لا من قول بلقيس.

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾.^٢

فجملة: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾. من قول الكفار يوم القيمة.

وجملة: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾. من قول المؤمنين، أو من قول الملائكة.

وقال الحسن: إنما يحييهم بذلك الملائكة.^٣

وقولهم: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾، وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد. قال أبي بن كعب رضي الله عنه ومجاهد والحسن وقتادة: ينامون نومة قبلبعث.^٤

وقيل: ظنوا لاختلاط عقوتهم بما شاهدوا من الهول، وما داخلهم من الفزع أنهم كانوا
نياماً.^٥

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
تُكَذَّبُونَ﴾.^٦

فجملة: ﴿يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾. من قول الكفار يوم القيمة.

١ - فتح القدير للشوكاني (٤/١٥٨)

٢ - سورة يس: الآية/٢

٣ - تفسير ابن كثير (٦/٥٨٢)

٤ - تفسير ابن كثير (٦/٣٤٦)

٥ - فتح القدير للشوكاني (٤/٤٢٩)

٦ - سورة الصافات: الآية/٢٠، ٢١

وجملة: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَدِّبُونَ﴾. من قول المؤمنين، أو من قول الملائكة، تقول الملائكة والمؤمنون لهم هذا على سبيل التقرير والتوضيح.

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلَيْهِمْ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجُكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.^١

فجملة: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلَيْهِمْ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجُكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾. من قول الملأ من قوم فرعون وهم جلساؤه.

وجملة: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾. من كلام فرعون، بدليل ما بعده وهو قوله: ﴿قَالُوا أَرْجِهُ وَأَحَادُهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاسِرِينَ﴾. قال الملأ ذلك جواباً لفرعون حيث استشارهم، وطلب ما عندهم من الرأي.

ومنه قوله تعالى: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُفْتَحٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ﴾.^٢

فجملة: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُفْتَحٌ مَعَكُمْ﴾. من كلام الملائكة الذين هم خزنة النار.

وجملة: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ من كلام قادة المشركين ورؤسائهم، بدليل ما بعده وهو: ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فِي نَسَقِ الْقَرْأَ﴾.^٣

يقول ذلك الأتباع عند سماع ما قاله الرؤساء لهم بل أنتم لا مرحبًا بكم، أي: لا كرامة لكم، ثم عللوا ذلك بقولهم: ﴿أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي: أنتم قدمتم لنا العذاب، ودعونا إليه بما كنتم تقولونه لنا.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُوكُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَعْنَتْ عَنْكُمْ جِمِيعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ شَسْتَكِرُونَ. أَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَاهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ اذْهَلُوا الْجَنَّةَ لَا حَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزُنُونَ﴾.^٤

١ - سورة الأعراف: الآية/١٠٩ ، ١١٠

٢ - سورة ص: الآية/٥٩

٣ - سورة ص: الآية/٦٠

٤ - سورة الأعراف: الآية/٤٨ ، ٤٩

فإن قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ شَسْتَكُبِرُونَ﴾. من كلام أصحاب الأعراف، يخاطبون به رجالاً من صناديد المشركين وقادتهم، من أصحاب النار.

وقوله تعالى: ﴿أَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَاهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا حَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. من كلام الله تعالى للكبراء والرؤساء من صناديد الكفار.

قال ابن عباس: قال الله لأهل التكبر والأموال: ﴿أَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَاهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾، يعني أصحاب الأعراف، ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا حَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. ١

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي فِرِيقٌ * يَقُولُ أَئِنِّي لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِنَّا مِنْتَنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعَظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِّعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَالَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرَدِّنِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا تَحْنُّ إِيمَانِي * إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا تَحْنُّ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلِيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾. ٢

فإن قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي فِرِيقٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. من كلام المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة.

وقوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلِيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾. من كلام الله تعالى.

قال ابن حرب: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: مثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا ليصيروا إليه في الآخرة. ٣

ومنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾. ٤

فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾. من كلام المشركين يعتضون بذلك على أحكام الله تعالى في شرعه.

١ - تفسير الطبرى (١٠ / ٢٢٢)

٢ - سورة الصافات: الآيات / ٥٠ : ٦١

٣ - تفسير الطبرى (٤٠ / ٢٣)

٤ - سورة البقرة: الآية / ٢٧٥

وقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَمَ الرِّبَا﴾. من كلام الله تعالى رداً عليهم، فيما قالوه من الاعتراض، على الشرع.

قال الشوكاني: جعلوا البيع والربا شيئاً واحداً، وإنما شبهوا البيع بالربا مبالغة بجعلهم الربا أصلاً والبيع فرعًا، أي: إنما البيع بلا زيادة عند حلول الأجل كالبيع بزيادة عند حلوله، فإن العرب كانت لا تعرف ربا إلا ذلك، فرد الله سبحانه عليهم بقوله: وأحل الله البيع وحرم الربا أي أن الله أحل البيع وحرم نوعاً من أنواعه، وهو البيع المشتمل على الربا.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَيْلَ لِلَّذِينَ اتَّقُوا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَائِرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَيَعْمَمُ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.^٢

فإن قوله تعالى: ﴿خَيْرًا﴾. من كلام الذين اتقوا لما سئلوا ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾. أي: أَنْزَلَ رحمةً وبركةً وحسناً لمن اتبَعَه وآمن به.^٣

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَائِرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَيَعْمَمُ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

قال الشوكاني: للذين عملوا الأعمال الحسنة في هذه الدنيا على وجه الإخلاص حسنة عظيمة وهي الجنة، قوله: في هذه الدنيا متعلق بأحسنوا، وقيل: هو متعلق بمحسنة على أنه بيان لمكانها، فيكون المعنى: للذين أحسنوا في العمل حسنة في الدنيا بالصحة والعافية والظفر والغنية.^٤

قال القرطبي: قيل: هو من كلام الله عزَّ وجلَّ.^٥

١ - فتح القدير للشوكاني (١/٣٣٩)

٢ - سورة التحل: الآية/٣٠

٣ - تفسير ابن كثير (٤/٥٦٨)

٤ - فتح القدير للشوكاني (٤/٥٢٠)

٥ - تفسير القرطبي (١٠/١٠٠)

الكِنايَةُ

تعريفُ الكِنايَةِ:

الكِنايَةُ: هي لَفْظٌ يرادُ به لازم معناه.

قال الزمخشري: الكِنايَةُ ذكر الشيء بغير لفظه الموضع له.^١

وقيل: الكِنايَةُ: ترك التصریح بالشيء إلى مساویه فی النزوم، لينتقل منه إلى المزوم.^٢

والكِنايَةُ من أنواع البلاغة وأساليب الفصاحة، وهي أبلغ من التصریح.

قال بدر الدين بن مالك في المصباح إنما يعدل عن التصریح إلى الكِنايَة لنکته كاـلإیضاح أو بيان حال الموصوف، أو مقدار حالة، أو القصد إلى المدح أو الذم، أو الاختصار أو الستر أو الصيانة، أو التعميم والإلغاز، أو التعبير عن الصعب بالسهل أو عن المعنى القبيح باللفظ الحسن.^٣

أسبابُ الكِنايَةِ:

السَّبَبُ الأوَّلُ: أَنْ يَكُونَ التَّصْرِيحُ مِمَّا يُسْتَحِيَّ مِنْ ذِكْرِه.

مثال ذلك الكِنايَةُ عن الجماعِ باللامسةِ، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْعَائِطِ أَوْ لَامْسَتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَا أَتَيْمَمُوا صَعِيدًا طَيْبًا﴾^٤.

قال ابن عباس: الدخول، والتغشی والإفضاء، والمباشرة، والرفث، واللمس هو: الجماع، غير أن الله حيي كريم يكفي بما يشاء عمن يشاء.^٥

١ - الإتقان في علوم القرآن (٣/٦٣)

٢ - الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (١/١٨٧)

٣ - الإتقان في علوم القرآن (٣/٦٢)

٤ - سورة المائدة: الآية/٦

٥ - انظر تفسير ابن المنذر (٢/٦٣٠)، والتفسير الوسيط للواحدي (١/٢٨٦)

ومن ذلك أيضاً الكناية عن الجماع بالرفث، قال الله تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْثُ إِلَى نِسَائِكُم﴾^١.

فقوله تعالى: ﴿الرَّفْثُ إِلَى نِسَائِكُم﴾، كناية عن الجماع.

عن ابن عباس قال: إن الله كريم يكفي ما شاء، وإن الرفت هو الجماع.^٢

ومن ذلك أيضاً الكناية عن الجماع بالمباسرة قال الله تعالى: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُم﴾، قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾^٣.

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ﴾، كناية عن الجماع، أي: قد أحَلَّ لَكُمْ ما حَرَمَ عَلَيْكُمْ، وسمى الواقع مُباشرةً لتألصي البشرتين فيه.

ومن ذلك أيضاً الكناية عن الجماع بالغشيان، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيُسْكِنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَعَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا حَفِيقًا﴾^٤.

فقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَعَشَّاهَا﴾، كناية عن الجماع.

ومن ذلك أيضاً الكناية عن الجماع بالفيء، قال الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرِبُّصُ أَرْبَعَةٍ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^٥.

فإن قوله تعالى: ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾، كناية عن الجماع، قاله ابن عباس، ومتسوق الشعبي، وسعيد بن جبير، وغير واحد، ومنهم ابن جرير.^٦

ومن ذلك أيضاً الكناية عن الجماع بالدخول، والستّر، والمسّ، والمراؤدة، واللباس.

ولا شك أن هذا من أجمل الآداب التي يعلمنا إياها القرآن وهي الكناية مما يستتبع ذكره أو مما يستحيا من ذكره.

١ - سورة البقرة: الآية / ١٨٧

٢ - رواه ابن أبي حاتم - رقم: ١٨٢٤

٣ - سورة البقرة: الآية / ١٨٧

٤ - سورة الأعراف: الآية / ١٨٩

٥ - سورة البقرة: الآية / ٢٢٦

٦ - تفسير ابن كثير (١ / ٦٠٤)

السبب الثاني: أن يكون التصريح مما يستدعي ذكره.

ومثال ذلك الكناية عن البول ونحوه بالغائط قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾^١.

فقوله تعالى: ﴿مِنَ الْغَائِطِ﴾، كناية عن البول، وأصل الغائط المكان المنخفض من الأرض.

ومثال ذلك الكناية عن قضاء الحاجة بأكل الطعام، قال الله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ حَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِيقَةٌ كَانَا يَأْكُلُانِ الْطَّعَامَ﴾^٢.

فقوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلُانِ الْطَّعَامَ﴾. كناية عن قضاء الحاجة؛ لأن أكل الطعام من لوازمه قضاء الحاجة.

ومثال ذلك أيضاً الكناية عن الأستاه بالأدباء، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾^٣.

فقوله تعالى: ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾، كناية عن الأستاه، قال مجاهد في هذه الآية: يعني أستاههم ولكن الله يكتي.

السبب الثالث: التنبية على عظيم قدرة الله تعالى.

مثال ذلك الكناية عن آدم بالنفس الواحدة، قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾^٤.

وقال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾^٥.

فقوله تعالى: ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، كناية عن آدم، تنبئها على كمال قدرته سبحانه وتعالى.

١ - سورة المائدة: الآية / ٦

٢ - سورة المائدة: الآية / ٧٥

٣ - سورة الأنفال: الآية / ٥٠

٤ - سورة النساء: الآية / ١

٥ - سورة الأعراف: الآية / ١٨٩

السَّبَبُ الرَّابعُ: التَّنِيَّةُ عَلَى قَصْدِ الْمِبَالَغَةِ.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.^١

فقوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾، كناية عن إعراضهم عن التوراة التي فيها البشرة بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وراء ظهورهم؛ لأنَّ ما يجعل وراء الظاهر لا يُنْظَرُ إليه، كأنَّهم لا يعلمون ما فيها، وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه.

وفي التعبير بقوله: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾، بيان لمبالغتهم في الإعراض عن كتاب الله تعالى، لشدة عدائهم لبني الإسلام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنَّهم لا يريدون أن يسمعوا له ذكرًا، ولا يعلموا له خبراً، شأن المبغض الذي لا يريد أن يسمع عنمن يبغضه شيئاً.

ومثال ذلك أيضًا: الكناية عن سعة كرم الله وعظمي جوده ببساط يديه سبحانه قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ عُلِّتُ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَاتٍ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.^٢

فقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَاتٍ﴾. كناية عن سعة كرم الله وعظمي جوده، ردًا على اليهود الذين قالوا: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ عُلِّتُ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنُوا بما قالوا.

قال النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مَيْنَنَ اللَّهِ مَلَائِي لَا يَغِيْضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْدُ حَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْفُصِ مَا فِي مَيْنَنِهِ».^٣

ومثال ذلك أيضًا: الكناية عن النساء بِمَنْ يُنَشَّأُ في الحليلة، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحَلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ عَيْرُ مُبِينٍ﴾.^٤

١ - سورة البقرة: الآية / ١٠١

٢ - سورة المائدة: الآية / ٦٤

٣ - رواه البخاري - كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، حديث رقم: ٧٤١٩، ومسلم - كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، حديث رقم: ٩٩٣، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٤ - سورة الزخرف: الآية / ١٨

فقوله تعالى: ﴿أَوَمْنُ يُنَشَّأُ فِي الْحَلِيلِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾، كنى عن النساء بأنهن ينشأن في الترفه والتزيين الشاغل عن النظر في الأمور ودقيق المعاني ولو أتى بلفظ: (النساء) لم يشعر بذلك والمراد نفي ذلك عن الملائكة.^١

والحكمة من الكناية هنا، الرد على المشركين الذين جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناناً.

السَّبَبُ الْخَامِسُ: قَصْدُ الْاِخْتِصارِ.

مثال ذلك الكناية عن عجز المشركين عن معارضته القرآن بمثله؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾.^٢

فقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾. كناية عن عجزهم عن معارضته القرآن بمثله، وأئهم لن يفعلا ذلك في المستقبل أيضاً، والمعنى: فإن لم تأتوا بسورة من مثله، ولن تأتوا بسورة من مثله في المستقبل فاتّعوا النار التي وفودها الناس والحجارة أعدت للكافرين.

السَّبَبُ السَّادِسُ: التَّنَبِيَّهُ عَلَى الْإِهْلَاكِ وَقُبْحِ الْمُنَقَّلِ وَسُوءِ الْمَصِيرِ.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْجِينَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرْحَمَةِ مِنَا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.^٣

فقوله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، كناية عن إهلاكهم، واستئصال شأفتهم.

مثال ذلك الكناية عن عبد العزى بن عبد المطلب، بأبي لهب، وعن أم جمبل امرأة أبي لهب، بحمالة الخطب؛ قال الله تعالى: ﴿ثَبَّتْ يَدَا أَبِيهِ لَهَبٍ وَثَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَأَمْرَأَهُ حَمَالَةُ الْخَطَبِ﴾.^٤

١ - الإتقان في علوم القرآن (٣ / ١٦١)

٢ - سورة البقرة: الآية / ٢٤

٣ - سورة الأعراف: الآية / ٧٢

٤ - سورة المسد: الآية / ١ - ٤

فقوله تعالى: ﴿تَبَثَّ يَدَا أَبِي هَبِّ وَتَبَّ﴾، قوله: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ﴾، كِنايةٌ عن عبد العزى أحد أعمام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن أم جميل امرأة أبي هبٍ، وعن وسوء مصيرها وأنهما سيكونان حطباً لجهنّم عياذاً بالله من سخط الله.

السَّبَبُ السَّابُعُ: التَّنِيهُ عَلَى قَصْدِ الْمَبَالَغَةِ فِي التَّحْقِيرِ.

مثال ذلك الكِناية عن الشيء الحقير بالغتيل قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُرْكُونَ أَنفُسَهُمْ بِإِلَهٍ يُرَنِّكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيَّلًا﴾.^١

فقوله تعالى: ﴿فَتِيَّلًا﴾، كِنايةٌ عن الشيء الحقير والصغر، والمعنى: ولا يُظلمون شيئاً لو كان حقيراً، بقدر الفتيل، والفتيل: هو الخيط الذي في شق نواة التمرة.

ومثله قوله تعالى: ﴿أَلَمْ هُمْ نَصِيبُ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾.^٢

فقوله تعالى: ﴿نَقِيرًا﴾، كِنايةٌ عن الشيء الحقير المتناهي في الصغر، والمعنى لو كان لهم نصيبٌ من الملك فلن يؤتوا الناس شيئاً ولو كان هذا الشيء حقيراً جداً بقدر النمير - وهي نكتةٌ صغيرة تكون في ظهر النواة، ومنها تنبت النخلة - ضئلاً منهم وبخلاً بما عندهم.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾.^٣

فقوله تعالى: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾، كِنايةٌ عن الشيء الحقير المتناهي في الصغر، والمعنى هؤلاء الذين تدعون من دون الله ما يملكون شيئاً على الطلاق ولو كان في منتهي الصغر، ولو كان شيئاً حقيراً جداً، ولو كان هذا الشيء بقدر القطمير، والقطمير القشرة الرقيقة البيضاء التي بين التمرة والنواة.

ومن ذلك الكِناية عن استحلال الصداق بالأكل، قال الله تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدْقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِئًا مَرِيئًا﴾.^٤

١ - سورة النساء: الآية / ٤٩

٢ - سورة النساء: الآية / ٥٣

٣ - سورة فاطر: الآية / ١٣

٤ - سورة النساء: الآية / ٤

فقوله تعالى: ﴿فَكُلُوهُ﴾، كِنايةٌ عن استحلال الصداق، قال ابن العربي: وهذا باطل، لأنها قد طابت وقد أكل فلا كلام لها، إذ ليس المراد صورة الأكل، وإنما هو كناية عن الإحلال والاستحلال.^١

ومن ذلك الكِنايةُ عن النفي في سرايا بالثبات؛ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا حُذُّوا حِذْرُكُمْ فَإِنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾.^٢

فقوله تعالى: ﴿ثُبَاتٍ﴾، كِنايةٌ عن السَّرَايَا، الْوَاحِدَةُ ثُبَّةٌ وهي العصابةُ من النَّاسِ، والمعنى انفروا سرايا متفرقين أو انفروا كلَّكم جميعاً.

ومن ذلك الكِنايةُ عن الاستبعاد بالجراء، قال الله تعالى: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.^٣

فقوله تعالى: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾. كِنايةٌ عن الاستبعاد، والتَّقدِيرُ: مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَجَزَاؤُهُ الاستبعاد.

١ - تفسير القرطبي (٥ / ٢٥)

٢ - سورة النساء: الآية / ٧١

٣ - سورة يوسف: الآية / ٧٥

ضَرْبُ الْأَمْثَالِ

تَعْرِيفُ الْمَثَلِ:

الْمَثَلُ: الشيء الذي يضرب لشيء مثلاً فيجعل مثله.

قال الخليل: المثل: الشيء يضرب للشيء فيجعل مثله. والمثل: الحديث نفسه. وأكثر ما جاء في القرآن نحو قوله جلَّ وعزَّ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ * فِيهَا أَنْهَارٌ﴾، فمثُلُها هو الحَبْرُ عنها.^١

وقال ابن السِّكِّيْتِ: المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له ويوافق معناه شبهوه بالمثال الذي يعمل عليه غيره.^٢

وقال الراغب الأصفهاني: المثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولًا في شيء آخر بينهما مشابهة، ليبيّن أحدهما الآخر ويصوّره. نحو قوله: الصيف ضيّعت اللّبن فإن هذا القول يشبه قولك: أهملت وقت الإمكان أمرك.^٣

وقال أبو هلال العسكري: أصل المثل: التماثل بين الشيئين في الكلام كقولهم: (كما تدين تدان)، وهو من قولك: هذا مِثْلُ الشيء ومِثْلُه، كما تقول: شِبْهُه وشِبْهُه، ثم جعل كل حِكْمة سائرة مَثَلًا، وقد يأتي القائل بما يحسن أن يتمثّل به إِلَّا أنه لا يتَّفقُ أَنْ يسِيرَ فَلَا يَكُون مَثَلًا.^٤

قال المبرد: المثل مأخوذ من المثال، وهو: قول سائر يُشَبَّهُ به حال الثاني بالأول، والأصل فيه التَّشْبِيهُ، فقولهم: "مَثَلٌ بَيْنَ يَدِيهِ" إذا انتصب معناه أَشَبَّهَ الصورة المتصبِّبة، و "فَلَانٌ أَمْثَلٌ من فَلَانٌ"؛ أي أَشَبَّهُ بما له من الفضل. والمثال: الْقِصَاصُ لِتَشْبِيهِ حَالِ الْمُقْتَصِّ مِنْهُ بحال الأول، فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتَّشْبِيهِ بحال الأول، كقول كعب ابن زهير:

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا ***** وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا أَبَاطِيلٌ

١ - العين (٨ / ٢٢٨)

٢ - عناية القاضي وكفاية الراضي (١ / ٣٦٣)

٣ - المفردات في غريب القرآن (ص: ٧٥٩)

٤ - جمهرة الأمثال (١ / ٧)

فمواعيد عرقوب علم لكل ما لا يصح من الموعيد.

قال الزخشي: المثل في الأصل يعني المثل أي: النظير يقال مثل ومثل ومثال كشيه وشبه وشبيه ثم قال: ويستعار للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة.^١

وقيل: أصل المثل: الوصف، هذا مثل كذا، أي وصفه مساو لوصف الآخر بوجه من الوجوه. والمثل: القول السائر الذي فيه غرابة من بعض الوجوه. وقيل: المثل، ذكر وصف ظاهر محسوس وغير محسوس، يستدل به على وصف مشابه له من بعض الوجوه، فيه نوع من الخفاء ليصير في الذهن مساويا للأول في الظهور من وجه دون وجه.^٢

فوائد تعلم أمثال القرآن:

لا شك أن علم أمثال القرآن من أجيال العلوم وأشرفها، فبتعلمه يفهم عن الله تعالى مراده، ومتسللاً أوامره، وتحتسب نواهيه.

قال الماوردي: من أعظم علم القرآن علم أمثاله والناس في غفلة عنه لاشتغالهم بالأمثال وإغفالهم المثلات والمثل بلا مثال كالفرس بلا جام والناقة بلا زمام.^٣

وقال بعض السلف: كنت إذا قرأت مثلا من القرآن فلم أفهمه، بكيت على نفسي، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأُمَّاثُلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]

وعن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية في كتاب الله لا أعرفها إلا أحزني لأنني سمعت الله يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأُمَّاثُلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾.

١ - البرهان في علوم القرآن (٤٩٠ / ١)

٢ - البحر الحيط في التفسير (١٢٢ / ١)

٣ - الإتقان في علوم القرآن (٤٤ / ٤)

٤ - تفسير ابن كثير (٤ / ٥٦٨)

٥ - رواه ابن أبي حاتم - رقم: ١٧٣٢٧

قال الزركشي: وقد عده الشافعي مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن فقال ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوال على طاعته المثبتة لاجتناب معصيته وترك الغفلة عن الحفظ والازدياد من نوافل الفضل.^١

ومن فوائده كذلك تحصيل ملامة البيان، وتعلم أسلوب من أساليب البلاغة القرآنية.

قال الزركشي: ومن حكمته تعليم البيان وهو من خصائص هذه الشريعة والمثل أعون شيء على البيان.^٢

فائدة ضرب الأمثال في القرآن:

المثل يقرب المعنى إلى الأذهان؛ لأنَّه يصور المعاني بصورة الأشخاص فتكون أثبُت في الأذهان، ويشبَّهُ الخفي بالجلوي والشاهد بالغائب، ويقرِّبُ المراد للعقل ويصوّره بصورة المحسوس، وله تأثير غريب في السمع، ووقع عجيب على النفس.

قال ابن القيم: ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور التذكير والوعظ والمحث والزجر والاعتبار والتقرير وتقريب المراد للعقل وتصوّره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس، وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح والذم وعلى الثواب والعقاب وعلى تفحيم الأمر أو تحقيمه وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر والله أعلم.^٣

وقال الزركشي أيضًا: الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلوي والشاهد بالغائب فالمغرب في الإيمان مثلاً إذا مثل له بالنور تأكّد في قلبه المقصود والمزهد في الكفر إذا مثل له بالظلمة تأكّد قبحه في نفسه. وفيه أيضًا تبكيت الخصم وقد أكثر تعالى في القرآن وفي سائر كتبه من الأمثال وفي سور الإنجيل سورة الأمثال.^٤

١ - البرهان في علوم القرآن (٤٨٦ / ١)

٢ - البرهان في علوم القرآن (٤٨٧ / ١)

٣ - بدائع الفوائد (٩ / ٤)

٤ - البرهان في علوم القرآن (٤٨٨ / ١)

وقال الزمخشري: التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعاني وإدناه المتوهם من المشاهد فإن كان الممثل له عظيماً كان الممثل به مثله وإن كان حقيراً كان الممثل به كذلك فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إلا بأمر استدعته حال الممثل له ألا ترى أن الحق لما كان واضحاً جلياً تمثّل له بالضياء والنور وأن الباطل لما كان بضده تمثّل له بالظلمة وكذلك جعل بيت العنكبوت مثلاً في الوهن والضعف.^١

الأمثال في القرآن قسمان:

الأمثال في القرآن تنقسم إلى قسمين:

الأول: ظاهر مصريح بالمثل في الآيات.

والثاني: كامن لا ذكر للمثل في الآيات.

مثال القسم الأول:

قول الله تعالى: ﴿مَتَّلُّهُمْ كَمَّلَ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبَصِّرُونَ * صُمُّ بِكُمْ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصِيبٌ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتٍ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطُفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^٢.

قال ابن كثير: وتقرير هذا المثل: أن الله سبحانه، شبههم في اشتراكهم الضلال بالهدى، وصيروتهم بعد التبصرة إلى العمى، من استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنس بها فيما هو كذلك إذ طفت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يصر ولا يهتدى، وهو مع ذلك أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر؛ فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم

١ - البرهان في علوم القرآن (٤٨٨ / ١)

٢ - سورة البقرة: الآية/١٧ : ٢٠

الضلاله عوضاً عن الهدى، واستحب لهم الغيّ على الرشاد. وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر عنهم تعالى في غير هذا الموضع، والله أعلم.^١

قال ابن كثير: وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين، وهو قوله يظهر لهم الحق تارة، ويشكّون تارة أخرى، فقلوبهم في حال شكّهم وكفرهم وترددّهم (گَصِيبٌ) والصيّب: المطر، الذي نزل من السماء في الظلمات، وهي الشكوك والكفر والنفاق. (ورأعدُ)
وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع.^٢

قال ابن القيم: ضرب للمنافقين بحسب حاهم مثلاً نارياً ومثلاً مائياً لما في الماء والنار من الإضاءة والإشراق والحياة فإن النار مادة النور والماء مادة الحياة وقد جعل الله سبحانه وتعالى الذي أنزل من السماء متضمناً حياة القلوب واستئنارها وهذا سماء روحاناً ونوراً يجعل قابليه أحياء في النور ومن لم يرفع به رأساً أمواتاً في الظلمات، وأخبر عن حال المنافقين ب بالنسبة إلى حظهم من الوحي أنهم بمنزلة من استوقد ناراً لتضيء له ويتتفع بها وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام، فاستضاعوا به وانتفعوا به.^٣

وَمِثَالُ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَعِقُّ إِمَّا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَإِنَّدَاءً صُمْ بِكُمْ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وللذين كفروا وما هم فيه من الكفر والضلال وعدم استجابتهم لداعي الله بأنهم كالدواب السارحة التي إذا نعقت بها راعيها، أي: دعاها إلى ما يرشدها، لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط، والمعنى: ومثلك يا محمد ومثل الدين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به.

١ - تفسیر ابن کثیر (١/١٨٦)

۲ - تفسیر ابن کثیر (۱/۱۸۹)

٣ - الأمثال في القرآن (ص: ٩)

٤ - سورة البقرة: الآية / ١٧١

ومثال ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الدِّينِ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبْنَابِلٍ مِائَةً حَبَّةً وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ﴾.^١

هذا مثل ضربه الله تعالى لضاعفة الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وكانت طيبةً بها نفسه، وانشرح بها صدره، تضاعف له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

قال السمرقندى: كمثل زارع زرع في الأرض حبة فأنبأبت الحبة سبعة سنابل، أي أخرجت سبعة سنابل. ﴿فِي كُلِّ سُبْنَابِلٍ مِائَةً حَبَّةً﴾، فيكون جملتها سبعمائة. فشبه المتصدق بالزارع، وشبه الصدقة بالبذر، فيعطيه الله بكل صدقة سبعمائة حسنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، أي يزيد على سبع مائة لمن يشاء، فيكون مثل المتصدق كمثل الزارع إذا كان الزارع حاذقاً في عمله، ويكون البذر جيداً، وتكون الأرض عامرة، يكون الزرع محسباً طيباً فكذلك المتصدق، إذا كان صالحًا، والمآل طيباً ويوضع في موضعه، فيصير الثواب أكثر. ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾، أي واسع الفضل لتلك الأضعاف، ﴿عَلَيْهِ﴾، بما ينفقون وبما نووا فيها.^٢

قال ابن كثير: وهذا المثل أبلغ في النقوص من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها، كما ينفي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة، وقد وردت السنة بتضييف الحسنة إلى سبعمائة ضعف.^٣

ومثال ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الدِّينِ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرْبُورٍ أَصَابَهَا وَابْلُونَ فَاتَتْ أُكُلَّهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابْلُونَ فَطَلَّ وَاللَّهُ إِنَّمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.^٤

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين المنافقين ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾، في سبيل الله ابتغاء مرضات الله لا لوعض ولا لغرض لا ديني ولا دنيوي فضلاً عن سمة السمعة والرياء، وعن

١ - سورة البقرة: الآية / ٢٦١

٢ - بحر العلوم (١ / ١٧٥)

٣ - تفسير ابن كثير (٢ / ٢٥٩)

٤ - سورة البقرة: الآية / ٢٦٥

وصمة المن والأذى ﴿وَتَشْيَتاً﴾؛ أي: إحكاماً وتقريراً لهم ناشئاً من أنفسهم ليثبتوا على ما أمرهم الله به.^١

أصابـ هذا البستان مـطر شـدـيد فـتضاعـفت ثـماـره ضـعـفيـن بالـنـسـبـة إـلـى غـيرـه من البـسـاتـين وـإـذـ أـصـابـه طـلـ وـمـطـرـ يـسـيرـ وـلـوـ كـانـ رـذاـداـ كـانـ فـيـه كـفـائـةـ هـذـاـ الـبـسـتـانـ فـهـوـ لـاـ يـحـلـ وـلـاـ يـبـيـسـ أـبـداـ، وـكـذـلـكـ عـمـلـ الـمـؤـمـنـ لـاـ يـبـورـ أـبـداـ بـلـ يـتـقـبـلـهـ اللـهـ وـيـكـثـرـهـ وـيـنـمـيهـ، كـلـ عـامـلـ بـحـسـبـهـ.^٢

ومـثالـ ذـلـكـ أـيـضـاـ قولـ اللـهـ تـعـالـىـ: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَحِيُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِالْغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.^٣

هـذـاـ مـثـلـ ضـرـبـهـ اللـهـ تـعـالـىـ لـلـمـشـرـكـينـ مـعـ أـصـنـامـهـمـ وـمـعـبـودـاـتـهـمـ الـتـيـ يـعـبـدـونـهـاـ مـنـ دونـ اللـهـ تـعـالـىـ، فـيـخـبـرـ عـزـ وـجـلـ أـنـ حـالـ هـؤـلـاءـ الـوـثـنـينـ الـمـشـرـكـينـ فـيـ دـعـائـهـمـ لـتـلـكـ الـأـصـنـامـ الـتـيـ لـاـ تـسـمـعـ وـلـاـ تـبـصـرـ وـلـاـ تـنـفـعـ وـلـاـ تـضـرـ، وـلـاـ تـغـنـيـ عنـ عـبـادـهـاـ شـيـئـاـ كـحالـ الـعـطـشـانـ الـذـيـ يـرـيدـ الـمـاءـ مـنـ بـعـيـدـ فـيـشـيـرـ إـلـىـ الـمـاءـ بـكـفـيـهـ كـهـيـئـةـ الـمـنـادـيـ، وـيـدـعـوـهـ بـلـسـانـهـ مـنـادـيـاـ فـلـاـ يـأـتـيـهـ أـبـداـ وـلـاـ يـسـتـجـيبـ لـهـ، وـهـذـاـ مـعـنـيـ قـوـلـ مـجـاهـدـ.

وـقـيلـ: الـذـيـنـ يـدـعـونـ الـأـصـنـامـ وـيـعـبـدـونـهـاـ مـنـ دونـ اللـهـ لـاـ يـنـفعـهـمـ دـعـاؤـهـاـ كـقـاـبـضـ يـدـهـ عـلـىـ الـمـاءـ، فـإـنـهـ لـاـ يـحـكـمـ مـنـهـ عـلـىـ شـيـئـ، كـمـاـ قـالـ الشـاعـرـ:

فِإِنِّي رَوَاهَا كُمْ وَشَوْقًا كَقَابِضٍ مَاءَ لَمْ تَسْقِهِ أَنَمْلُهُ

وـكـمـاـ قـالـ الـآـخـرـ:

فَأَصْبَحْتُ مَمَّا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا مِنَ الْوُدِّ مِثْلَ الْقَابِضِ الْمَاءَ بِالْيَدِ

فـهـذـاـ مـثـلـ عـظـيمـ ضـرـبـهـ اللـهـ لـبـيـانـ حـيـبـةـ الـكـفـارـ مـعـ أـصـنـامـهـمـ، فـالـذـيـنـ يـدـعـونـهـ مـنـ دونـ اللـهـ جـمـادـاتـ، لـاـ تـشـعـرـ بـدـعـائـهـمـ وـلـاـ تـسـتـطـيـعـ إـجـابـتـهـمـ، وـلـاـ تـقـدـرـ عـلـىـ نـفـعـهـمـ وـلـاـ يـسـتـحـيـونـ لـهـمـ بـشـيـئـ مـاـ يـطـلـبـونـهـ إـلـاـ اسـتـجـابـةـ كـاسـتـجـابـةـ بـاسـطـ كـفـيـهـ إـلـىـ الـمـاءـ، وـالـمـاءـ جـمـادـ لـاـ يـشـعـرـ بـسـطـ

١ - الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبة (٩٠ / ١)

٢ - تفسير ابن كثير (٦٩٥ / ١)

٣ - سورة الرعد: الآية / ١٤

كَفَّيْهِ وَلَا يُعْطَشِهِ وَحاجَتِهِ إِلَيْهِ، وَلَا يُقْدِرُ أَنْ يُجْبِيَ دُعَاءَهُ وَيَبْلُغَ فَآهُ، فَكَذَلِكَ هُؤُلَاءِ
الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ أَوْثَانًا، لَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا أَبَدًا لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ؛ وَهُنَّا
قَالَ: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

ومثال ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مُّلُوكًا لَا يُقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ
رَزَقْنَاهُ مِنَا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوْنَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بِلَى أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
(٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يُقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كُلُّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا
يُوَجِّهُهُ لَا يُأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.^١

هذا مثل ضربه الله تعالى للمسر��ين ليبين لهم قبح الشرك وشناعته، يقول لهم: مثلكم في
إشراككم بالله الأوثان مثل من سوى بين عبد ملوك عاجز عن التصرف، وبين حر مالك قد
رزقه الله مالاً فهو يتصرف فيه وينفق منه.

قال قتادة: هذا مثل ضربه الله للكافر رزقه الله مالاً فلم يقدم فيه خيراً ولم يعمل فيه بطاعة
الله ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَا رِزْقًا حَسَنًا﴾، قال: هو المؤمن أعطاه الله مالاً رزقاً حلالاً، فعمل فيه
بطاعة الله، وأخذه بشكر ومعرفة حق الله، فأثابه الله على ما رزقه الرزق المقيم الدائم لأهله في
الجنة.^٢

وقيل: هو مثل الله تعالى ولالأصنام، فالأصنام كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء،
والله تعالى له الملك، وبيده الرزق ويتصرف فيه كيف يشاء.

ومثال ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يُقْدِرُ عَلَى
شَيْءٍ وَهُوَ كُلُّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ لَا يُأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ
عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.^٣

١ - سورة التحل: الآية / ٧٦، ٧٥

٢ - رواه ابن جرير في تفسيره (٤ / ٣٠٨)، وابن أبي حاتم - رقم: ١٢٥٩٦

٣ - سورة التحل: الآية / ٧٦

هذا المثل الثاني ضربه الله تعالى لنفسه وللأوثان، فالذى كالأبكم الذى لا يقدر على شيء، وهو عالة على مولاه، كلما كلف بعمل لا يقوم به ولا يحسن أنه لا يفهم ولا يفهمن عنه، هذا مثل الوثن، لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم، ولا ينفع ولا يضر، ويقوم بشأنه سدنته فيحمل وينقل من موضع إلى موضع، ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

قيل: الذي يأمر بالعدل هو الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ...﴾ [النحل: ٩٠]، ومن لوازم الأمر بالعدل، الكلام الذي نفي عن الأول فإنه: ﴿أَبْكُمُ﴾، ومن لوازم الأمر بالعدل: القدرة وهي متنافية عن الأول فإنه: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾، ومن لوازم الأمر بالعدل: القيام على شؤون غيره، وقضاء حوائجهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ إِمَّا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ فَلْنَمُوْهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وهو متنفٍ عن الأول فإنه: ﴿كُلُّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾، ومن لوازم الأمر بالعدل: تعدى النفع إلى الغير، فالامر بالعدل يأتي بكل خير، وهو متنفٍ عن الأول؛ فإنه لا يأتي منه خير: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾، فلا يستويان أبداً.

وقال ابن عباس: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبَكُمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كُلُّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾، إلى آخر الآية: يعني بالأبكم الذي هو كل على مولاه: الكافر، وبقوله: ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾: المؤمن، وهذا المثل في الأعمال.^١

ومثال ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيْبَةً كَشَجَرَةً طَيْبَةً أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتَى أُكُلَّهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ حَبِيشَةً كَشَجَرَةً حَبِيشَةً اجْتَثَتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.^٢

١ - رواه ابن جرير في تفسيره (١٧ / ٢٦٣)، وابن أبي حاتم - رقم: ١٢٦٠٣

٢ - سورة إبراهيم: الآيات / ٢٤ - ٢٦

لما شرح الله عز وجل أحوال الأشقياء وأحوال السعداء، ضرب مثلاً يبين فيه حكم الصنفين المثل الأول: ﴿كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ وهي شهادة (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) إشارة إلى الرسالة الحالدة رسالة التوحيد، رسالة الأنبياء جميعاً عليهم السلام، وأن هذه الرسالة في صفاتها ونقائتها، ورسوخها وثباتها، وشموخها واستعلائها، وعموم نفعها للخلق جميعاً، كشجرة طيبة المنظر والصورة والشكل، وهي كذلك طيبة الرائحة، وطيبة الثمر، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾، وهذه الشجرة أيضاً أصلها ثابت راسخ، لا تزعزعها الأعاصير، ولا تعصف بها رياح الباطل، ولا تقوى عليها معاعول الطغيان، تطل على الشر والظلم والطغيان من علو، وهي في علوها بعيدة عن عقوبات الأرض، صافية مِنَ الْأَكْدَارِ وَالشَّوَّابِ، ﴿وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾، فهي رسالة سماوية الأصل، ربانية المصدر، صافية المنبع، لم تقدرها الفلسفات، ولم تغيرها النظم الوضعية، وهي كذلك دائمة الخير ﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، فخيرها لا ينقطع فكما أن هذه الشجرة لا ينقطع ثمرها، وكذلك هذه الرسالة العظيمة لا ينقطع خيرها إلى أن يرى الله الأرض ومن عليها، ولا يزال أمرها في ازدياد، حتى تبلغ مشارق الأرض ومغاربها، وحتى تدخل كل مصر، وحتى يبلغ نور هذه الرسالة كل بيت.

﴿وَمَئِلَ كَلِمَةٌ حَبِيَّةٌ كَشْجَرَةٌ حَبِيَّةٌ﴾، المراد بالكلمة الخبيثة كلمة الكفر، إشارة للشريك بالله تعالى، فالشريك خبيث كالشجرة الخبيثة التي لا نفع فيها، ولا فائدة لها، والشرك لا نماء له ولا روح فيه، وكذلك الشجرة الخبيثة لا نماء لها وروح فيها.

﴿اجْتَثَتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا هَمَا مِنْ قَرَارٍ﴾، والكلمة الخبيثة قد يكون لها قعقة أحياناً، وقد تملئ الدنيا ضجيجاً، ولكنها سرعان ما تخبو وتنطفئ جذوها، وتتسكت فلا يسمع لها صوت، وكذلك الشجرة الخبيثة قد تهيج وتعالى وتنتفش وتشابك، وسرعان ما تذبل وتضمر ويضمحل ونزوي كأنها ما كانت، والكلمة الخبيثة ليس لها أصل، ولا تستند إلى قوة، ولا تصدر عن ثقة، لا تنتظر إلا عاصفة الإيمان لتزول من مكانها، وكذلك الشجرة الخبيثة ليس لها جذور تضرب في الأرض، ولا ثبات لها، ولا رسوخ فيها، ويخيل إلى بعض الناس أنها لا يمكن اقتلاعها، وهي أضعف ما تكون، لا تثبت أمام أدنى ريح.

ومثال ذلك أيضًا قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلِبُهُمُ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنِقُدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾^١.

هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى للمشركين وأصنامهم التي يعبدونها مُنِيبًا على ضعفها وحقارتها وعجزها وعلى سخافة عقول عابديها.

ووصفها الله تعالى تلك الأوثان بوصفين ظاهرين الأول: أنها عاجزة عن خلق أصغر مخلوق وأحقر شيء في نظرهم وهو الذباب، ولو اجتمعت كل آهاتهم المزعومة من أصنام وأوثان، ومن أشخاص عبدوا من دون الله ومن وقيم ومبادئ، وأوضاع، يستنصرون بها من دون الله، ويستعينون بقوتها، ويستغثون بها ويطلبون منها النصر والغيث، والحفظ وغير ذلك، كل هؤلاء مجتمعين «لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ».

والوصف الثاني: أن هذه الأصنام عاجزة عن دفع الأذى عن نفسها ولو كان الأذى من أضعف مخلوق، ولو سلبها الذباب شيئاً ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك، فكيف يرجى منها النفع، وكيف يخشى منها الضرب، ولا نفع عندها ولا ضر.

والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحرقها، والأوثان أضعف من الذباب وأحرق، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾.

ومثال ذلك أيضًا قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةِ الزُّجَاجَةِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرْسِيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَازٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^٢.

هذا مثل ضربه الله تعالى لنوره في قلب المؤمن، وقد أخبرنا الله تعالى أنه هو نور السموات والأرض، فمن صفاته تعالى أنه نور، فعن ابن عباس رضي الله عنهم، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل: «اللهم لك الحمد، أنت نور

١ - سورة الحج: الآية / ٧٣

٢ - سورة النور: الآية / ٣٥

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ فَيَّامُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَبَيْتُ، وَبِكَ حَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَأَخْرَتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ».^١

وهو سبحانه وتعالى هادي أهل السماوات والأرض، وهو النور الذي يهتدى به الخلق جميًعاً، فالكل مفتقر إلى هداه، والكل يحتاج لنوره، والله عز وجل جعل القرآن العظيم نوراً يستضاء به من ظلمات الكفر وغياب الجهل، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَأَنَّزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾^٢.

وبعث إلينا رسوله صلى الله عليه وسلم نوراً، يهدى الله تعالى به من الجهالة، ويبصر به من العمى، ويخرج العباد به من الظلمات إلى النور، قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾^٣.

فهو سبحانه نور، وحجابه النور، وكتابه نور، ورسوله نور، فكيف يضل من آمن به، وكيف يضل من اتبع كتابه، وكيف يضل من اقتدى برسوله صلى الله عليه وسلم.

﴿مَثُلُ نُورٍ﴾ أي: مثل نور الله تعالى في قلب المؤمن، وهو النور الذي يهتدى به المؤمن، كما قال تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَّبِّهِ﴾ [الزمر - ٢٢].

﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، والمشكاة: كُوَّةٌ في البيت لا منفذ لها، هذه الكوَّة فيها مصباح وهو السِّراج.

﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُبَاجَةٍ﴾، هذا الضوء المشرق من المصباح في زجاجة صافية.

١ - رواه البخاري - كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا اتباه بالليل، حديث رقم: ٦٣١٧، ومسلم - باب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، حديث رقم: ٧٦٩

٢ - سورة النساء: الآية / ١٧٤

٣ - سورة المائدة: الآية / ١٥

٤ - تفسير البغوي (٤٥ / ٦)

﴿الْزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوَكْبٌ دُرِّيٌّ﴾، هذه الزُّجَاجَةُ في صفاتِها كأَنَّها كوكبٌ من الدُّرِّ مضيءٌ يتَلَاءِلُ نوره.

﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةِ مُبَارَكَةِ زَيْتُونَةِ﴾، هذا المصباحُ المضيءُ هذا المصباح يستمد نوره من زيت شجرة من الزيتون مباركة، بارك الله في أغصانها، وأوراقها، وثمارها.

﴿لَا شَرْقِيَّةِ وَلَا غَربِيَّةِ﴾، في مكانٍ وسِطٍ، قال ابن عباس: شجرة بالصحراء لا يظلها شجر ولا جبل ولا كهف ولا يواريها شيء هو أجود لزيتها.^١

﴿يَكَادُ رَيْتُهَا يُضِيَّهُ وَلَوْلَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، زيتها في غاية الصفاء والنقاء، يكادُ من شدة صفائها أن يُضيَّهُ ولو لم تمسسه نار.

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾، فالمشكاة تعكس النور وتزيده، والمصباح مشرق بنوره، والزُّجَاجَةُ منيرة لصفائها، وزَيْتُ المصباح يكادُ أن يُضيَّه لصفائها.

وهكذا نور الله تعالى في قلب المؤمن، يغمره ويعشاوه.

فهو يتقلب في خمسة من النور: فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومحرجه نور، ومصيره إلى النور يوم القيمة في الجنة.^٢

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورٍ مَّنْ يَشَاءُ﴾، يوفقُ اللهُ إلى هدايته ودينه من يختاره ويصطفيه ويحبه.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ويضرب الله الأمثال للناس ليبيئ لهم ما يحبه ويرضاهم، وما يكرهه وينبذه، وهو سبحانه أعلم من يستحق الهدایة فييسر له أسبابها، ومن يستحق الغواية والضلال.

ومثال ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدُهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَاهُ حِسَابٌ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٣٩) أو

١ - تفسير ابن أبي حاتم - رقم: ١٤٥٩٩

٢ - تفسير الطبرى (١٧ / ٣٠٣)

كَظُلْمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَجْنِي يَعْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلْمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَحْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهَ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ^١.

قَسْمَ اللَّهِ تَعَالَى الْكُفَّارِ فِي هَذِينِ الْمُثْلَيْنِ إِلَى قَسْمَيْنِ: دَاعِيَةً وَمَقْلُدًا، ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلَ الْعِبَادِ مِنَ الْكُفَّارِ، الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ وَلَا يَسْتَوْنَ عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْجَهَلِ الْمَرْكَبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٌ بِقِيعَةٍ يَخْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدُهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

يَخْبِرُنَا اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ أَعْمَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ تَعَالَى مُثْلَهَا كَمُثْلِ السَّرَابِ الَّذِي يُرَى فِي شَدَّةِ الْحَرِّ، فِي مِنْتَصَفِ النَّهَارِ كَأَنَّهُ مَاءٌ إِذَا رَأَى الظَّمَانُ هَذَا السَّرَابُ، حَسِبَهُ مَاءً فَاسْتَبَشَرَ وَقَصَدَهُ لِيَشْرَبَ مِنْهُ، فَلَمَّا انتَهَى إِلَيْهِ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا، فَكَذَلِكَ الْكَافِرُ يَحْسَبُ أَنَّهُ قَدْ عَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا، وَأَنَّهُ سَيَجْزَى عَلَى صَالِحِ عَمْلِهِ هَذَا، فَإِذَا وَافَ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَحَاسِبَهُ عَلَى أَعْمَالِهِ، وَسَأَلَهُ عَلَى أَفْعَالِهِ، لَمْ يَجِدْ لَهُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ قَدْ قُبِلَ، لِعدَمِ إِخْلَاصِهِ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا، وَلِعدَمِ سُلُوكِ سَبِيلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا، وَهُمَا شَرَطَانِ فِي صِحَّةِ كُلِّ عِبَادَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوْكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾.^٢

وَقَالَ فُضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ: ﴿أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، أَحْلَاصُهُ وَأَصْوَبُهُ. قِيلَ يَا أَبَا عَلِيٍّ: مَا أَحْلَاصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟ قَالَ: الْعَمَلُ لَا يُقْبَلُ حَتَّى يَكُونَ حَالِصًا صَوَابًا، الْخَالِصُ: إِذَا كَانَ لِلَّهِ وَالصَّوَابُ: إِذَا كَانَ عَلَى السُّنْنَةِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى عَنِ الْأَعْمَالِ الْكُفَّارِ: ﴿وَقَدِيمَنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾.^٣

١ - سورة النور: الآية/ ٣٩، ٤٠

٢ - تفسير ابن كثير (١٩٢ / ١)

٣ - سورة الملك: الآية/ ٢

٤ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨ / ٩٥)

٥ - سورة الفرقان: الآية/ ٢٣

﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوَّاهٌ حِسَابٌ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُدْعَى الْيَهُودُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزِيزَ ابْنَ اللَّهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلِدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قَالُوا: عَطِشَنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُخْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَسْاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، فَيُقَالُ لَهُمْ، كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلِدٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشَنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُخْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَسْاقَطُونَ فِي النَّارِ﴾.^١

﴿أَوْ كَظُلْمَاتٍ فِي بَحْرٍ جُلُجُّ يَعْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ...﴾.

وهذا المثل ضربه الله تعالى لنذوي الجهل البسيط من الأتباع المقلدين، الصنم البكم الذين لا يعقلون، المقلدون لأنهم الكفر، فهواء مثلهم كمثل إنسان في بحر عميق جداً هذا البحر **يَعْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ**، ظلمات ثلاث، ظلمة الموج الذي في قاع البحر، وظلمة الموج الذي على سطح البحر، وظلمة السحاب الذي يمحق شعاع الشمس، فهي **ظُلْمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ**، إذا أخرج هذا الإنسان يده وهو على هذه الحال لم يكدر يراها من شدة هذا الظلم، وكذلك حاله في الدنيا، لما ابتعد عن نور الله تعالى الذي لا يكون إلا بالإيمان به تعالى صار يتختبط في ظلمات الكفر، فكلامه ظلمة، وسمعه ظلمة، وبصره ظلمة، ومصيره يوم القيمة إلى الظلمات في النار، لأن الجزء من جنس العمل؛ كما قال الله تعالى: **وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبِكُمَا وَصُمُّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَثْ زِدَنَاهُمْ سَعِيرًا**.

ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى: **وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لَأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَغْنَابِ وَحَفَّنَا هُمَا بِنَحْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا رَزْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكْلَهَا وَمَمْ تَظْلِمُ مِنْهُ شَيْئًا**

١ - رواه البخاري - كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ**، حديث رقم: ٤٥٨١، ومسلم -

كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، حديث رقم: ١٨٣

٢ - سورة الإسراء: الآية / ٩٧

وَفَجَرْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثُرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعْزَرُ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظْلَمُ أَنْ تَبِيَّدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظْلَمُ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ حَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لِكَيْنَاهُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنَ أَنَا أَقْلَمُ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِنِنَ حَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرِسِّلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقاً * أَوْ يُصْبِحَ مَا وَهَا غَورًا فَلَنْ تَسْتَطِعَ لَهُ طَلَبًا * وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ فَأَصْبِحَ يُقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَّةٌ عَلَى عُرُوشَهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ حَيْرٌ ثَوَابًا وَحَيْرٌ عُقبًا^١.

هذا مثل ضريبه الله تعالى لبيان أن الكافر لا عاصم له من أمر الله تعالى، ولا ناصر له من الله تعالى، مهما كان عنده من أسباب الغنى وقوة المنعة، وهو مثل لرجلين أحدهما مؤمن عابد الله تعالى، والآخر كافر بالله تعالى، الدنيا أكثر همه ومبلغ علمه، جعل الله لأحدهما جنتين أي: بستانين من أعناب، محفوفتين بالنخل المدققة في جنباهمَا، وفي خلاهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجود؛ وآتت كل واحدة من الجنتين أكلها وأخرجت ثمرها ولم تنقص منه شيئاً والأنهار تجري فيها بغير انقطاع تسقي ما فيهما من الالزروع والنخيل، فلما رأى صاحبُ الجنَّتين الشمارَ تنوء بحملها الأشجار، وتنير كأنها مصابيح في الظلام، وأعجبه حسنهما بادر صاحبُه المؤمن وكان يحاوره بقوله: ﴿أَنَا أَكْثُرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعْزَرُ نَفَرًا﴾، فنسب الفضل لنفسه، وجحد نعمة الله تعالى عليه، وتكبر على صاحبه بغناه وبما رزقه الله تعالى من مال وولد، ودخل الكافر جنته تلك وأخذ بيده صاحبه المسلم، فأدخله معه جنته وجعل يطوف به فيها، ويريه عجائبها، ثم قال هذا الكافر العجب بما لم تعمل يداه: ﴿مَا أَظْلَمُ أَنْ تَبِيَّدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظْلَمُ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ حَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾، إنكاراً منه للبعث والحساب، ثم قال: وعلى فرض قيام الساعة ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ حَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾، ظن أنَّ الله تعالى أغناه في الدنيا ورزق المال والأولاد لكرامته عليه، فقال له صاحبه المؤمن منكراً عليه: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ

١ - سورة الكهف: الآية/ ٣٢ : ٤٤

سَوَّاكَ رَجُلًا، أَيْ: خلقك من تراب وهو أصلك وأصل البشر، ثم من نطفة وهي المادة القريبة ثم سواك رجلاً أَيْ: صيرك إنساناً كامل الخلقة، في أحسن تكوين رداً على قوله: ﴿أَظْنُ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، وال قادر على بدأ الخلق قادر على إعادته، ثم قال له صاحبه المؤمن منكراً عليه ما قاله: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّيْ وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّيْ أَحَدًا﴾، وأعلن توحيده لله تعالى، ونفي عن نفسه الشرك بالله تعالى، فقال: لكن أنا شأني واعتقادي أن الله ربِّي.

ثم أقبل عليه يلومه على كفره فقال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ فإن شاء أبقاها لك وإن شاء أفناها وأهلكك، وأئمماً ما أثمرت إلا بقدرة الله وفضله. فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

ثم رد على افتخاره بماله والولد فقال: ﴿إِنْ تَرَنَ أَنَا أَقْلَ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ * فعسى ربِّي أن يُؤْتِنِ حَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ أَيْ: إن ترى أفقك منك فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى، وأرجو أن يرزقني الله سبحانه جنة حيراً من جنتك في الدنيا أو في الآخرة أو في فيهما، ﴿وَيُرِسِّلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَاقًا﴾، ويُرسِّل على جنتك التي ظنتَ أئمماً لا تفني عذاباً مِنَ السَّمَاءِ يقتلع أشجارها ويتلف زرعها ولا ينبع فيها شيئاً، ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غَورًا فَلَنْ تَسْتَطِعَ لَهُ طَلَابًا﴾؛ أو يغور مأواها غائراً في الأرض لا تستطيع إخراجه.

﴿وَأَحِيطَ بِشَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ حَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْسَنِي مَمْ أُشْرِكُ بِرَبِّيْ أَحَدًا﴾ (٤٢) وَمَ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ حَيْرٌ ثَوَابًا وَحَيْرٌ عُقَبًا﴾.

فأهلوك الله جنته ووقع ما لم يكن في حسابه مما خوفه به صاحبه المؤمن من إرسال العذاب على جنته، التي اغترر بها حتى صرفته عن عبادة ربه تعالى، ﴿فَأَصْبَحَ يُقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾. فأصبح نادماً متأسفاً يضرب إحدى يديه بالأخرى على الأموال التي ذهبت والجنة التي تلفت.

﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

أي: يا ليتني لم أقدم على عبادة ربِّي أحداً لا عشيرَةَ ولا ولداً، افتخر بهم وأطلب العزَّ بقراهم، وحاله في ذلك حال أولئك الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسْنَانَهُمْ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسْنَانَهُمْ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ حَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.^١

﴿وَمَنْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾.

أي: لم تكن له عشيرَةٌ يتتجىءُ إليها وينتصرُ بها، ولا نفعه النَّفَرُ الذين افتخرُ بهم فيما مضى، وما كان في نفسه ممتنعاً بقوَّته عن انتقامِ اللهِ منه بِإهلاكه لجنته.

ومثال ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٌ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخْدَتِ الْأَرْضُ زُحْرَفَهَا وَازْرَيْتَ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَهْمَمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَعْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.^٢

هذا مثل ضربه الله تعالى لبيان حقيقة الحياة الدنيا، في فنائِها وسرعة زوالها وتصرم أيامها وانقضائِها، بنبات الأرض الذي أخرجه الله تعالى من الأرض بما أنزل من السماء من الماء، حتى إذا تزيَّنت الأرض بما خرج على ربِّها وسهولها من الزهور النضرة المختلفة الأشكال والألوان، والنباتات والزروع والشمار اليابعة، على اختلافِ أنواعها وأصنافها.

حتى إذا ظَنَّ أَهْلُهَا الَّذِينَ زرعوها أَهْمَمْ قادرون على حصادها وقطف ثمارها جاءَتْها صاعقة، أو ريح بادرة، فيبست منها الأوراق، وتلفت منها الشماُر، وأعقب خضرتها الاصفار، وتبدلَت النَّضَارَةُ بِهشيمٍ تذروه الرِّياح، وهكذا شأن الدنيا، لا تدوم زهرتها، ولا يبقى رونقها، إذا أینعت نعمت، وإذا حلَّتْ أوحلَتْ.

إِنَّمَا الدُّنْيَا بَلَاءٌ وَكُدُّ * * * * وَكَتَابٌ قَدْ يَسُوقُ اكْتِئابًا

مَا اسْتَطَابَ الْعِيشَ فِيهَا حَلِيمٌ * * * * لَا وَلَا دَامَ لَهُ مَا اسْتَطَابَ

١ - سورة غافر: الآية/ ٨٤، ٨٥

٢ - سورة يونس: الآية/ ٢٤

بَيْنَمَا إِلَّا إِذْ دُعَاهُ يَوْمَهُ فَأَجَابَاهُ
أَيِّ عِيشٍ دَامَ فِيهَا حَيٌّ حَيٌّ مَاتَ فِيهَا فَآبَا

فَالشَّابِ فِي الْحَيَاةِ كَالنَّضْرَةِ فِي النَّبَاتِ، وَكَالرُّونَقِ لِلنَّزَهَةِ، سَرْعَانٌ مَا يَعْقِبُهُ الْمُشَبِّبُ،
وَالصَّحَّةُ لَا تَدُومُ فِي الْأَبْدَانِ، كَمَا لَا تَدُومُ الزَّهُورَ وَالثَّمَارُ عَلَى الْأَغْصَانِ، لَأَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَ
بَدَارٌ إِقَامَةٌ وَلَا إِسْتِيَطَانٌ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا لِي وَلِلَّدُنْيَا، مَا أَنَا
فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَّاكِبٌ اسْتَظَلَّتْ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا».^١

وَكَثِيرًا مَا يَضْرِبُ اللَّهُ تَعَالَى الْمَثَلَ لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِنَبَاتِ الْأَرْضِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ
مَثَلَّ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءً أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاحْتَلَطَ بِهِ بَيْتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَدْرُوهُ
الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُفْتَدِرًا﴾.^٢

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَتَابِعُ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً
مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهْبِطُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَبْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولَئِكَ الْأَنْبَابِ﴾.^٣

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُ وَزِينَةٌ وَتَفَاحِرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ
وَالْأُولَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاثَهُ ثُمَّ يَهْبِطُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ
عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُوْرَ﴾.^٤

وَمَثَالُ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّدِينِ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ
كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَهُمَا فَلَمْ يُغْنِي عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا
النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾.^٥

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ٣٧٠٩، والترمذمي - أبواب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في
مَثَلِ ابْنِ آدَمَ وَأَهْلِهِ وَوَلِيِّهِ، حديث رقم: ٢٥٣٤، وابن ماجه - كتاب الزهد، باب مَثَلُ الدُّنْيَا، حديث رقم: ٤١٠٩،
والحاكم - كتاب الرقاق، حديث رقم: ٧٨٥٩، بسنده صحيح

٢ - سورة الكهف: الآية/ ٤٥

٣ - سورة الزمر: الآية/ ٢١

٤ - سورة الحديد: الآية/ ٢٠

٥ - سورة التحريم: الآية/ ١٠

هذا مثل ضربه الله تعالى للذين كفروا، لِإِيقاظِهِمْ مِنْ غُفْلَتِهِمْ وَلِيَعْتَبِرُوا بِحَالَةِ هَاتِينَ الْمَرْأَتَيْنِ، وَتَبَيَّنَ لَهُمْ كُفَّارًا، أَيْ لِيَذْكُرُهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ لَا يُصْرِفُهُمْ عَنْ وَعِيهِهِ صَارِفٌ فَلَا يَحْسِبُوْا أَنَّهُمْ شَفَعَاءُ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا أَنَّ مَكَانَتِهِمْ مِنْ جُوارِ بَيْتِهِ وَعُمَارَةِ مَسْجِدِهِ وَسَقَايَةِ حَجِيجَهِ تَصْرِفُ غَضْبَ اللَّهِ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُمْ أَقْلَعُوا عَنْ هَذَا الْحَسْبَانَ أَقْبَلُوا عَلَى التَّدْبِيرِ فِي النَّجَاهِ مِنْ وَعِيهِهِ بِالنَّظَرِ فِي دَلَائِلِ دُعَةِ الْقُرْآنِ وَصَدْقِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَوْ كَانَ صَارِفٌ يُصْرِفُ اللَّهَ عَنْ غَضْبِهِ لَكَانَ أَوَّلِ الْأَشْيَاءِ بِذَلِكَ مَكَانَةُ هَاتِينَ الْمَرْأَتَيْنِ مِنْ زَوْجِيهِمَا رَسُولِيِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ.^١

فَإِنَّهُ لَا يَغْنِي أَحَدٌ فِي الْآخِرَةِ عَنْ أَحَدٍ، فَلَا يَغْنِي أَخٌ عَنْ أَخِيهِ وَزَوْجٌ عَنْ زَوْجِهِ وَلَا أَبٌ عَنْ أَبِيهِ وَلَا صَاحِبٌ عَنْ صَاحِبِهِ، إِذَا فَرَقَ الدِّينُ بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ امْرَأَ نُوحَ وَامْرَأَ لَوْطَ مَا كَانَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ مِنَ الْكُفَّارِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَمَا كَانَتَا مُشَرِّكَتِيْنِ، وَكَانَتْ امْرَأَ نُوحَ تَقُولُ لِلنَّاسِ عَنْ زَوْجِهَا نَبِيُّ اللَّهِ: إِنَّهُ مُجْنَوْنٌ، وَتَخَالَّفَ فِي الاعْتِقَادِ، وَكَانَتْ امْرَأَ لَوْطَ تَخْبِرُ قَوْمَهُ بِأَضْيَافِهِ، وَتَرْضِي بِفَعَالَمِ الْقَبِيْحَةِ، وَتَوَافَّقُهُمْ عَلَى سُوءِ مَعْنَدِهِمْ، وَهَذِهِ خِيَانَةٌ مِنْهُمَا لِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى وَخِيَانَةٌ لِبَيْنِهِمَا مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ الْكَرَامِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَا يَتَصَوَّرُ أَحَدٌ أَنَّ الْخِيَانَةَ هَذِهِ هِيَ الْخِيَانَةُ فِي الْفَرَاشِ، وَأَنَّهُ الرِّزْنَا فَقْدَ أَجْمَعُ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى أَنَّهُ مَا بَغَتْ امْرَأَ نَبِيٍّ قُطُّ، وَإِنَّمَا كَانَتْ خِيَانَتَهُمَا فِي الدِّينِ.

﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾.

وَلَا كَانَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بِهَذَا الْقَرْبِ مِنْ نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ، فَهِيَ زَوْجُهُ وَأُمُّ أَوْلَادِهِ، رَبِّهَا يَتَوَهَّمُ بَعْضُ النَّاسِ النَّاسَ أَنَّهَا سَيَكُونُ لَهَا حَظٌ وَنَصِيبٌ مِنْ شَفَاعَتِهِ، وَأَنَّهَا سَتَدْخُلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَدْخَلَهُ، وَأَنَّهَا سَتَكُونُ مَعَهُ فِي الْآخِرَةِ كَمَا كَانَتْ مَعَهُ فِي الدُّنْيَا، دَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ التَّوْهِيمَ، فَإِنَّ الْكُفَّارَ يَقْطَعُ كُلَّ صَلَةٍ بَيْنَ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ، لِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ تَنْقَعَّكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ إِمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.^٢

١ - تفسير ابن عاشور التحرير والتوبيخ (٣٧٤ / ٢٨)

٢ - سورة المتحنة: الآية / ٣

﴿فَخَانَتِهِمَا فَلَمْ يُغْنِي عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

وإذا كان حال الناس يوم القيمة أنه لا تملِكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً، مع الموافقة في الاعتقاد، والمتابعة على الدين كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾^١.

وكما ثبت ذلك عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، اشْتَرُوا أَنفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمَطَّلِبِ اشْتَرُوا أَنفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ، يَا أُمَّ الزَّبِيرِ بْنِ الْعَوَامَ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ، يَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، اشْتَرِيَا أَنفُسَكُمَا مِنَ اللَّهِ لَا أَمْلِكُ لَكُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، سَلَّاَنِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمَا».^٢

فما بالك بمن كفر بالله تعالى وأعرض عن هدى المسلمين.

﴿وَقَيلَ ادْخُلُوا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾.

دليل قاطع على أن من كفر بالله تعالى فلا حظ له ولا نصيب في جنة الله تعالى وأنه أبعد الناس عن رحمة الله تعالى، كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا مَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾^٣.

ومثال ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَلَحِنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَلَحِنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرِيمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرِجَاهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوْجِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَجَهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾^٤.

هذا مثل ضربه الله تعالى لِلَّذِينَ آمَنُوا لِحِشْمِهِمْ عَلَى الصَّبَرِ فِي الشِّدَادِ، واحتساب الأجر في الأذى على تمسكهم بدین الله تعالى، وألا يكونوا في عند الشدة أضعف من امرأة فرعون التي صبرت على أذى فرعون، وفي براءة المؤمنين كذلك من ذوي قرابتهم الذين بقوا على الكفر

١ - سورة الإنطصار: الآية / ١٩

٢ - رواه البخاري - كتاب المناقب، باب من انتسب إلى آبائه في الإسلام والجاهلية، حديث رقم: ٣٥٢٥، ومسلم - كتاب الإيمان، باب: في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَبْشِيرَتَكَ الْأَفْرِيْنَ﴾، حديث رقم: ٢٠٦

٣ - سورة المائدة: الآية / ٧٢

٤ - سورة التحرير: الآية / ١١ ، ١٢

ولم يؤمنوا بالله تعالى، وأهل المؤمنين لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم، فقد كان فرعون أعمى أهل الأرض على الله وأبعدهم من الله. فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت رحها، وكانت امرأة فرعون قد أعلنت إيمانها بالله تعالى وتبرأت من فرعون وعمله، وأشارت رضي الله تعالى على ما هي فيه من النعيم، ولم تبال بسخط فرعون وغضبه، فاطلعت فرعون على إيمانها، ودعت رحها فقالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾، قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار.

﴿وَنَجَّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾. ونجني من فرعون ونجني من عمله تعني الكفر، وقيل: من عمله من عذابه وظلمه، وهذا من باب عطف الخاص على العام.

﴿وَنَجَّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. هم أهل مصر المتابعون لفرعون على الكفر، قال الحسن وابن كيسان: نجاهـا الله أكرم نجاـة، ورفعـها إلى الجنة، فهي فيها تأكل وتشرب.^١

وقد أثني عليها النبي صلى الله عليه وسلم ثناء بالغا فقال: «كَمُلَّ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَمَمْكُلُّ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرِيمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ».^٢

قال تعالى: ﴿وَمَرِيمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرِجَاهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّكَا وَكَتُبْتِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾.

وهذا مثل ضربه الله تعالى للذين آمنوا لحثهم على التقوى والخشوع والقنوت لله تعالى، فإن مريم عليها السلام كانت مضرب المثل في العفة والطهارة والعبادة والطاعة لله تعالى.

﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرِجَاهَا﴾. مدحـها الله تعالى على عفتها وبعدهـا عن الفواحـش، ردـا على اليهود عليهم لعنة الله الذين قذفـوها بالـزنا.

١ - تفسير القرطبي (١٨ / ٢٠٣)

٢ - رواه البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلنَّاسِ أَمْنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾، حديث رقم: ٣٤١١، ومسلم - كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، حديث رقم: ٢٤٣١، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾. أي: بواسطة الملك، وهو جبريل، فإن الله بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشر سوي، وأمره الله تعالى أن ينفع بفيه في جيب درعها، فنزلت النفحة فولجت في فرجها، فكان منه الحمل بعيسي، عليه السلام.^١

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكَتُبِيهِ﴾. أي: أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه، وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهياً فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق.^٢

﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾. أي: من الطائعين، العابدين، المصلين.

عن ابن عباس قال: خط رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأرض أربعة خطوط، وقال: "أتدرؤون ما هذا" قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت حويلة، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مراح امرأة فرعون".^٣

١ - تفسير ابن كثير (١٧٣ / ٨)

٢ - تفسير ابن كثير (٤٨٠ / ٥)

٣ - رواه أحمد - حديث رقم: ٢٦٦٨، والسائي في الكبرى - كتاب المناقب، آسية بنت مراح، حديث رقم: ٨٢٩٩، بسنده صحيح

الْتَّلْفِيفُ

تعريف التَّلْفِيفِ:

الْتَّلْفِيفُ لُغَةً: لَفْ الشَّيْءِ فِي الشَّيْءِ^١.

واصطلاحاً: هو أن يقصد المتكلم التعبير عن معنى خطر له أو سُئل عنه، فيلف معه معنى آخر يلزم المعنى الذي سُئل عنه.^٢

وقيل: هو عبارة عن إخراج الكلام من خارج التعليم بحكم أو أدب لم يرد المتكلّم ذكره، وإنما قصد ذكر حكم خاص داخل في عموم الحكم المذكور الذي خرج بتعلّمه.

وقيل: أن يسأل سائل عن حكمٍ فيعدل المسؤول عن الجواب الخاص، ويجيب بجواب عام بتضمين الإبانة عن الحكم المسؤول عنه وعن غيره مما تدعو الحاجة إلى بيانه.

ويقال له أيضاً: التَّنَاسُبُ، لما بين المذكورين من آصرة القرى التي تفيد السامع فائدة لا غنى لها عنها، ويقال له كذلك أسلوب الحكيم.

والْتَّلْفِيفُ فِي طَرِيفٍ مِنْ فَنُونِ الْبَلَاغَةِ، وَأَسْلُوبٌ رَائِقٌ مِنْ أَسَالِيبِ الْفَصَاحَةِ، يَنْسَابُ إِلَى النَّفْسِ انسِيَابًا، يَتَجَلَّ مِنْهُ جَمَالُ الْبَيَانِ، وَتَظَاهِرُ فِيهِ بِلَاغَةُ النِّسَاطِ.

ونضرب للتلَّفِيفِ مثلاً من السنة ليتضح لنا معناه؛ فعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّنِي نَرَكَبُ الْبَحْرَ، وَنَحْمِلُ مَعْنَى الْقَلِيلِ مِنَ الْمَاءِ، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا، أَفَنَتَوَضَّأْنَا بِمَاءِ الْبَحْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيَّتُهُ».^٣

١ - الكليات (ص: ٢٨٢)

٢ - تحرير التحبير في صناعة الشعر والنشر (ص: ٣٤٣)

٣ - رواه أحمد - حديث رقم: ٨٧٣٥، وأبو داود - كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر، حديث رقم: ٨٣، والترمذى - أبواب الطهارة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور، حديث رقم: ٦٩، بسند صحيح

فقد سأله السائل عن حكم التظاهر بماء البحر، فأجابه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عن سؤاله وزاده جواباً لاغنى له عنه، وهو حكم ماء البحر، فإن إذا خفي عليه حكم ماء البحر من حيث الطهارة، فإن حكم ميئته سيكون أشدَّ خفاءً لا محالة، وإذا كان يحتاج إلى معرفة حكم التظاهر بماء البحر، فإنه إلى معرفة حكم ميئه البحر أحوج.

أمثلة التلقيف:

مثال التلقيف قول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ الْنَّاسِ وَالْحَجَّ﴾^١.

ومعنى الآية أن الصحابة رضي الله عنهم لما تاقت نفوسهم إلى تعلم هيئة القمر منه صلى الله عليه وسلم، وقالوا له: يا نبي الله: ما بال الهلال يبدو دقيقاً، ثم لم يزد يكبر حتى يستدير بدراً؟ نزل القرآن بالجواب بما فيه فائدة للبشر وترك ما لا فائدة فيه، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ الْنَّاسِ وَالْحَجَّ﴾^٢.

فالله تبارك وتعالى قدر القمر منازل فأول ما يبدو صغيراً ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسع ويكمel إبداره ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر كقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعَرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلُّ فِلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٩، ٤٠]^٣.

وتفسير هذه الظاهرة لا تفيده الناس شيئاً في دينهم ولا في دنياهם، فأرشدهم الله تعالى إلى ما فيه نفعهم، وهو أنه سبحانه جعل منازل القمر هذه ليعلموا عدد السنين والحساب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^٤.

فالله تبارك وتعالى أمرنا بترك ما لا فائدة فيه من البحث في الظواهر الكونية، وكيفية حدوثها لأنها لا يترتب على معرفتها كببر فائدة، وأرشدنا إلى ما فيه النفع والفائدة لنا.

١ - سورة البقرة: الآية / ١٨٩

٢ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦ / ٣٨٥)

٣ - تفسير ابن كثير (٤ / ٣٨٣)

٤ - سورة يونس: الآية / ٥

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايِّ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى عَنَمِي وَلَيَ فِيهَا مَارِبُ أُخْرَى﴾^١.

فَقُولُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هِيَ عَصَايِّ﴾، جوابٌ كافٍ عن سؤال الله تعالى له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾، لكنه لما كان يكلم رب العالمين، استرسل في الجواب تلذذاً بالخطاب، وأنسًا بالمناجاة، وترشّفًا بتکليم الرحمن جل وعلا له فقال: ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى عَنَمِي وَلَيَ فِيهَا مَارِبُ أُخْرَى﴾، وهذا شأن المحب في كلامه مع محبوبه، لا يريده أن ينقطع، وكأنه افترض سؤالاً ثانياً، وما تفعل بها؟ فقال: ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى عَنَمِي وَلَيَ فِيهَا مَارِبُ أُخْرَى﴾، وهذا هو التلفيف أن يجب بجواب عام يتضمن الإبانة عن الشيء المسؤول عنه وعن غيره.

ومنه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَحَاتَمَ النَّبِيِّنَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^٢.

وردت هذه الآية في سياق ابطال التبني، فهذه الآية نزلت في شأن زيد بن حaritha مولى النبي صلى الله عليه وسلم، كان النبي صلى الله عليه وسلم قد تبناه قبل النبوة، وكان يقال له: زيد بن محمد فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاد وهذه النسبة بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]، ويطرأ هذا التبني، ولما كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم، لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم؛ فإنه ولد له القاسم، والطيب، والطاهر، من خديجة فماتوا صغاراً، وولد له إبراهيم من مارية القبطية، فمات أيضاً رضيعاً، وكان له من خديجة أربع بنات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، رضي الله عنهم أجمعين، فماتت في حياته ثلاثة وتأخرت فاطمة حتى أصيبت به، صلوات الله وسلامه عليه، ثم ماتت بعده لستة أشهر.^٣

١ - سورة طه: الآية / ١٧ ، ١٨

٢ - سورة الأحزاب: الآية / ٤٠

٣ - تفسير ابن كثير (٤٢٨ / ٦)

فكأن قائلاً قال: أليس محمدٌ أبا زيد بن حارثة، أليس قد تبنّاه، فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدًا أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، ينفي أن يكون محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِهِمْ، ويشمل النفي زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان مقتضى الجواب أن يقول: مَا كَانَ مُحَمَّدًا أَبَا زَيْدَ، ولكن أتى الجواب نافياً الأبوة الكلية لأحد من رجالهم، وانطوى في ذلك نفي الأبوة لزَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ من باب التَّلْفِيفِ، فكان الجواب جواباً عاماً يتضمن الإِبَانَةَ عن الشيءِ المسؤول عنه سؤالاً مقدراً وعن غيره لتم به الفائدَة.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ حَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْأَقْرَبَيْنَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ حَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾^١.

فهم إنما سألوا عن الأصناف التي يتقربون إلى الله تعالى بإنفاقها، وأي هذه الأصناف أفضل في النفقة، وأعظم للأجر؟

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾، فأجابهم الله تعالى بجواب عام يتضمن الإِبَانَةَ عن الحكم المسؤول عنه، وبين لهم ما هو أولى بالجواب لهم من سؤالهم الذي سألوه، وما يحتاجونه أكثر من حاجتهم إلى معرفة أي الأصناف أولى بالإنفاق، فقال: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ حَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْأَقْرَبَيْنَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، لأن أفضل العطاء هو ما وافق محله، وناسب موضعه، وهذا هو التَّلْفِيفُ.

قال الزمخشري: فإن قلت كيف طابق الجواب السؤال في قوله: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ﴾، وهو قد سألوا عن بيان ما ينفقون وأجيبوا ببيان المصرف؟

قلت: قد تضمن قوله: ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ حَيْرٍ﴾، بيان ما ينفقونه وهو كل خير، وبني الكلام على ما هو أهتم، وهو بيان المصرف لأن النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها.^٢

وقال الفخر الرازي: في الآية سؤال، وهو أن القوم سألوا عما ينفقون لا عن تصرف النفقة إليهم، فكيف أجابهم بهذا؟.

١ - سورة البقرة: الآية / ٢١٥

٢ - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ٢٥٧)

والجواب عنه من وجوه أحدتها: أنه حصل في الآية ما يكون جواباً عن السؤال وضم إليه زيادة بها يكمل ذلك المقصود، وذلك لأن قوله: ما أنفقتم من خير جواب عن السؤال، ثم إن ذلك الإنفاق لا يكمل إلا إذا كان مصروفاً إلى جهة الاستحقاق، فلهذا لما ذكر الله تعالى الجواب أردفه بذكر المصرف تكميلاً للبيان.^١

١ - مفاتيح الغيب (٦ / ٣٨٢)

التَّقْسِيمُ

تعريفُ التَّقْسِيمِ:

التَّقْسِيمُ لغَةً: مصدر قَسَمٌ: يقال قَسَمَهُ تَقْسِيْمًا، أي: جَزَأَهُ.

والقِسْمُ: النَّصِيبُ، والحَظُّ من الْخَيْرِ أو الشَّرِّ.

قال الخليل: القسمُ مصدر قَسَمَ يَقْسِمُ قَسْمًا، والقِسْمَةُ مصدر الاقْتِسَام، ويقال أيضًا: قَسَمَ بَيْنَهُمْ قِسْمَةً. والقِسْمُ: الحظ من الخير ويجتمع على أقسامٍ.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾^٢.

ومنه قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَفْسُومٌ﴾^٣.

أي نصيب.

التَّقْسِيمُ اصطلاحًا:

قال الزركشي: هو استيفاء المتكلم أقسام الشيء بحيث لا يغادر شيئاً وهو آلة الحصر ومظنة الإحاطة بالشيء.^٤

والتَّقْسِيمُ فن بديع من فنون البلاغة القرآنية، وأسلوبٌ من أساليب القرآن العظيم، به يتجلّي جمال الكلام، ويستشعر السامع روعته، ويظهر به رونقه.

أمثلة التَّقْسِيمِ:

مثاله قول الله تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا أَنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ حَلَاقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا أَنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^٥.

١ - العين (٥ / ٨٦)

٢ - سورة النساء: الآية / ٨

٣ - سورة الحجر: الآية / ٤٤

٤ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٤٧١)

٥ - سورة البقرة: الآية / ٢٠٠ ، ٢٠١

فقد قسم الله تعالى الناس إلى قسمين لا ثالث لهما؛ القسم الأول من لا يسأل إلا الدنيا ولا يسعى إلا لها، والقسم الثاني: من يريد الآخرة ويسعى لها سعيها، ويعمل من أجلها ويسأل الله تعالى النجاة فيها.

وهذا من التقسيم الذي هو من جملة ضروب البيان، وهو تقسيم بديع يحصره المقسم إلى هذين النوعين، لا على ما يذهب إليه الصوفية من أن ثم قسمًا ثالثًا لم يذكر لهم تعالى، قالوا: وهم الراضون بقضاءه، المستسلمون لأمره، الساكتون عن كل دعاء، وافتشاء.^١

ومثال التقسيم قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ لَآيَاتٍ لِأُولَئِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^٢.

ومثاله أيضًا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾^٣. لا تخرج أحوال الإنسان عن هذه الحالات الثلاث، فهو إما أن يكون قائماً، أو قاعداً، أو مُضطجعاً على جنبه، فلم يترك سبحانه قسماً من أقسام الهبات إلا ذكره في هذين الموضعين.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِتُبْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرُّهُ مَرَّ كَانْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾^٤.

والسبب في اختلاف الترتيب عن الآيتين السابقتين **مُغَايِرَةُ سياق الآية** لما قبلها فإن الضر يصيب العبد فيضجعه فُقدم الاضطجاع، فإذا زال بعض الضر قعد المضجع وإذا زال كل الضر قام القاعد فدعا لتم الصحة وتكميل القوة.

١ - البحر المحيط في التفسير (٣٠٩ / ٢)

٢ - سورة آل عمران: ١٩١، ١٩٠

٣ - سورة النساء: الآية/ ١٠٣

٤ - سورة يونس: الآية/ ١٢

ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ حَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ التِّقَالَ﴾^١.

وليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق والطمع في الأمطار ولا ثالث لهما.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا حَلَفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبِّكَ نَسِيَّا﴾^٢.

فاستوَى أَقْسَامُ الزَّمَانِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَالْمَاضِي، وَالْحَاضِرِ، وَلَا رَابِعَ لَهَا.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^٣.

وهذا التقسيم يستوفي كل مخلوق يدب على وجه الأرض، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ إشارة إلى الزواحف، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾، إشارة إلى بني آدم، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾، إشارة إلى باقي المخلوقات من البهائم وغيرها.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تَظَهَرُونَ﴾^٤.

هذه الآية الكريمة جمعت أوقات الصلوات الخمس، فالمراد بالتسبيح هنا: الصلوات الخمس، فعن ابن عباس قال: «كُلُّ تَسْبِيحٍ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ صَلَاةٌ»^٥.

وعن أبي رزين قال: جاء نافع بن الأزرق إلى ابن عباس فقال: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم، فقرأ: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾، صلاة المغرب وحين

١ - سورة الرعد: الآية/١٢

٢ - سورة مريم: الآية/٦٤

٣ - سورة النور: الآية/٤٥

٤ - سورة الروم: الآية/١٧

٥ - رواه الطبراني في تفسيره (١٩١/١٩)

تُصْبِحُونَ ﴿، صَلَاةُ الصُّبْحِ ﴾ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿، صَلَاةُ الظُّهُرِ وَقَرَأً وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ .^١

وعن ابن عباس قال: جمعت هذه الآية مواقيت الصلاة، فسبحان الله حين تمسون، قال: المغرب والعشاء، وحين تصبحون، الفجر، وعشياً، العصر، وحين ظهرون، الظهر.^٢

ومنه قوله تعالى: **﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُفْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقُ بِالْخَيْرَاتِ يَإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.**^٣

قيل جمعت هذه الآية أصناف الناس جميعاً فلا يخلو العالم جميعاً من هذه الأقسام الثلاثة إما ظالم لنفسه وإما سابق مبادر إلى الخيرات وإما مقتصد فيها.

والصحيح أن هذه الأقسام الثلاثة خاصة بهذه الأمة وأنهم جميعاً يدخلون الجنة، بدليل قول الله تعالى بعد ذكر هذه الأصناف: **﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾.**^٤

وهذا التقسيم باعتبار أخذهم بكتاب الله تعالى، وبقدر أخذهم بكتاب الله تعالى تتفاوت درجاتهم في الجنة.

ومنه قوله تعالى: **﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشَامِةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشَامِةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾.**^٥

هذه الآية استوقفت أصناف المؤمنين من هذه الأمة فأصحاب الميمنة هم المقتضدون وأصحاب المشامة هم الظالمون لأنفسهم، والسابقون هم السابقون بالخيرات.

١ - رواه عبد الرزاق - الأول من كتاب الصلاة، باب ما جاء في فرض الصلاة، حديث رقم: ١٨٣٥

٢ - رواه ابن جرير انظر تفسير الطبرى (١٨ / ٤٧٤)

٣ - سورة فاطر: الآية/ ٣٢

٤ - سورة فاطر: الآية/ ٣٣

٥ - سورة الواقعة: الآية/ ٧ - ١٠

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا افْتَنَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنَّ احْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا افْتَنَهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.^١

قسمت هذه الآية الناس بالنسبة إلى الإيمان بالله تعالى إلى قسمين لا ثالث لهما.

القسم الأول: من آمن بالله ورسله.

والقسم الثاني: من كفر بالله ورسله، ولا يخلو الناس من أحد هذين القسمين.

ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.^٢

والكلام فيها كالكلام عن الآية السابقة، فالناس إما مؤمن موحد، وإما كافر مكذب.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.^٣

قسمت هذه الآية الناس بالنسبة إلى الإيمان بدعاوة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم إلى فريقين لا ثالث لهما، الأول: من آمن به وبدعوته، واتبع النور الذي جاء به.

والثاني: من كفر به، وتجحد نبوته، ونابذه العداء، وصد الناس عنه وعن دينه.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَهٌ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهْبِطُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا وَيَهْبِطُ لِمَنْ يَشَاءُ الدُّكُورَ * أَوْ يُنَزِّلُ جُنُّهمْ دُكْرَانًا وَإِنَّا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلَيْمٌ قَدِيرٌ﴾.^٤

قال الزركشي: قسم سبحانه حال الزوجين إلى أربعة أقسام اشتتمل عليها الوجود لأنه سبحانه إما أن يفرد العبد بهبة الإناث أو بهبة الذكور أو يجمعهما له أو لا يهب شيئاً. وقد جاءت الأقسام في هذه الآية لينتقل منها إلى أعلى منها وهي هبة الذكور فيه ثم انتقل إلى أعلى منها وهي وهبتهما جميعاً وجاءت كل أقسام العطية بلفظ الهبة وأفرد معنى الحرمان

١ - سورة البقرة: الآية / ٢٥٣

٢ - سورة التائبين: الآية / ٢

٣ - سورة النساء: الآية / ٥٤ ، ٥٥

٤ - سورة الشورى: الآية / ٤٩ ، ٤٠

بالتأخير، وقال فيه يجعل فعدل عن لفظ الهبة للتغاير بين المعاني كقوله: ﴿يَهُبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا وَيَهُبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾^١.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا هُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِيكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ.... الآية﴾^٢.

فإن الأسباب التي يتعلق بها حق الغير ثلاثة: الملك والشركة والمعونة، فإذا ما يكون مالكا للشيء ملكا مستقلاً، وإنما أن يكون شريكاً لغيره فيه، وإنما أن يكون معيناً لصاحب له فضل عليه، كالوزير، ولا رابع لهذه الأقسام الثلاثة في استحاق الملك، وكلها منافية عن المخلوق مع الخالق سبحانه، فلا يملك أحداً مع الله تعالى مثال ذرة، وليس لأحد مع الله تعالى شرك في الخلق، وليس لله تعالى من خلقه ظهير يعاونه، فإنه تعالى غني عن خلقه، بل وأكثر من ذلك، لا يشفع أحداً عنده سبحانه إلا بإذنه، لذلك قال بعد هذه الثلاثة: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الدُّلُّ وَكَبِيرٌ تَكْبِيرًا﴾^٣.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فإن المخلوق يوالي المخلوق لذله؛ فإذا كان له من يواليه عز بوليه؛ والرب تعالى لا يوالي أحداً لذلته تعالى بل هو العزيز بنفسه و ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَزَّةَ فَإِلَهُ الْعَزَّةُ حَمِيعًا﴾، وإنما يوالي عباده المؤمنين لرحمته ونعمته وحكمته وإحسانه وجوده وفضله وإنعامه.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ حَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾^٥.

١ - البرهان في علوم القرآن (٤٧٣ / ٣)

٢ - سورة سباء: الآية / ٢٢ ، ٢٣

٣ - سورة الإسراء: الآية / ١١١

٤ - مجموع الفتاوى (٨ / ٥١٩ ، ٥٢٠)

٥ - سورة الأعراف: الآية / ٨٧

قال أبو حيان: هذا الكلام من أحسن ما تلطف به في المحاورة إذ بز المتحقق في صورة المشكوك فيه وذلك أنه قد آمن به طائفة بدليل قول المستكبرين عن الإيمان ﴿لَنُحْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ﴾، وهو أيضاً من بارع التقسيم إذ لا يخلو قومه من القسمين.^١

١ - البحر الطحيط في التفسير (١٠٩ / ٥)

التَّأْكِيدُ

تعريف التَّأْكِيدِ:

الْتَّأْكِيدُ لغَةً: التَّوْثِيقُ وَالْإِحْكَامُ، يقال: أَكَدَهُ تَأْكِيدًا: أَيْ وَثَقَهُ وَاحْكَمَهُ، وَالْعَهْدُ الْأَكِيدُ: الْوَثِيقُ الْمُحْكَمُ؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَضُوا أَلْيَمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾^١. ويقال له التَّأْكِيدُ، والْتَّوْكِيدُ.

واصطلاحًا: التَّأْكِيدُ: تابع يقرر أمر المتبوع في النسبة أو الشمول، وقيل: عبارة عن إعادة المعنى الحاصل قبله.

والْتَّأْكِيدُ اللفظي: هو أن يكرر اللُّفْظُ الْأَوَّلُ.^٢

الْتَّأْكِيدُ أَسْلُوبٌ مِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ الْبَلَاغِيَّةِ، وقد أَنْكَرَ قَوْمٌ وُفُوعَةٌ فِي الْقُرْآنِ وَقَالُوا لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ تَأْكِيدٌ بَلْ لَابْدَ أَنْ يُفِيدَ الْكَلَامُ مَعْنَى زَائِدًا عَلَى الْمَعْنَى الْأَوَّلِ، وَلَا فَائِدَةَ فِي مُجْرِدِ التَّأْكِيدِ، وَمِنْ بِلَاغَةِ الْقُرْآنِ فِي النَّظَمِ إِيجَازُ الْلُّفْظِ وَاسْتِيفَاءُ الْمَعْنَى.

وَجُمِهُورُ الْأُمَّةِ عَلَى وُقُوعِ التَّأْكِيدِ فِي الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّهُ نَزَلَ بِلُغَتِهِمُ الَّتِي يَتَحَدَّثُونَ بِهَا وَمِنْ أَسَالِيبِهِمُ التَّأْكِيدُ.

وَالْتَّأْكِيدُ لُونٌ مِنْ أَلوانِ الْفَصَاحَةِ وَفُنْدُونِ الْبِلَاغَةِ، وَأَسْلُوبٌ رَائِقٌ مِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، بِهِ يَتَجلِي جَمَالُ الْكَلَامِ، وَيُظَهِّرُ بِهِ رُونقَهُ، وَيُسْتَشَعِرُ السَّامِعُ رُوعَتِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ فِي كُلِّ مُوْطَنٍ يَذَكُرُ التَّأْكِيدُ فَائِدَةً، كَمَا سَنَبَنَ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الغَرْضُ مِنَ التَّأْكِيدِ:

قال الزَّركشي: والقصد منه الحمل على ما لم يقع ليصير واقعاً وهذا لا يجوز تأكيد الماضي ولا الحاضر لئلا يلزم تحصيل الحاصل وإنما يؤكّد المستقبل.^٣

١ - سورة التحل: الآية/ ٩١

٢ - التعريفات (ص: ٥٠)

٣ - البرهان في علوم القرآن (٢ / ٣٨٤)

أَقْسَامُ التَّوْكِيدِ:

ينقسم التَّأْكِيدُ إلى قسمين:

توكيدٌ صناعيٌّ، وتوكيدٌ معنويٌّ.

القسم الأول: التوكيد الصناعيُّ:

ومعنى التوكيد الصناعي أي الذي يتعلّق باصطلاح النّحاة.

وهذا القسم ينقسم إلى قسمين: توكيدٌ لفظيٌّ، وتوكيدٌ معنويٌّ.

أولاً التوكيد اللّفظيُّ:

التوكيد اللّفظيٌّ وهو تكرارُ اللفظِ الأوَّلِ إِمَّا بِمَرَادِفِهِ، وَإِمَّا بِلَفْظِهِ.

ومثال التوكيد اللّفظيٌّ بِمَرَادِفِهِ: قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدُ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾.

^١

فقوله تعالى: ﴿حَرَجًا﴾ بِكَسْرِ الرَّاءِ - وهي قراءة نافع وأبي جعفر وشعبة ﴿حَرَجًا﴾، ومعناه الضيق، وقال الزجاج: الحرج: أضيق الضيق - تأكيد لقوله: ﴿ضَيِّقًا﴾، وكسر المعنى تأكيداً، وحسن ذلك اختلافُ اللفظِ فإن الحرج مرادف للضيق أو قريب منه.

وفائدة التوكيد: المبالغة في الضيق، فإن الحرج ضيق زائد، أو هو أضيق الضيق.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.^٢

فقوله تعالى: ﴿سُبُلاً﴾، تأكيد لقوله تعالى: ﴿فِجَاجًا﴾.

والفجُّ: الطريقُ الواسعُ. والجمعُ: الفِجاجُ.

والفجُّ: الطريقُ الواسعُ بين الجبلين، أي: جعلنا بين الجبال طرقاً حتى يهتدوا إلى مقاصدهم، و﴿سُبُلاً﴾ جمع سبليٍ؛ أي: طريق.

١ - سورة الأنعام: الآية / ١٢٥

٢ - سورة الأنبياء: الآية / ٣١

وفائدة التوكيد: بيان أَنَّا طرُق نافذة مسلوكة لأنَّ الفجَّ قد يكون طرِيقًا نافذًا مسلوًقا وقد لا يكون.

ومثاله أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدُّدٌ بِيَضْ وَحُمُّرٌ مُخْتَلِفُ الْوَاهِكَأَ وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾.^١

فقوله تعالى: ﴿سُودٌ﴾، تأكيد لقوله: ﴿غَرَابِيبُ﴾، وغَرَابِيب: جمع غَرَابِيب، والغَرَابِيب: اسم للشيء الأسود الحالك سواده، وهو الغراب لشهرة الغراب بالسواد. وفائدة التوكيد: المبالغة في السواد، فهي سوداء حَالِكَ سَوَادُهَا.

ومثال التوكيد اللفظي بلفظه قوله قول الله تعالى: ﴿هَيْهَاتٌ هَيْهَاتٌ لِمَا تُوعَدُونَ﴾.^٢
فإن قوله تعالى: ﴿هَيْهَاتٌ﴾، في الموضع الثاني تأكيد لفظي لقوله تعالى: ﴿هَيْهَاتٌ﴾، في الموضع الأول.

و﴿هَيْهَاتٌ﴾ اسم فعل ماضٍ بمعنى: بَعْدًا.

وفائدة التوكيد هنا: المبالغة في نفي البُعث وانكاره، واستبعاد وقوعه.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِإِنِيَّةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٌ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ (١٥) قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ.^٣

فإن قوله تعالى: ﴿قَوَارِيرًا﴾، لفظ: ﴿قَوَارِيرًا﴾ الثاني تأكيد لفظي لنظيره.

وفائدة التوكيد هنا: زيادة الإيضاح أنَّ هذه الآنية وإنْ كانت مِنْ فِضَّةٍ إلا أنَّ لها رِقة الزجاج وصفاءه.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَمْهَلْهُمْ رُؤْبِدًا﴾.^٤

فإن قوله تعالى: ﴿أَمْهَلْهُمْ﴾، تأكيد لفظي لقوله تعالى: ﴿فَمَهْلِ﴾، وحُولفَ بين الفعلين في التَّعْدِيَة فذكر مرَّةً بِالتَّضَعِيفِ ﴿فَمَهْلِ﴾ وأُخرى بالهمز: ﴿أَمْهَلْهُمْ﴾ ليحسنَ تكريره.

١ - سورة فاطر: الآية/ ٢٧

٢ - سورة المؤمنون: الآية/ ٣٦

٣ - سورة الإنسان: الآية/ ١٥ ، ١٦

٤ - سورة الطارق: الآية/ ١٧

وفائدة التأكيد هنا: فَصُدُّ زِيَادَةِ التَّسْكِينِ والتصبير لقلب النبي صلى الله عليه وسلم.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.^١

فإن قوله تعالى: ﴿تَسْلِيمًا﴾، مصدرٌ وتأكيدٌ لفظيٌّ؛ لقوله تعالى: ﴿سَلِّمُوا﴾.

فائدة:

وإنما لم يؤكد الأمر بالصلاحة عليه بمصدر فيقال: صلوا عليه صلاة، لأن الصلاة غالب إطلاقها على معنى الاسم دون المصدر، وقياس المصدر التصلية ولم يستعمل في الكلام؛ لأنه اشتهر في الإحراق، قال تعالى: ﴿وَتَصْبِيلَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٤].

ولأنَّ الأَمْرَ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ قد حَصَلَ تَأْكِيدُهُ بِالْمَعْنَى فِي أُولَئِكَيَّةِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلِّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾. وفي هذا ترغيب عظيم في الاقتداء بِشَانِ الله تعالى وملائكته في الصَّلَاةِ عليه.

وفائدة التأكيد هنا: الإشارة إلى عظيم منزلة النبي صلى الله عليه وسلم، والتنويه بعلو قدره عند الله تعالى، وارتفاع منزلته.

ومثال التوكيد اللفظي بلفظه توكيده الجملة، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.^٢

فإن الجملة الثانية وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، توكيده للجملة الأولى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

أتى لفظ: ﴿الْعُسْر﴾ معرفاً في الموصعين، والتعريف في الموضع الثاني لِلْعَهْدِ، فيكون العُسْرُ واحداً، وأتى لفظ: ﴿يُسْرًا﴾، مُنْكَرًا في الموصعين للنوع؛ فيكون الثاني معايراً للأول ويكون اليُسْرُ اثنين.

١ - سورة الأحزاب: الآية / ٥٦

٢ - تفسير ابن عاشور التحرير والتتوير (٢٢ / ١٠٣)

٣ - سورة الشرح: الآية / ٥ ، ٦

وفائدة التأكيد هنا: تطمئن الله تعالى لعباده أن العسر لا بد أن يعقبه يسر كما كان يسبقه يسر، ولن يغلب عسر يسرين.

فائدة:

قال أبو عبيدة وغيره من أهل العلم باللغة إن النكرة إذا ثنيت كانت اثنتين فقوله يسرا ويسرا يسرا والعسر عسر واحد كأنه جاء للتأكيد لأنها معرفة هكذا قالوا أو معناه.^١

وقال الفراء: العرب إذا ذكرت نكرة ثم أعادتها بنكرة مثلها صارت ثنتين، وإذا أعادتها بمعرفة فهي هي. تقول من ذلك: إذا كسبت درهما فأنفق درهما، فالثاني غير الأول، فإذا أعدته بالألف واللام فهي هي، تقول من ذلك: إذا كسبت درهما فأنفق الدرهم، فالثاني هو الأول.^٢

وقيل: إن وجه ذلك أنه لما عرف العسر اقتضى استغراق الجنس فكان العسر الأول هو الثاني من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ولما كان اليسر منكراً كان الأول منه غير الثاني.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾.^٤
فإن الجملة الثانية وهي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾، توكيده للجملة الأولى:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾.

وفائدة التأكيد هنا: تعظيم شأن يوم القيمة.

ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.^٥
فإن الجملة الثانية وهي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَلَا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، توكيده للجملة الأولى:

﴿كَلَا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

وفائدة التأكيد هنا: المبالغة في الوعيد، قال الحسن البصري: هذا وعيده بعد وعيده.

١ - الاستذكار (٥ / ٥)

٢ - تحذيب اللغة (٤٩ / ٢)

٣ - المتنقى شرح الموطأ (١٦٥ / ٣)

٤ - سورة الانفطار: الآية/١٧، ١٨

٥ - سورة النكاثر: الآية/٣، ٤

تنبيه:

ليس من باب التوكيد اللغظي قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكَّا دَكَّا﴾.^١
 ولكن المعنى أن الدك كرر عليها، فالمراد أن الأرض دكت دكًا بعد دك، حتى صارت هباءً
 منثورًا، كقول القائل: قرأنا النحو باباً باباً.

قال القرطي: دكًا دكًا أي: مررت بعد مررت.^٢

وقال أبو حيان: دكًا دكًا: حال كقوهم: باباً باباً، أي مكرراً عليهم الدك.^٣
 وليس من باب التوكيد كذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفَّا صَفَّا﴾.^٤
 وإنما المراد أن ملائكة كل سماء تنزل فيصطفون صفوفاً، صفّاً بعد صفّ محيطين بالإنسِ
 والجن.^٥

قال الزمخشري: صفّا صفّا، ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفّا بعد صف محددين
 بالجن والإنس.^٦

وليس من باب التوكيد كذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَعْنًا وَلَا تُؤْثِمَا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾.^٧

فإن سلاماً الثانية ليس تأكيداً له: سلاماً الأولى، وإنما المراد أن الملائكة تسلم
 عليهم سلاماً بعد سلام، فالمراد بيان تكثير السلام وليس تأكيد السلام الأول.

١ - سورة الفجر: الآية / ٢١

٢ - تفسير القرطي (٥٤ / ٢٠)

٣ - البحر المحيط في التفسير (٤٧٥ / ١٠)

٤ - سورة الفجر: الآية / ٢٢

٥ - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٧٥١ / ٤)

٦ - سورة الواقعة: الآية / ٢٥، ٢٦

قال ابن عاشور: و﴿سَلَامًا﴾، الأول مقول قيلاً أي هذا اللفظ الذي تقديره: سلمنا سلاماً، فهو جملة محكية بالقول، و﴿سَلَامًا﴾، الثاني تكرير ل﴿سَلَامًا﴾، الأول تكريراً ليس للتأكيد بل لإفاده التعلق، أي سلاماً إثر سلامٍ.^١

ومن التوكيد اللغطي: توكيد الضمير المنفصل بمثله، ومثال ذلك قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقَنُونَ﴾.^٢

فإن الضمير المنفصل، الذي هو لفظ: ﴿هُمْ﴾، من قوله تعالى: ﴿هُمْ يُوقَنُونَ﴾، تأكيد للضمير الأول وهو لفظ: ﴿هُمْ﴾، من قوله تعالى: ﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ﴾.

وفائدة التأكيد بإعادة الضمير هنا: أن هؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة: هم الموقنون بالآخرة، وما يؤمن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق.^٣

ومن التوكيد اللغطي أيضاً: توكيد الضمير المتصل بالمنفصل كقوله سبحانه: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا أَنَّ تُلْقِيَ وَإِنَّا أَنَّ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾.^٤

فإن الضمير المنفصل، الذي هو لفظ: ﴿نَحْنُ﴾، من قوله تعالى: ﴿نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾، تأكيد للضمير المتصل من قوله تعالى: ﴿نَكُونَ﴾.

وفائدة التأكيد إظهار ثقتهم بسحرهم واعتدادهم بأنفسهم.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾.^٥

فإن الضمير المنفصل، الذي هو لفظ: ﴿أَنْتَ﴾، من قوله تعالى: ﴿أَنْتَ الْأَعْلَى﴾، تأكيد للضمير المتصل من قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ﴾.

وفائدة التأكيد هنا تثبيت قلب موسى عليه السلام وبعث الطمأنينة في نفسه.

١ - التحرير والتبيير (٢٩٧ / ٢٧)

٢ - سورة التمل: الآية / ٢

٣ - تفسير الكشاف (٣ / ٣٤٧)

٤ - سورة الأعراف: الآية / ١١٥

٥ - سورة طه: الآية / ٦٨

ومن التوكيد اللفظي أيضًا: توكيد الفعل بمصدره، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَلَمُ اللَّهِ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^١.

فإن المصدر: ﴿تَكْلِيمًا﴾، توكيد للفعل ﴿كَلَم﴾.

وفائدة التأكيد هنا دفع توهם المجاز، فإن الكلام قد يطلق على الإيحاء، فأنت المصدر وهو قوله تعالى: ﴿تَكْلِيمًا﴾، بعد قوله تعالى: ﴿وَكَلَمُ اللَّهِ مُوسَى﴾؛ لبيان أن الكلام كلام حقيقي وليس مجازيًّا.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيِّرًا﴾^٢.

فإن المصدر: ﴿مَوْرًا﴾، توكيد للفعل ﴿تُورُ﴾.

وكذلك فإن المصدر: ﴿سَيِّرًا﴾، توكيد للفعل ﴿تَسِيرُ﴾.

وفائدة التأكيد هنا أن مور السماء وأضطرابها، وسير الجبال مما قد تتردد النفس في قوله، فجيء بالمصدر؛ لدفع ما يعتمل في النفس من الشك أو التردد في قبول ذلك.

ومما يلحق بالتوكيد اللفظي: توكيد الفعل بمصدر آخر غير المصدر المؤكّد للفعل المذكور، وإن كان في هذا خروج عن القاعدة الأصلية في تأكيد الفعل بمصدره، وأن يأتي المصدر المؤكّد اتّباعًا لِفِعْلِهِ كما مر معنا في الأمثلة السابقة، ولذلك لنكت بلاغية رائعة، وفوائد بيانية رائقة كما سنبين.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَادْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَّلَ إِلَيْهِ تَبْيِلًا﴾^٣.

فإن مصدر الفعل ﴿تَبَّلَ﴾ هو: ﴿تَبَّلًا﴾ وليس ﴿تَبْيِلًا﴾، و﴿تَبْيِلًا﴾ هو مصدر بَّلَ.

والحكمة في العدول عن مصدر الفعل المذكور في الآية أن الفعل ﴿تَبَّلَ﴾ يدل على التكلف والتدريج، وهو أول درجات الاجتهاد في العبادة، والمصدر ﴿تَبْيِلًا﴾، يدل على التكثير والبالغة، وهو النهاية في الاجتهاد في العبادة فضفْيَن الفعل: ﴿تَبَّلَ﴾ التكلف معنى الفعل: (بَّلَ) الذي يفيد المبالغة بَّل نفَسَكِ إِلَيْهِ تَبْيِلًا^٤.

١ - سورة النساء: الآية /١٦٤

٢ - سورة الطور: الآية /٩، ١٠

٣ - سورة الزمر: الآية /٨

٤ - انظر البرهان في علوم القرآن (٢/٣٩٥)، وبصائر ذوي التمييز في طائف الكتاب العزيز (٢/٣٢٣)

قال ابن القيم: ومصدر بتل بتلا كالتعلم والتفهم، ولكن جاء على التفعيل - مصدر تفعل - لسر لطيف. فإن في هذا الفعل إيزانا بالتدريج والتکلف والتعلّم والتکثّر والبالغة. فأتي بالفعل الدال على أحدهما، وبالمصدر الدال على الآخر. فكأنه قيل: بتل نفسك إلى الله بتبيلا، وتبتل إليه بتبيلا. ففهم المعينان من الفعل ومصدره. وهذا كثير في القرآن. وهو من أحسن الاختصار والإيجاز.^١

وقال الفخر الرازي: الواجب أن يقال: وتبتل إليه بتبيلاً أو يقال: بتل نفسك إليه بتبيلاً، لكنه تعالى لم يذكرهما واختار هذه العبارة الدقيقة وهي أن المقصود بالذات إنما هو التبتل فاما التبتيل فهو تصرف والمشتغل بالتصريف لا يكون متبتلاً إلى الله لأن المشتغل بغير الله لا يكون منقطعاً إلى الله، إلا أنه لا بد أولاً من التبتيل حتى يحصل التبتل كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينَا لَنَهَدِيَّنَّهُمْ سُبُّلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فذكر التبتل أولاً إشعاراً بأنه المقصود بالذات وذكر التبتيل ثانياً إشعاراً بأنه لا بد منه ولكنه مقصود بالغرض.^٢

قال قتادة: ﴿وَتَبَتَّلَ إِلَيْهِ تَبَتِّلًا﴾: أخلص له العبادة والدعوة.^٣

وأصل التبتل في اللغة القطع، وقيل لمريم البتول لأنها انقطعت إلى الله تعالى في العبادة، وصدقة بتلة منقطعة من مال صاحبها. وقال الليث: التبتيل تمييز الشيء عن الشيء، والبتول كل امرأة تنقبض من الرجال، لا رغبة لها فيهم. إذا عرفت ذلك فاعلم أن للمفسرين عبارات، قال الفراء: يقال للعبد إذا ترك كل شيء وأقبل على العبادة قد تبتل أي انقطع عن كل شيء إلى أمر الله وطاعته.^٤

ومما يلحق بالتوکید اللفظي: قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ إِلَيْيِ مُنْرِهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنَّمَا أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾^٥.

فإن مصدر الفعل ﴿أُعَذِّبُهُ﴾ هو: تعذيباً وليس ﴿عَذَابًا﴾، و﴿عَذَابًا﴾ هو اسم المصدر.

١ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣١ / ٢)

٢ - مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٦٨٧ / ٣٠)

٣ - جامع البيان (٣٧٩ / ٢٣)

٤ - مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٦٨٧ / ٣٠)

٥ - سورة المائدة: الآية / ١١٥

والحكمة في العدول عن مصدر الفعل المذكور في الآية إلى اسم المصدر أن المراد: فإنني أُعذِّبُه جنساً من العذاب لا أُعذِّبُ به أحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، على تقدير حذف حرف الجر، ولا شك أن هذا تحديد شديد، ووعيد عظيم، من الله تبارك وتعالى، والسبب أن الله تعالى جعل مثل هؤلاء لوناً من العذاب، وجنساً من العقاب معايراً لسائر الكفار؛ أن الله تعالى أقام لهم الأدلة والبراهين على وحدانيته وكمال قدرته، وأن هذه الأدلة كانت بطلب منهم، فمن كفر بعد ذلك فإن سبب كفره هو الجحود، والعناد.

والجهة الثانية أن يكون الضمير في قوله تعالى: ﴿لَا أُعذِّبُه﴾ عائداً على المصدر، فيكون المعنى فإني أُعذبه تعذيباً ﴿لَا أُعذِّبُه أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُفْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.^١

فإن مصدر الفعل ﴿يُفْرِضُ﴾ هو: إقراضًا؛ لأنَّه من أقرض الرباعي، وليس ﴿قرضاً﴾؛ لأن ﴿قرضاً﴾ مصدر قرض الثلاثي.

والحكمة في العدول عن مصدر الفعل المذكور في الآية ﴿يُفْرِضُ﴾ إلى مصدر (قرض)، وهو ﴿قرضاً﴾، لأنَّ القرض يطلق ويراد به المال، ويطلق ويراد به الفعل وهو الإقراض، فجمع بين الأمرين في الآية، الفعل الذي هو الإقراض دل عليه الفعل ﴿يُفْرِضُ﴾، والمال الذي هو القرض دل عليه لفظ: ﴿قرضاً﴾، ليجتمع الإحسان في الفعل والمال، فيكون الإقراض حسناً، ليس فيه مَنْ ولا أذى، ولا رِبَّا، ويكون المال حلالاً طيباً.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقُبُولِ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾.^٢

فإن مصدر الفعل (أنبت) من قوله تعالى: ﴿أَنْبَتَهَا﴾ هو: إنْبَاتاً؛ لأنَّه رباعي، وليس ﴿نَبَاتًا﴾؛ لأن ﴿نَبَاتًا﴾ مصدر نَبَاتَةً الثلاثي.

والحكمة في العدول عن مصدر الفعل المذكور في الآية: ﴿أَنْبَتَهَا﴾، إلى مصدر (نبَتَ) وهو: ﴿نَبَاتًا﴾؛ هو الشفاء على مريمٍ عَلَيْهَا السَّلَامُ بالاستقامة على أمر الله تعالى، وحسن طاعته؛ لأنَّ الله تعالى أَنْبَتَهَا فنبَتَتْ نَبَاتًا حَسَنًا، فدل الفعل على تعهد الله تعالى لها بالرعاية،

١ - سورة البقرة: الآية: ٢٤٥

٢ - سورة آل عمران: الآية / ٣٧

وَدَلِيلُ المَصْدَرِ عَلَى كَرَمِ أَصْلَهَا، وَحَسْنِ اسْتِقْامَتِهَا، وَمِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾^١.

وَمَا يَلْحُقُ بِالتَّوْكِيدِ الْلَّفْظِيِّ: أَيْضًا تَوْكِيدُ الْفَعْلِ بِالْحَالِ الْمُؤَكَّدَةِ، وَسَمِيتُ حَالٌ مُؤَكَّدَةٌ؛ لِأَنَّهَا تُعْلَمُ قَبْلَ ذِكْرِهَا؛ فَيَكُونُ ذِكْرُهَا تَوْكِيدًا، لِأَنَّهَا مَعْلُومَةٌ مِنْ ذِكْرِ صَاحِبِهَا.^٢

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.^٣

فَإِنْ قَوْلُهُ: ﴿مُفْسِدِينَ﴾، حَالٌ مِنَ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَعْثُوا﴾، وَهِيَ مُؤَكَّدَةٌ لِلْفَعْلِ: ﴿تَعْثُوا﴾، فَإِنْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْثُوا﴾، مِنْ عَيْنِي يَعْتَى عُثُواً وَمَعْنَاهُ أَفْسَدَ أَشَدَّ الْإِفْسَادِ، فَأَتَى قَوْلُهُ: ﴿مُفْسِدِينَ﴾، لِتَأْكِيدِ الْفَعْلِ: ﴿تَعْثُوا﴾.

وَفَائِدَةُ التَّوْكِيدِ: بِيَانِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي الْإِفْسَادِ، وَتَحْذِيرِهِمْ مِنْ مَغْبَةِ ذَلِكَ.

وَمِنْ تَوْكِيدِ الْفَعْلِ بِالْحَالِ الْمُؤَكَّدَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تُمُّ تَوَلَّتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾.^٤

فَإِنْ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾، فِي مَحْلٍ نَصْبٍ حَالٌ وَهِيَ حَالٌ مُؤَكَّدَةٌ لِأَنَّهَا فِي مَعْنَى تَوْلِيَتُمْ.

وَفَائِدَةُ التَّوْكِيدِ بِلِفْظِهِ: ﴿مُعْرِضُونَ﴾ الدَّلَالَةُ عَلَى تَنَاهِي حَالِهِمْ فِي الضَّلَالِ، وَتَنَاهِي أَفْعَالِهِمْ فِي الْقَبْحِ.

وَمِنْ تَوْكِيدِ الْفَعْلِ بِالْحَالِ الْمُؤَكَّدَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ أُبَعَثُ حَيَاً﴾.^٥

فَإِنْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَيَا﴾ تَوْكِيدٌ لِقَوْلِهِ: ﴿أُبَعَثُ﴾، فَإِنْ مِنْ لَوَازِمِ الْبَعْثِ الْحَيَاةِ، فَمَعْنَاهَا مُسْتَفَادٌ مِنْ دُونِ ذِكْرِ لَفْظِ الْحَيَاةِ، فَلَمَّا ذَكَرَ بَعْدَهَا الْحَالَ ﴿حَيَا﴾، كَانَ تَأْكِيدًا لِقَوْلِهِ: ﴿أُبَعَثُ﴾.

١ - سورة نوح: الآية/١٧

٢ - انظر البرهان في علوم القرآن (٤٩٨ / ٢)

٣ - سورة البقرة: الآية/٦٠

٤ - سورة البقرة: الآية/٨٣

٥ - سورة مريم: الآية/٣٣

والحكمة من التوكيد هنا، أن عيسى عليه السلام لما رفعه الله تعالى إليه، كما قال تعالى:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (١٥٧) بَلْ رَقَعَةُ اللَّهِ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا^١.

ربما توهم بعض الناس أنه لا يموت كما يموت غيره من المخلوقات، لأنه رفع إلى السماء حيا، فدللت الآية على أنه يموت كما تموت الخلائق، بعد نزوله إلى الأرض قبل قيام الساعة، ويعود كما تبعث المخلوقات، ويحييا كما يحيون بعد البعث.

وما يلحق بالتأكيد اللفظي: أيضاً توكيد الفعل بالحال المؤكدة.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهِ﴾^٢.

فإن قوله: ﴿ضَاحِكًا﴾، منصوب على الحال من الضمير في قوله: ﴿فَتَبَسَّمَ﴾، وهي مؤكدة للفعل: ﴿تَبَسَّم﴾، فإن معنى تبسم: أي ضحك مسروراً، وقيل: هي حال مقدرة فإن التبسم ابتداء الضحك، والراجح أنها حال مؤكدة للفعل، لأن ضحك الأنبياء عليهم السلام تبسم.

وفائدة التأكيد هنا: بيان أن الضحك كان سروراً بما قالته النملة، فإن التبسم قد يكون للغضب، ومنه قول كعب بن مالك: "فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسَّمَ الْمُعْضِبِ"، وقد يكون سروراً.

وإنما تبسم ضاحكاً لسبعين: أحدهما سروراً بما أعطاه الله من النعم حيث سمع قول النملة وفهم مرادها؛ والثاني: لثناء النملة عليه وعلى جنوده، فإن قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وصف لهم بالتقوى، والتحفظ من الظلم، بل ومن مضره الحيوان، ولا عجب في ذلك فقد كان كلام النملة عجياً.

قال بعض العلماء في هذه الآية: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَخْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانٌ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^٣.

١ - سورة النساء: الآية/ ١٥٨ ، ١٥٧

٢ - سورة النمل: الآية/ ١٩

٣ - سورة النمل: الآية/ ١٨

هذه الآية من عجائب القرآن لما فيها من أنواع من البلاغة، لأنها بلفظة ﴿يَا﴾ نادت **و﴿أَيُّهَا﴾** نبهت، و﴿النَّمَل﴾ عينت، و﴿إِذْ هُلُوا﴾ أمرت، و﴿مَسَاكِنَكُم﴾ نصّت، و﴿لَا يَحْطِمَنَّكُم﴾ حذّرت، و﴿سُلَيْمَان﴾ خصّت، و﴿وَجْنُودُهُ﴾ عمّت، و﴿وَهُمْ﴾، أشارت، و﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ عذرّت.^١

ومما يلحق بالتأكيد اللفظي أيضًا توکيد الفعل بالحال المؤكدة.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾^٢.

فإن قوله: ﴿رَسُولًا﴾، منصوب على أنه حال من الكاف في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ﴾، وهي حال مؤكدة لعاملها وهو: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ لفظاً ومعنىًّا.

وقيل: ﴿رَسُولًا﴾، مصدر مؤكّد بمعنى ذا رسالة أو بمعنى إرسال، وليس حال مؤكدة لأن الشيء المرسل قد لا يكون رسولاً كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾.

والراجح أنها حال مؤكدة للفعل.

وفائدة التأكيد هنا: التنبيه على عظم مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم وجلال قدره، وعلى شأنه وأن الله أرسله للناس جميّعاً، فرسالته عامة للناس وليس قاصرةً على العرب الذين بعث فيهم كما تزعم فرقـة من اليهود، ومن فائدة التأكيد كذلك، أنه أرسل جامعاً لأكمل كل صفات الرسل.

ومن فائدة التأكيد كذلك بـ ﴿رَسُولًا﴾، الرد على المشركين الذين تطيروا برسالته صلى الله عليه وسلم، وادعوا أنه سبب وقوع السيئات، فإن قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾، أي أرسلناك مبلغًا عن الله لا مؤثّراً في الحوادث، وليس بعثتك علامـة على وقوع الحوادث السيئة.

١ - انظر زاد المسير في علم التفسير (٥ / ١٩)، وتفسیر السراج المنير (٣ / ٦١)

٢ - سورة النساء: الآية / ٧٩

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَحَدْنَا مِيَافِكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهُدُونَ﴾^١.

فإنَّ قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهُدُونَ﴾، في محل نصب حال وهي حال مؤكدة؛ لأنَّ معنى الإقرار قريب من معنى الشهادة.

وفائدة التأكيد هنا: إقامة الحجَّة عليهم، حيث إنهم أقرُوا بهذا الميثاق الذي أخذه الله تعالى عليهم، وهم يعتقدونه بقولهم، ولا ينكرونَه، بل يشهدون به ويعلنونه.

١ - سورة البقرة: الآية / ٨٤

الخاتمة

لا شك أن من عجائب القرآن تلك الأساليب البلاغية، والتراكيب الفريدة، مع جودة السبك ورصانة الألفاظ، وحسن النظم، وسلطان القرآن على القلوب، وغير ذلك من دلائل إعجازه، وأسراره التي تخلق بمَنْ أقبل عليه في سماء البيان، ولا ينقضى منها العجب. فمن أراد سعادة الدنيا والآخرة فعليه بالقرآن تلاوة وتدبراً وعملاً؛ فإنه حبل الله المتين، وصراطه المستقيم، لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه.

قال مالك بن دينار رحمه الله: يا حملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم، فإن القرآن ربيع المؤمنين كما أن الغيث ربيع الأرض، وقد ينزل الغيث من السماء إلى الأرض فيصيب الحش فتكون فيه الحبة فلا يمنعها نتن موضعها أن تخضر وتحتزر وتحسن، فيما حملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟^١

وقال وهيب بن الورد رحمه الله: قيل لرجل ألا تنام؟ قال: إن عجائب القرآن أطرن نومي.^٢

وصحب رجل رجلاً شهرين فلم يره نائماً فقال: ما يلي لا أراك نائماً قال: إن عجائب القرآن أطرن نومي ما أخرج من أujeوبة إلا وقعت في أخرى.^٣

وقال أحمد بن الحواري رحمه الله: إني لأقرأ القرآن، وأنظر في آية فيحير عقلي بها، وأعجب من حفاظ القرآن كيف يهينهم النوم، ويسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلام الله، أما إنهم لو فهموا ما يتلون، وعرفوا حقه وتلذذوا به، واستحلوا المناجاة به؛ لذهب عنهم النوم فرحاً بما رزقوا.^٤

نسأل الله أن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته.

١ - التبصرة لابن الجوزي (٢٦٨ / ٢)

٢ - لطائف المعارف (ص: ١٧٣)

٣ - لطائف المعارف (ص: ١٧٣)

٤ - لطائف المعارف (ص: ١٧٣)

الفهرس

٣	المقدمة
٨	الفصل الأول بلاغة القرآن.....
٩	الفصل الثاني.....
٢١	مِنْ أَسَالِيْبِ الْقُرْآنِ الْبَلَاغِيَّةِ.....
٢١	الاحتياك.....
٢٢	حد الاحتياك:.....
٢٢	من صور الاحتياك في كتاب الله تعالى:.....
٢٣	الالتقاط الالتقاط:.....
٣٧	فائدته:.....
٣٧	شرط الالتقاط:.....
٣٧	مثال الالتقاط من التكلم إلى الغيبة:.....
٤٠	مثال الالتقاط من الواحد إلى الجمع:.....
٤٠	مثال الالتقاط من الغيبة إلى التكلم:.....
٤١	مثال الالتقاط من الغيبة إلى الخطاب:.....
٤٣	التضمين حد التضمين:.....
٤٣	التضمين بين الكوفيين والبصريين:.....
٤٤	التضمين في الأسماء:.....
٤٥	

أمثلة على التضمين في الأسماء:	٤٥
التضمين في الحروف:	٤٦
أمثلة على التضمين في الحروف:	٤٦
التضمين في الأفعال:	٤٧
أمثلة على التضمين في الأفعال:	٤٧
التغليب:	٥٩
حد التغليب:	٥٩
أمثلة التغليب:	٦٠
حُرُوجُ الْلَّفْظِ مَخْرَجُ الْغَالِبِ	٦٨
أمثلة على حُرُوجُ الْلَّفْظِ مَخْرَجُ الْغَالِبِ:	٦٨
اللُّفُّ وَالنَّشْرُ	٧١
تعريف اللُّفُّ وَالنَّشْرِ:	٧١
أقسام اللُّفُّ وَالنَّشْرِ:	٧٢
أولاً: اللُّفُّ وَالنَّشْرُ المرتب:	٧٢
ثانياً: اللُّفُّ وَالنَّشْرُ غير المرتب:	٧٥
الإيجاز:	٧٨
الفرق بين إيجازِ القصرِ وإيجازِ الحذف:	٧٨
ثانياً: إيجازُ الحذف:	٨٢
أمثلة حذف حرف:	٨٢
أمثلة حذف كَلِمَةٍ:	٨٣
أمثلة حذف أكثر من كَلِمَةٍ:	٨٦
الإطناب:	٩١

تعريف الإطناب:	٩١
أقسام الإطناب:	٩١
أمثلة الإطناب:	٩٢
القسم الأول الإطناب بالبسط:	٩٢
القسم الثاني إطناب الزيادة:	٩٨
أمثلة إطناب الزيادة:	٩٨
عطف الخاص على العام	١٠٢
فائدته:	١٠٢
أمثلة عطف الخاص على العام:	١٠٢
عطف العام على الخاص	١٠٨
التَّذَبِيلُ	١١٢
حد التَّذَبِيلِ:	١١٢
أقسام التَّذَبِيلِ:	١١٢
أمثلة ما لا يجري بجرى المثل:	١١٣
الاحتِرَاسُ	١١٦
حد الاحتِرَاسِ:	١١٦
أمثلة الاحتِرَاسِ:	١١٦
الاعتِراضُ	١٢٠
حد الاعتِراضِ:	١٢٠
أسباب الاعتراض:	١٢٠
وضع الظاهر موضع المضمر	١٣٢
العامُ المراد به الخصوصُ	١٤٠

حدُّ العامِ:	١٤٠
أَقَاطُ الْعُمُومِ:	١٤٠
حدُّ الْخَاصِّ:	١٤٠
التَّرْقِيُّ:	١٤٩
حدُّ التَّرْقِيِّ:	١٤٩
أَمْثَلُ التَّرْقِيِّ:	١٤٩
الطبَاقُ:	١٥٧
تَعْرِيفُ الطِّبَاقِ:	١٥٧
أوَّلُ الطِّبَاقُ الْلَّفْظِيُّ:	١٥٨
أَمْثَلُ الطِّبَاقِ الْمَعْنَوِيِّ:	١٦٠
تعريف طِبَاقِ السَّلْبِ:	١٦١
أَمْثَلُ الطِّبَاقِ فِي الْأَسْمَاءِ:	١٦٢
المَدْرَجُ:	١٦٤
تعريف المَدْرَجِ:	١٦٤
أَمْثَلُ المَدْرَجِ:	١٦٤
الْكِنَائِيَّةُ:	١٦٩
تَعْرِيفُ الْكِنَائِيَّةِ:	١٦٩
أَسْبَابُ الْكِنَائِيَّةِ:	١٦٩
ضَرْبُ الْأَمْثَالِ:	١٧٦
تَعْرِيفُ الْمَثَلِ:	١٧٦
فوائد تعلم أمثل القرآنِ:	١٧٧
فائدة ضَرْبِ الْأَمْثَالِ فِي الْقُرْآنِ:	١٧٨

الأمثال في القرآن قسمان:	١٧٩
مثال القسم الأول:	١٧٩
التلقييف	١٩٩
تعريف التلقييف:	١٩٩
أمثلة التلقييف:	٢٠٠
التقسيم	٢٠٤
تعريف التقسيم:	٢٠٤
أمثلة التقسيم:	٢٠٤
التأكيد	٢١١
تعريف التأكيد:	٢١١
العرض من التأكيد:	٢١١
أسام التوكيد:	٢١٢
أولاً التوكيد اللغطي:	٢١٢
الخاتمة	٢٢٥
الفهرس	٢٢٦